www.kotobarabia.com

رواية

www.kotobarabia.com

تفريغ الكائن

خليل النعيمي

تفريغ الكائن

خليل النعيمي

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

(١)

لن أجلس، بعد اليوم، ملتاعًا لأكتب.

أكبت لمن؟ ولماذا؟ وكيف؟

يكفي تغير كل شيء.

الكتابة؟ التفكير المستمر بها؟ هوسها وخفاياها.

الكتابة. قناع التُفّه والأفاقين.

لا. يكفي. هذا المساء أريد أن أحكي. أريد أن أبكي. أن أبحث عن نفسي بين الأنقاض. الكتابة صامتة وبليدة. وأنا هذا المساء أبحث عن ضجيج.

منذ سنين وأنا أريد أن أفهم كل شيء. لكن التغلغل المستمر بين اللحظة واللحظة يشل طاقة الإدراك، ويعمي بصيرة النقد.

الآن، في مواجهة الفراغ الهائل، هذا، أرى بوضوح مدى الخسارة والإرهاب لا، لم يكن الزمن زمنين، والعالم لم يكن إلا عالمًا واحدًا شديد الاختلاط.

كنت أريد أن أبدأ المواجهة الأخيرة، أخيرًا. تلك المواجهة الحاسمة التي كنت أنتظرها منذ أول الليل. لكن الظلمة التي غيرت الملامح والحصون، غيرت، في الآن ذاته، وضع

المواجهة وموضوعها. فلم يعد الأمر يثير الرغبة بالحديث، ولم يعد الصمت لائقا بالمقام.

كان الظلام يجيء من الغرب، ومع الظلام الهاجم بـ دا النهـ ر غامضًا وسخيفا. شيء من العبث المخيف بدأ يتسـ رب، خلسـ ة إلي.

كان يكفي أن أستدير لأراها خلفي. وأن أراهـ ا، هـ و أن أرى "أوهامي" أوهام الحياة الأولى التي بـ دأت تتجمـ د مثـ ل المـ اء المضروب. عيوب في عيوب. ومع ذلك، كنت قـ د قـ ررت ألا أحل عن نفسي، قبل أن أستشرف البرهان. لكن البراهين لم تعد تغري أحدًا غيري. أنا الوحيد الذي لازال يقبع في الأوهام، إذن؟ بلي. وإلا كيف لازلت أبحث عن جدوى وضع لم يعد ذا جدوى؟ وهذه المرأة اللاصقة بي، كيف أستطيع ابتكارها، وإنكارها هـ و المطلوب؟ متى حدث ذلك؟

الآن؟ البارحة؟ منذ عام؟ منذ " أعوام" كثيرة مرت. حدث ذلـ ك قبل قليل. في بداية الأنا ونهايتها.

كان كل شيء يتهاوى، يتهاوى ببطء ثمين. كنا نجلـ س، معًـ ا، على الطريق. طريق البيت الجواني، داخل البيت... بين جدران عالية حتى السماء. جدران صـ م كتومـ ة. لا يتسـ رب منهـ ا

الصوت. ولا تصلها الضوضاء. الأنا داخلها جثة تتحـ ـرك دون ضجيج. جثة معلقة في سماء" باريس " السابعة والعشرين.
بيتي. بيتها. بيتنا الذي لا نعود إليه إلا للفرار منه. وإلى أيـ ـن؟ إلى القاع. القاع البليدة النكراء. أرض بل طين. لا حصو فوقها ولا تراب. بضع طيور صغيرة تدور، سأمًا، في المحيط. شبعة لا تبحث عن غذاء. آمنة لا يطاردها لا ظمأ ولا صياد. طيرانها هادئ ومستقيم. طيور عاقلة كالموت. أين منها طيور" الجزيرة " الحوامة؟ فجأة بدأ الكلام يتلون ويتلوث. يأخذ أبعادًا ومسـ ـافات. كلام جر كلامًا تبعه صمت ممض. صمت أول الليـ ـل. صـ ـمت الخراب. صمت متواطئ، مثل برد باريس اللعين. البرد، البـ ـرد النافذ الذي يوصل العظام بالعظام. صمت وبـ ـرد وأنـ ـا، هـ ـذا المساء، أبحث عن كلام. كلام غامر يضفي بعدًا مأساويًا علـ ـى تفاحة الحياة. منذ البداية وأنا أتكلم صمتا. أتكلم بلا كلام. هـ ـذه المرة أريد أن أكون. أن أقول كلام قلبي بلسان عقلي. أريـ ـد أن أمشي. أن أركض – أن أنط. أريد أن أراهـ ـا، وأن تراد ـي. أن أراها بلغة الضوء. الاضطراب الغامض الذي لفنا منذ البداية بدأ يتجلى عبثه الآن. أسطورة المكان، هذه المرة، صارت تسـ ـاوي أسطورة الزمان. انتبه!

لم أعد أحب اللعب على الذات، ولا، على الآخر، لم أعد أريد أن أتاجر بحالي. لم أعد لعبة بيد السلطة. ولا أريد أن أصير لعبة بيد الحب. أظن أن عيوني تشهد على ذلك. ألا ترين؟

وأتطلع حولي. أبحث عن الشاهد والمشهود. أريد أن أرى ذاتي القديمة وهي تتراجع أمام ذاتي الجديدة. أحب أن يدمر الوعي الوعي الأضحل. أن يطرد الوعي القوي من أخلاطي الوعي الضعيف. ما قيمة حياة لا تمزقها سكاكين وعي لا يكف عن الارتقاء؟ وفجأة هب الصوت:

– تسألني؟ بلى. منذ سنين وأنا أريدك أن تفهم. وأن تفهم هو أن تتقلع " من ماضيك "، أن تتقلع كما ينقلع الحجر من بطن القاع.

ويروح الصوت. ويعود الصوت:
–منذ سنين وأنا أريدك أن تحل. أن تحل عن يوعن حالك. ولكنك لا تعرف حتى كيف تحل.
مطر مفاجئ بدأ يجيء. مطر لم يعد خافيًا. نقط الماء تسقط عجلى حتى القاع. تخر على سطح الماء الدافئ. وأتتبع سقوطها الهمجي الأعمى.

أرى ولا أرى شيئًا. الأشجار السفلى كانت تهز أعناقها الغبية مبتهجة بالسقوط عليها. رطوبة دافئة. جو خريفي غاسل: الطبيعة تنظف نفسها!

كنت أدير لها ظهري شبه العاري. خلفي المسافة المحدودة تمتلئ بأركانها وهوامشها. المطر يزداد حدة وبهاء. الخضرة النضرة تنبثق من أعماق الأشياء المبلولة. أحدق بالمطر وأتابع إصاباته الغاسلة. وسخ الرأس، هو الآخر، يتراكم مثل وسخ الكيان. فتصور كائنا لم ينظف " نفسه" منذ أكثر من عشرين عامًا. كانت لا تزال تنتظر الإجابة. وكنت أحكي. ولم تكن تسمع.

أردت أن أقول لها: أنا لا أعرف شيئا ولكني سكت.

ولوج الأشياء المبهمة بعضها ببعض، أعطى لمقولتي التي كانت، توا، شبه أكيدة، مظهرًا من مظاهر الاكتئاب البليد. وبتأثير المطر الذي غدا، فجأة، عنيفًا، لم أعد أريد أن أؤكد شيئًا. كان الغضب بمتناول يدي. وكنت ألعب لعبة التمايز والانسلاخ. كان كم من التراكمات الغبية يفور في داخلي.

وكنت أقرر: "أنني لن أكون أنا. بعد الآن": لكن ذلك لم يكن إلا حلمًا. ولم تكن أهميته نابعة إلا من كونه كذلك. فمنذ أن اكتشفت، مؤخرًا، أن الحياة لم تكن ما أعيشه، فحسب، بل ما

أفكر فيه، أيضا، زال عن عيني الانسـ ـلاب: انسـ ـلاب الجسـ ـد والروح. بوهم مخيف، مثل هذا، كنت أعلل نفسي؟ كنت أتصور أنني أبحث عن المتعة والاختلاف. وكان قانون اللعبة الهمجيـ ـة يتولى دمجي القسري في حظيرة المنبوذين.

أردت أن أقول لها شيئًا من هذا. لكنها هبت:

-لا تنظرني.

وأتعجب.

النهايات المفتعلة تافهة وكريهة. أول الخلاص هو الخلاص من الذات.

من هذه المعتوهة التي تنفث السم في وجهي.

ويروح الصوت. ويعود الصوت. وأظل صامتًا أتكلم.

الأشياء بيض. لا لون لها ولا إحساس. غمام قاتم يركب المكان أتطلع، من جديد، إلى الوجه المكور. الوجه المدور. وجه مليء بانفعالات سود مجنحة. لماذا يحمل هذا الوجه كل هذا الحقد؟

وأتهيأ للانقضاض: وجهًا لوجـ ـه كنـ ـا نتواقـ ـف. وكالملسـ ـوعة انفجرت: تفو.

الغمام المعلق في السماء يتكاثف: سماء باريس اللعينـ ـة. عبـ ـر الغمام النائم أرى، في البعيد، عواصف الشـ ـام واضـ ـطراباته. السماء الزرقاء البنية تغمز لي في الأفق القصـ ـي. والليـ ـل إذا

عسعس. والصبح إذا تنفس. والقهر وسنين عشر. وهي متربصة في الخلف. تكاد تنط علي. ترميني وتدميني. حركة هوجاء تجيء من الوراء تلقي بي من الطابق السابع والعشرين إلى الطين وأنعجن. أغدو ملمسًا لا قوام. انخلط بمكنونات الأرض وبثورها. أفقد ميزة التحمل والاشتهاء. ومن جديد يجيء الصوت:

–اسمع، وصلنا آخر الخط. عليك أن تهبط الآن. لا تنظر السماء بحنانك الكاذب. أنت تعرف أن سماء باريس لا ترى. هيامك الشبق ولوعتك المستديمة، خلهما لك. أنا امرأة طليق. الحب الذي قيدتني به اهترأ ومات. ومن العبث أن تحاول بعث الموتى من القبور.

–الحب؟ قلت مستغربا. ودون أن تهتم بما صدر عني، تابعت ارتجالها المحدد (دون أن تنتظر إلي):

– لماذا لا تريد أن تدرك أن مركب الحياة يمر بتحولات شتى؟ تحولات ترهق الجسد والروح. لماذا؟

من الأرض كانت تتطلع إلى الأرض. ومنها إلي. ومني عليها. وكنت أتطلع في وجه العتمة المخيف. كانت الحرب تأخذ أبعادها، وكنت أولي الأدبار.

(٢)

الغيم يمر. يتبعه الدخان. دخان " باريس " المتراكم باس تمرار. وفي القاع كانت الأزوال، هي الأخرى، تمر. أزوال لا ماهي ة لها ولا ألوان. هيئات راكضة مثل الطيور الهاربة من صد ياد. حفيف الشجر البعيد، على "السين" هو الآخر، لا يصد ل إلينـ ا. شجر واقف مثل الهياكل الحجرية الصاغرة. وفي الأسفل يبـ دو الماء آسنا وغثيًا.

إلي الماء الباهت، هذا، كنت أعطش؟

لا، ذلك لم يكن إلا حلمًا، حلمًا مفتعلا ورديئًا.

وبدأت تركبني الفكرة المتسلطة: لماذا يفقد الإنسان، شيئًا فشيئًا، صفاته، ويتحول إلى إنسان شبيه؟

صمت.

كنت في المقهى، ومر بائع الأزهار. أزهار حمر بيديه. نظرت الأزهار الحمر بشغف، ولم أشتر. كان الوقت مسـ اء. وكنـ ت وحدي. لمن أشتري زهرًا؟ ذلك المسـ اء قـ ررت (وقراراتـ ي صارت ملزمة لي): ألا أفرط في شيء أحبه بعد اليـ وم. يكفـ ي

لذلك ألا أتابع "اللعبة اللفظية" للحياة. لماذا أضع نفسي في وضع تافه؟

أن نفعل ما لا نريد، هو أن نضع أنفسنا في خدمة القمع المعمم. في "خدعة الكون".

أعود إلى الهوس. إذن. هوس التخلص من الالتصاقات القديمة. هوس تفكيك الذات وتركيبها.

كانت لا تزال لاصقة بي. تنظرني خلفا. تـ رى إلـ ى ضـ عفي وشتاتي. تفهمني، ربما أكثر مما أفهـ م نفسـ ي. يـ ؤلمني هـ ذا الإحساس بالعجز عن اتقاء شر من لم أحسـ ن إليـ ه. اللعنـ ة، لازالت أبحث عن وسيلة أمزق بها الغشاء السري الـ ذي يكبـ ل عقلي البليد.

وأخرج كالملسوع. دمشق. الساعة السادسة صبحًا. الجو هـ ادئ وجميل. التيه يبدو في متناول اليدين. الطرقات خالية. أبحث عن تاكسي أريد أن أركب فورًا. أن أطير إلى الحدود. الثلاثاء كانت البارحة. إجازتي انتهت. إجازة اليوم الواحد في الأسبوع. الجسد الساخن الذي كان ملتصقًا بي لازال يلتصـ ق بروحـ ي. أحـ س مادته تترامى علي. تلبسني كما يلبس الثوب لابسه. كنت لازلت أنفرد بين أثنائه وفضاءاته. أتمتع بالمزج والاختراق. وأحصـ ن نفسي بلذة، لئلا يسقط الجسد اللطيف عن الأغصان.

أحضنها وأنا أتابع المسير بهجًا، حتى الكراج. كراج سـ يارات النقل العتيقة الذاهبة إلى الحدود: "انخل"، "ذ وي"، "الصـ نمين"، الأحجار السود المرمية على القاع. ونهوضات السنابل الهشـ ة مثل الدخان الوليد. أريد ولا أريد. وأحسها تململ خلفي.

تريد أن تنهشني. وأخاف حقا.

أريد أن ألتفت.لا. أرى من جديد إلى أسـ فل الأرض. اخـ تلاط مستمر يملأ نفسي: عندما ينتقل الإنسان، كيف تنتقل الذكريات؟ وعندما يغير مكانه لم لا تغير هي الأخرى مكانها؟

وأمتلئ، فجأة، برغبة الطيران. ألقح نفسي من علٍ نحو القـ اع. أحس بيدي تمتد إلى الزجاج الغامق الكتوم: زجاج منع الضـ جة والصوت. وأكاد أسمعني أردد:

–عندما تأتي إليك المرأة فهي تأتي لأمر ما.

–سخيف. قالت.

–لم أقل شيئا. قلت.

سخيف، أيضا. قالت وأضافت فورًا:

سخيف كلك: صمتك. كلامك. انفعالك. مشيك. وقوفك. سكونك، حركتك. أنت كلك سخيف من الشام إلى باريس، ومن بـ اريس إلى الشام، ذهابا وإيابًا وبلا " اسكال".

عبر النافذة العالية، الواقفة، في غمام باريس اللئيم، كنت أتطلع. لم أر شيئًا. بعيدًا كانت الأشجار يابسة وكئيبة. أشجار تخل ت، هي الأخرى، عن أوراقها. أوراق أخذت تهـ ر مث ل المط ر الرقيع. قريبًا مني، قريبًا رؤية لا مقاما، كان فتيل الدخان الأبلق يصعد ملتويًا في الفضاء. يبتعد، يبتعد في بداية الظلام الشغيف. أبتعد، أنا الآخر، عنه. شرقًا، هذه المرة، كان يبتع د الـ دخان. (وكنت أبتعد في مكاني). أغمضت عيني، برهة. أحلل المشهد، وأنقيه.

أريد أن أفهم اللوعة والاحتضار. اكتشفت مؤخرًا، أن الحياة لـ م تكن ما أعيشه، بل ما أفكر فيه (كما قلت من قبل؟) وهـ و أمـ ر أوقعني في مصائر شتى. مصائر أنتجت مسائرها الخاصة. حتى صرت في نهاية الأمر مجرد "عقل" صغير في عالم واسع شديد الاختلاط. عقل لا يفكك الأشياء من أجـ ل اسـ تيعابها، وإنمـ ا يزحمها كما هي في ناموسه الضيق والمحدود.

وسمعتها تقول:

– بعقل صغير كهذا تريد أن تفهم العالم؟

صدى خافت لضحكة شامته، دق أذني.

وتابعت بهدوء: أنت لا تشك في شيء. حاسة الشـ ـك، عنـ ـدك، تعطلت. من الصعب انتشالك من الجحيم. علاقة الإنسـ ـان مـ ـع العالم، ومع نفسه، سيرورة مستمرة، وليست طفرة. وأنـ ـت لـ ـم تبن، منذ عرفتك، هيكلا.

صمت.

كنت لا أزال أحدق دون حراك، في العالم المترامي الأطـ ـراف خلف النافذة. كان المطر يخر. مطر استوائي، مـ ـلأ الشـ ـوارع والساحات. هرع الناس منه إلى الحانات والمقاهي. أجلس بينهم هادئًا ومستتبًا. أريد أن أحكي أي شيء. وأكاد أتـ ـذكر البارحـ ـة مساء: الشمس صفراء. باهتة. الأفق غائم. وأنا وحدي أسير في شوارع باريس الرمادية. شوارع تختلط بلا حدود مـ ـع وجـ ـوه البشر العابرين. كنت ألمس مدى الخراب والانكسار: ولد لوحته الشمس ولم يعد يراها؟ أول حنين عنـ ـدي كـ ـان الحنـ ـين إلـ ـى الشمس. حنين إلى الأشعة الحارة التي تنفذ عبر مسـ ـام البـ ـدن رأسًا. عاطفتي عاطفة شمسية.

لكنها لا تفهم هذا. كيف أشرح لها الأمر؟ كان كل شيء يتهاوى. يتهاوى ببطء ثمين. كنت أحس أن ما عجنته يداي، لـ ـم يصـ ـبح خبزًا بعد. وأن ما حشي به رأسي لم يكن إلا طيناً. كنت أحـ ـس أنني لم أكن بحاجة إلى نقد ذاتي بائس(كمـ ـا علمـ ـوني) وإنمـ ـا

بحاجة إلى تطور. تطور داخلي ينقلني من مرحلة إلى أخ رى. من مرحلة التعلق إلى مرحلة التخلق.

لكن صوتها المسموم جاء مرة أخرى:

– مأساتك هي مأساة إنسان بائس بلا مأساة. وهذه المـ رة. فـ ي هذا المكان، عليك أن تكون اثنين، من أجل أن تكون واحدًا.

السماء تنظر إلى الأرض باشـ مئزاز. المطـ ر انقطـ ع خيطـ ه المتدلي. الناس لم يتركوا ملاجئهم، بعد. الشـ مس التـ ي بـ دأت غيابها الفاتر، أكملته منذ زمان. كانت لحظـ ة سـ فن الضـ وء السياحية البليدة قد حلت. وبانتظار أضـ وائها الملونـ ة، ظللـ ت ألتصق بالنافذة العالية المطلة على " السين". هذا المسـ اء كنـ ت مصرًا على تصفية حساباتي القديمة كلها. لحظة الانفجار، الذي أجل طويلا، حانت. كانت مسألة إعادة النظر بكل شـ يء تبـ دو مصيرًا لا فكاك منه. لم تعد المواجهة محدودة وغبيـ ة، وإنمـ ا صارت بحرًا. ولم تكن " الإنسانية" الجاثمة خلفي إلا نقطة الندى المعلقة في أعلى الجبال. ومع ذلك، كان علي أن أفركهـ ا بـ ين أصابعي قبل أن أخوض في مياه البحر. لم أعد أريد أن أتـ رك خلفي حاجزًا أو لغزًا. كنت أريد أن أفهم كل شيء: ولد الشـ ام العابس. مواطنه الموجعة. احتباساته. انتكاساته. إحباطه القـ ديم الهائل. وعلاقاته المريضة بمن يحيطه وبما يعنيـ ه. الشـ مس،

وحدها، كانت الحب الناصع. شمس بلا بشر. شـ مس حمـ راء تدفئه وتغريه. في كنفها، اخترق، المرة تلو المرة، أطناب العالم وحدوده. ولكن أين هي الشمس الآن؟

–هي خلفك. قالت.

صحيح. يكاد ذلك أن يكون صحيحا. علمتني كيف أحبها، ولـ م أعد أعرف كيف أحب أحدًا آخر. لكن الأمر يتعلق، هذا المساء "بالخروج"، لعبة العادة لم تعد ترضيني. فما هو الحـ ب إن لـ م يدفعنا إلى أن نحب باستمرار؟

لا، المسألة لم تعد هي التأكد من عاطفة غير أكيـ دة بطبيعتهـ ا. الفاصلة صارت الآن ضرورية: فاصلة القهر. فمن يتمعن فـ ي ماهية القهر وأشكاله لن يسلم نفسه لأحـ د بعـ د الآن. أكذوبـ ة العواطف والأخلاق تمشي اليوم عارية تحت الشمس. المرعـ ب هو أن تقود نفسك بنفسك حتى الحظيرة. وأنا فعلت هذا. فعلتـ ه أكثر من مرة. والآن انكسرت الجرة. الآن.

–مفهومات بائسة، تحاول أن تنقذ بها عالمًا أبأس. قالت.

–مأساة الإنسان لا تنبع من ماهية الحب وأشكاله، وإنما تنبع من الثبات. أضافت.

ماذا يصنع الإنسان بالألم عندما يفيض عن الحاجة؟ لا، لم أكـ ن في موقع يسمح لي بالرد. لـ م يعـ د الأمـ ر يتعلـ ق "بالصـ ح"

أو"الخطأ"، وإنما بالمتعة: متعة انتهاك المحظور. لا المحظ ور الخارج عن الذات فحسب، وإنما المحظور الج واني، الخب يء أيضا.

يكفي. لو كان ثمة شيء نهائي لانتهينا منه. ما يهمني الآن ه و الذريعة. الذريعة التي تخلصني من قيودي القديمة، كلها. ل يس ثمة قيد جمي ل. العواط ف أخ لاق. والأخ لاق مفهوم ات. والمفهومات سكونية. الذريعة، وحدها تخرب السكون القاتل، هذا والتخريب، دائما، متعة. متعة الالتقاء بشيء كنا ننتظ ر لق اء نقيضه بالضبط. متعة التخريب الهائلة، هذه، كالمرأة الرائع ة: وأنت فيها لا تراها. ومع ذلك تظل تحسها "بامتناع".

صار الأمر اليوم يتعلق "بامتياز الغضب". فمن يستطيع الآن أن يغضب يستطيع أن يحرك السكونيات. أن ينتق ل م ن موق ع "العاقل" إلى موقع الفاعل. وليس للغضب النقدي تبرير. الع الم الذي يحيط بي كله حق. لا أهزأ. لنعتبره ك ذلك. أن ا وح دي المخطئ. لكن هذا الاعتبار(أو الاعتباط) هو وحده الذي س يقود خطاي المتوثبة للوصول إلى نقطة الاتفاق مع المحيط، أو إل ى لحظة الافتراق معه.

–لم تزل كما أعرفك، تمامًا. قالت، بأسى، (وأضافت بحدة متقطعة) تبحث حتى عن تبرير للمتعة. أمرك غريب! (سكتت قليلا وأكملت):

–كنت أظنك لا تركن إلى شيء. واكتشفت أن سكونك الأخلاقي البائس هو مصدر تعاستك المفرطة. كانت الشمس اللاهبة تطفئ حرقتك المستمرة. تطفئ امتعاضك الغامض مساء على ظهر قاسيون. كان ذلك مثيرًا للسعادة واللمس. كنت لا تزال في بداية القهر الذي جعلك فيما بعد متبجحًا ومنبوذًا. لا قهرك للآخرين (ولا قهرهم لك) وإنما قهرك المتزمت لنفسك. كنت أراقب المشهد. أراقبك. أراقب الأرض التي كنت تدوسها. أريد أن أحيط بك كما كنت تريد أن تحيد بي. كنت أعرف أنك كنت تريد إبعادي عن امتلاك توتراتي الملجومة. ولم يكن ذلك إلا وهمًا.ومنذ ذاك التجأت إلى التباريز.

كانت تحكي. وكنت أبكي.

شمس الشام الجميلة التي ملأتني بالتوتر، والتراب الأحمر الناعم لم أشلائي، وأشواك الأرض الطرية التي نمنا فوقها، غروبا بعد غروب، لا، لم يكن ذلك كله هروبًا. ماذا تريد أن تؤكد، هذه الممسوسة؟

(٣)

كنت أحس أنني أنكشف.

فعل الانكشاف مدهش ولذيذ. في الانكشاف شيء يشبه كشف العورة في فضاء ممتلئ بالناس. لكن المؤسف هو أن "هذا" لا يهم أحدًا منهم. وهنا تكمن مأساة "المشهد" وموته البارد.

كانت تحسب أنني لا أشك في شيء مما تفكر به، أو مما لا تفكر فيه (هذا هو كل ما كانت تحسب؟) لكنها تعرف جيدًا أن "ما كل ما يشك يقال".

كان الليل قد بدأ يجيء. الماء البعيد في أسفل الأرض بدأ يسود صرت أنتظر مرور سفن الضوء. سفن السياح البليدين، ذوي العيون الباهتة اللئيمة، الذين يخترقون الليل وهم يلوكون بأفكاكهم التي لا تفرط بشيء. دليلهم الضوء المنصلق من أجنحة السفن المتطاولة. الضوء الكشاف الذي ينير أحجار الأبنية المرمية على الضفتين. عيونهم تختبئ، حتى في الظلمة، خلف أزججة نظارتهم العمياء. ماذا يرى هؤلاء العابرون من المدينة سوى النوء؟

في الشام كان الاحتواء مباشرًا وسليطًا. الأرض تحتوي البشر. البشر يحتوون بعضهم بعضا. النظر يمر من الضوء إلى الضوء. حتى الظلمة كانت مشرقة.

من قبل، كنت أحسب أن البؤس الإنساني مرتبط بالمكان. وكنت أدخر بؤسي في أعماقي المليئة توترًا وإحباطًا. هنا عرف ت أن الأمر لم يكن " صوريا" إلى هذا الحد. ولم يعد لمقولتي الهوسية التي ما فتئت أرددها: "لننته من بؤس الحياة، هذا" إلا قيمة نسبية جدًا.

ووجدتني أشهق باتجاه الريح. أريد أن أجمع الليل الـ ذي بـ دأ، للتو، بين يدي. كنت أريد أن أمسك به من أوله، وأقضمه لحظة لحظة حتى مطلع الفجر. كان مساء الشام يمسك بتلابيبي. وكنت أتمتم: "هذا المساء المليء بالمجهول، أيكون ولـ د مـ ن ذاك؟". وفجأة توهج الصوت:

– حتى اللهفة تريد تزويرها؟ الشام الذي تبحث عنه هل عرفتـ ه حقا؟ ألم أكن أراك تمشي كالمعتوه في أزقة الجـ امع الأمـ وي مستسلمًا للجوع والخواء؟ ألا تعرف أني أعرف كل شيء عـ ن تلك الحقبة التي لا تني تثير بذكرها غيظي؟ كنت أرى المـ وت اليومي يركب هيئتك ومزاياك. كنت أصفر محشوًا لؤمًا وغمً ا. كنت تسوع، وأنت تهذي: "عالم بلا مشروعية خراب". وكنـ ت أنتظر الغروب لكي ألقاك. نصعد الإسفلت المكور بعضه علـ ى بعض من دشة الحر، قبل أن تمسك بي من بين فخدي، وتنهض

بي إلى أعلى متشبثا بجدائلي وحفا في. ومن بين أسنانك اليابسة تجيء غمغمتك الملوثة برطوبتك المفاجئة، لـ تعلن لـ ي بداي ة الشغف والموت. كنت أحسب، لبلاهتي وقلة وعيي، أنك إنس ان فذ. وكنت تعرف أنني أحسب ذلك، ولم تقل شيئا. كنت تظن أن الحياة مجبولة من الضآلة والزيف. وليست السلطة التي تـ دعي مناوءتها، الآن، إلا من طينتك الزيافة هذه.

سكتَتْ، فجأة وسكتُّ.

صمت يابس كالموت.

لا، لم أعد أريد أن أبدد وقتي في نفي البلادة والابتذال.

صرت متأكدا من شيء واحد: قيمة الحياة ليس ت، فق ط، ف ي صدقها بل في حركتها، ومهزلة الوجود لا تتبع إلا من الثبات.

وأحسست بك تتململين. تريدين أن تمدي يدًا إلي. وتوقع ت أن تلامس اليد القديمة بعضي. ولم يجئني س وى الغب ار. كان ت الشمس الشامية تحرق كل شيء. وكنت تلبسين الأصفر الفوار. وتحت الملس الرقيق تتنفس أحشاؤك وثناياك.وتبع ت الجس د المشدود من الطريق إلى الطريق. حري ق. الجامع ة والم ارة والحيوانات والأحجار وأنت وأنا والش جر الص امت بانتظ ار الآهات التي ستنبثق بعد قليل: شجر الشام العريق. وأخذك الشلل

فجأة. ولم أجد إلا يدي. كان تشابك الأعضاء وتآلفها مثيرًا: كنت تحدقين في وجهي، وقد عقد الخرس لسانك.

ولم أقل شيئًا. كنت لا أزال أحتفظ بكينونتي الكبرى وأوهامها.

كان الشام جميلا وقريبًا من القلب. ولم أكن، بعد، أغني:

"وافترقنا يا دمشق، وعلى معطفك الأخضر دم. وانتكاسات وهم"

كنت أعتقد أنني، إذ كفيتك آنذاك، فسأكفيك إلى الأبد. وأن زرع الشام لن يذبل في راحتي. فأنا، كما تعرفين، أحب الشام.و...

–اسكت. (قلت بتوتر مخيف) وأضفت فورًا: "لا يمكن لأحد، مهما كان جديرًا، أن يكفي وحده أحدًا آخر".

صمت.

الليل في الخارج الباريسي يستمر. الناس لا ينقطعون عن التمزق. تبادل الأمكنة لا يتوقف. غلالة الظلمة الباريسية تحيط الكون بغلاف أصفر بلا رائحة. غلاف من أذوار السفن المتسابقة، ليلا، على " السين".

وهممت أن أقول شيئًا (ماذا كان بإمكاني أن أقول؟)

ومن جديد، جاء الصوت الشاكي:

– تشبثك الغريب، بذلك العالم، وبي يدعو للحيرة. كنت أحسب أنك بلا يقين. كنت تتسلق جبالي، وتنحدر على وهادي، بتبجح واستهتار. تنظر إلي. وعبري ترى الآفاق البعيدة. ولم أشأ أن

أصير سدًا. ولم تكن تعي ذلك، آنذاك. كنت مأخوذا ببضاضة الجسد. وكنت مأخوذة بكونك مأخوذا بي. كنت تريدني أن أحكي. وكنت أظل صامتة ومبهورة. كنت أعرف أنه لا معنى لأن نحكي لسامع وعيه أقل من وعينا. وكانت الشمس التي تغرب خلف جبال الشام، دائمًا، تكفيني مغبة القول. كنت تصمت بدورك، وأنت تتابع الطريق. لِمَ لَمْ تعد تعرف كيف تصمت الآن؟

وأريد أن أحكي. ولا أحكي شيئا.

كانت فكرة العناد القديمة تجيء من أقاصي النفس. عناد دفع بي إلى التخلي المبكر عن بعض أوهامي بحجة تحسين الذات.

لكن التحسين المستمر رافقه تعقيد شديد. واكتشفت بأن العالم مملوء بأشياء أحبها، وأشياء لا أحبها، وكلاهما عصي على الامتلاك. ولم تعد المقولة البائسة، الأولى: " المرء بركنيه، قلبه وقضيبه"، إلا سذاجة لا مبرر لها.

سذاجة الجوعى والمساكين.وبدأت أقلب النظر بإمعان. ومنذ أن أدركت أن " الكائنات متوازيات، وليس في الغيم مكان لأحد"، صرت أريد أن أواجه بؤس الحياة بالمتعة. لكن للمتعة، هي الأخرى، بؤسها الخاص. وأردت أن أحطم صورتي، لا في

العين الموازية لي، بل في عيني أنا. كنت أردد: " إدراك محدود في عالم شاسع، كيف يمكن الفهم والاستواء؟"
ولكن بلى. قلت. (وأضفت مباشرة):
–دائما، ثمة مجال لقول كلم ة جميل ة. (ودون أن تنظرين ي، تابعتِ):

"النفس الظمأى تحب الكلمات، لا البشر، فحسب. وأنت ك القش اليابس تحرق نفسك وتحرق غير ك. ق ش جففت ه الش مس، وعصفت به الريح. وفيما يعنيني، لم تكن الصدفة صدفة: كن ت أبحث عن أحد يبحث، هو الآخر، عن أحد، ولقيتك. وحدث م ا حدث. الآن علينا أن نتخلص من "الجثة". علينا أن نغسل أنفسنا منها. لماذا لا تريد أن تفهم هذا؟"
كنت لا أزال صامتا أحدق في الليـ ل الباريس ي الف اتر. قب ل لحظات كان الماء الآسن، في أسفل الأرض، يثير ر اس تغرابي. الآن صرت أقلب الفكر باحثًا عن دريئة أتقي بها الضـ ربات المتتالية بإحكام. كنت لا أزال أردد (وه ل ثم ة ش يء آخ ر بإمكاني أن أفعله؟): "بعد أن تعلمنا الكلام، علنا نتعلم الصمت".

وفجأة أسمع الضجة الخافتة خلفي وفورًا، أقـ ذف نفسـ ي مـ ن النافذة. أقع رأسًا في الحضيض. أنتثر كما ينتثر الحب المسفوح في الريح ويتجمع الخلق حولي. وجوه أعرفها وأرعاها. ووجوه لم أرها من قبل. من بين البشـ ر المتـ راكم أرى إلـ ى الوجـ ه المكور. الوجه المليء بالمغص والاحتقان. (وأغمـ ض عينـ ي) كنت في طيراني الهابط إلى القاع أحضن اللجة والريح. أنتقـ ي لعبتي الأبدية. فمنذ أن اكتشفت أن إرضاء الآخرين غير ممكن، أدركت أن إرضاء الذات يقع، هو الآخـ ر، فـ ي دائـ رة عـ دم الإمكان. وقررت في أعماقي:"هذا المساء، عليّ أن أفجر نفسي". لكن سقوطي المفاجئ من الطابق السابع والعشرين، لم يغير من الواقع شيئًا. لا، لم يكن باستطاعتي إلا أن أكون مخلصـ ا لـ ي. وتلك كانت جريمة لا تغتفر. وفيما بعد أدركت اللغز الأساسـ ي (والواضح بشدة): "كان علي أن أكون سعيدًا، باعتبار أن الحياة لا معني لها "(أدركت ذلك، قبل لحظات فقط) ومـ ا معنـ ى أن أدرك ذلك متأخرًا: معناه أنني لن أعيش إدراكي. لماذا؟ "لأننـ ي لم أكن أرعى في السهل وحدي"، قالت. وأفتح عيني. أتملاهـ ا. أرى إلى السحنة الغائمة. ومن العين المغروسة في قفا الـ رأس أرى الفوهة المفتوحة مثل فوهة الفجر الملوث بالـ دم. وأرسـ ل بصري بعيدًا، أرسله إلى الهوى والغيم. أبحث عن نقطة المطر

النازلة هناك. مطر باريس سمج وغبي. مطر بلا قاع. مطر لا يبلل الأشياء ولا يغريها. أدع المطر واقفًا، وأهبط. من ع ل، لا يخفى شيء: الطرقات سود. الأشجار مثل الدببة الواقف ة عل ى أطرافها. الناس ذباب. ذباب يمشي مشيا أصم. لا حس ل ه ولا آثار وفجأة، يتلوى الجسد الذي لم يعد يملك إلا حركته: الحركة الوحيدة التي صارت كونه ومعناه. لكنها، هذه الم رة، كان ت حركة فارغة. فارغة تمامًا. كيف يفرغ الجسد من توتره؟. كيف يصير مبتذلا وبلا فضاء؟ جسد كنت أقاطعه كالريح، وص رت أجانبه وأوازيه. جسد كان متعة وصار عبئًا. ومن لعنة الجس د، ينقذني الدخان: دخان خفيف يترك منشأة السفلي ليرقى عاليًا في الفضاء. دخان حطب البطم القديم كان يظل لاص قا ب الأرض. كان الشتاء قاسيًا ولذيذًا (شتاء الجزيرة المطير). كانت الأرض الشبقة تمتص كل شيء.

لا شيء يبتعد عن منشئه ومنحاه. دخان باريس، ه ذا المس اء، ليس من ذلك الدخان. ولكن هل للمقارن ة معن ى؟ ألا يك ون مضحكًا، مثلا. أن تقارن الأفعى بالحصان؟

كدت أتساءل،بصوت عال:"إذا كانت مقارنة عناصر الطبيع ة، بعضها ببعض أمرًا مضحكًا، أوليست مقارن ة الطب ائع أكث ر إضحاكًا"؟ وأتابع خروجي نح و القا اع. ويلحقن ي الص وت

المرتاع:"لا تخرج – لا تخرج بهذا الشـ كل ولا بهـ ذا اللـ بس سيعرفون أنك مجنون. ومنذ أن يروك سـ يقذفونك بالحجـ ارة. سيقذفونك حتى تسيل الدماء. وأنا وحدي لا أسـ تطيع أن أفعـ ل شيئًا" بلى، بنيّ. أنت وحدك تستطيع. تسـ تطيع أن تفعـ ل كـ ل شيء: تستطيع أن تفعل ما بوسعك فعله.".

وأرحل، مع الدخان الهائم، بعيدًا. أريد أن ألامس الرفيـ ف. أن أشم الريح، ألا أسمع، بعد الآن، تنفسها العكر الذي كان يتـ واتر قربي. كنت بحاجة لأن أكون وحيدًا. ولم تكن الوحدة المنشـ ودة إلا الوجه الآخر للهزيمة. ألتفت إليهـ ا. هادئـ ا: كبـ ة الغـ زل الملفوفة. تكاد تنط. تلسع الوجه والعين.

تريدني أن أذهب بعيدًا؟ إلى أين تريدني أن أذهب؟

وهذه، هي الأشجار في مكانها واقفة. والبشر لازال يمر. والنهر لا زال متشبثًا بالأرض. والجدار هو الجدار. وأنا كما أنا، أقف، كما أقف كل مساء. أرقب النجم الذي لم يطلع بعد. أتملى، فـ ي صفحة الماء، ماء السين الآسـ ن، ذرات النـ ور المتنـ اثر فـ ي الفضاء. ألاحق حوافر الخيل التي كانت تدك وجه الطين. تعبـ ر الجبل و" ماردين". أستسيغ حركات الأصابع اللطيفة وهي تلـ ف التبغ بورق الشجر العطن، وممصوصات الشفاه اليابسة وهـ ي تقلب البذور بين أسنانها. كنت في الجب، بعيدًا عنها. وأخـ ذت

تسحب الدلو. ووجدتني أصعد إليها مع الحبل المتقاصر. كنت لا أسمع إلا أنفاسها اللاهثة فوقي، وصرير المحالة: محالة الخشب العتيقة. دلاؤها كانت تأتي نصف فارغة، (لكن ملآن ة). م ن طينها الرحيق كنا نشرب. من يسقيني؟ عطشان.
اشرب سمًّا. قالت.

لا، ليس منطقيا، أبدا، ألا يحس الإنسان بأن حياتـ ه عب ث إلا عندما يداهمه الخوف. مع شربة السم المريعة ولم أكن أفكر إلا في شيء واحد:"من سيستخدم عيوني لرؤية العالم بعدي؟".
–عيونك؟ عينان سيئتان جعلتهما عيونًا؟ قالت.
" الليل والوحدة وخواء الذات، ذلك كل ما بقي لـ ك". أضـ افت.
استدرت نصف استدارة. صار وجهي لصق الجـ دار. تمام ا، لصق الجدار الوسخ اللئيم. وجهها حل في الفضاء المقابل. م لأ المساحة كلها، إلا قليلا.
أخيرًا، صرت أحيط بحركتها المنهكة المتخاذلة. حركة الخاسـ ر الذي لم يعد بإمكانه أن يربح، بعـ د الآن، شـ يئًا. ولأول مـ رة. أحسست أن كل شيء غدا ممكن الصيران.

(٤)

تحضرني أشياء. وتخسرني أشياء على الجدار الذي التصق به، يفور الكون، كله، ويدور. عليه قرأت آلاف الكت ب – ورأي ت أكوام الأحشاء. خطوطها العدوة ترتسم في كل نحو منه. أخترق الجدار. أعبر اللجة والشط. أجيء المنتظرين. أختلط بهم. وجوه مرسومة بحشمة وبلا خيال: وجوه مخذول ة. أس أل القري ب والبعيد: ماذا يجري؟ (وأنا أردد في سري) " يا ويل هذه الجبال تمشي بلا نعال. يا ويل هذه الجماجم تحكي بلا معاجم" لا أح د يرد. رعب مكبوت يم لأ الأج واف. وم ن قري ب أس مع الهمس:"كنت قاعدًا أتغوط وجاء خبر الانقلاب. تركت الذ ازل والمنزول، وانزويت. كانت الآلات تعب ر الطرق ات ك البرق. عليها يرتع جنود قرع. ثيابهم حمر ومجلوخة. بأيديهم ح راب مسمومة، ومن حولهم يتطاير الذباب. قعدت، م ن جدي د بع د مرورهم العاصف. قعدت أتغوط. وجاء خبر الانقلاب. ورأي ت التراب يتطاير من جديد. كان الجو قد تبدل هذه المرة. صارت الريح تخش مثل صدور المسلول، مسلول "الجزيرة" الذي نس يه الموت. وتراكض الناس. كان الغروب على الأبواب. وبدا الشيخ

ينادي" من أضاع عنزًا مخضوبة القوائم، في عنقها خ يط ب لا جرس، فقد لقينا العنز ولم نلق الجرس. تعالوا" صمت. لا أح د يأتي للقاء العنز المثبورة. كان الانقلاب على أشذ. وكان الن اس مبتئسين:

-... انقلاب آخر؟

-لا، انقلاب على الانقلاب يا أحمق.

كان الأمر يبدو مثيرا للسخرية وللتعكير. تعكير م زاج البش ر يشبه، تمامًا، تعكير الجو. صفاؤه، في النهاية، هو المطلوب. ولم يكن أحد يستطيع أن يجيب، بعد الآن، مت ى سيصـ فو الج و. الانقلاب، هو الآخر، له وجهان. مثنوية لا يمكن الخلاص منها. كان الليل يتسرب، من بين أصابعي. وملأني الخوف: إذا تنفس الصبح ولم أتنفس، فستكون نهايتي. كنت أحوم، منذ أول المساء، حول الشغف بعالم جديد، عالم أحدد أسسه وأختاره ول م أك ن أعرف، بعد، إلى أي قاعدة ارتكز.

لم يكن لذلك، كما أدرك الآن، أية قيمة. الأسس والقواعد تب دو الآن شديدة الابتذال. فمنذ الخطوة الأولى، نخلق القاعدة الأولى، في حياتنا الجديدة. لكن خوف السكون من الحركة هو الذي يدمر كل شيء. فليس من الضروري أن نعقل الع الم. ول يس م ن الضروري أن يكون كل شيء مفهومًا. ليس ت المفهوم ات إلا

أساطير نخلقها نحن. وعلينا، نحن، أن نقـ ـوم بتفجيرهـ ـا. لكـ ـن الإنسان الكتيم الذي كنته لم يكن ليشف عن هذا. كنت مـ ـأخوذا، كالجرذ المرعوب، بحماية نفسي. ولم أكن لأسن أسناني إلا في مواجهة جرذًا أضعف مني. كان العالم يبدو لـ ـي مـ ـن مكمنـ ـي الهزيل قلعة حصينة. وكنت أعتقـ ـد أن الحـ ـب هـ ـو الطريـ ـق السلطاني الذي سيقودني إلى حيث أريد. إلا أن الحب، الذي لـ ـم يكن " ضرورة أولية" في الحياة، لم يكن شيئًا أساسيًا في حياتي. وبدأت الأمور تتعقد. وبدلا من أن أصير شفافًا، غدوت كتيمـ ـا، أكثر فأكثر. وفي السلوك الكتيم تهترئ الحيـ ـاة: المعلـ ـوم فيهـ ـا يغدومجهولا. والرحب ضيقًا. وخشية الرغبة تسيطر على إغراء المتعة. وفي هذا السلوك حجب كثيرة ولا مبالاة. إنه سلوك كائن لم يتوصل، بعد، إلى إنجاز منظور نقدي لذاته. كائن لا يـ ـزال يطمع في تبرير الواقع والتستر عليه. السلوك الكتيم هـ ـو هـ ـذا، ولكن ما هو السلوك المشرق؟ واختلطت الأمور علي. ثمة أشياء كنت أريد تحقيقها، وأشياء أخرى، كثيرة جاءت بها عملية تحقيق هذه الأشياء. وشيئًا فشيئًا، اقتربت الشام من باريس. التصـ ـقت إحداهما بالأخرى. ولم أعد أفرق بينهما: وضع كوني لا تمـ ـايز فيه، ولا فروق. الفرق الأساسي الذي تبقي، هو فرق الحنـ ـين، لكن الحنين وحده لا يكفي لبناء حياة بلا أوهام. أوليس الحنـ ـين

نفسه، هو ما لم يعد بالإمكان التحقق منه؟ ما ساءني، هو تطابق الشام وباريس. قبلا كنت أجد ملجأ أحتمي به: الشام. كنت عندما أزعل من "هنا" أنط إلى "هناك". وكانت المقارنة المستمرة، هي الداء الذي استعصي عليّ الشفاء منه.

– أخيرا تعترف؟ ألف مرة قلت لك ذلك ولم تسمع. وأنت تقول الآن هذا، لابد أنك تطمح إلى الإحاطة بشيء آخر. آه لو كن ت أعرف نفسي كما أعرفك أنت. كانت تردد بهدوء.

–"معرفتي" أسهل الأمور. فأنا كائن متناقض ومفزوع. علاقت ي بالعالم تحددها الطفرة، ع واطفي متس اوية الش دة، متوازي ة الاتجاهات. علموني أن " الغصن الذي ينحني أمام الـ ريح لـ ن ينكسر". وأن الربح ليس هو ربح الإدراك، وإنما ربح العـ راك. وتعلمت أشياء أخرى كثيرة ولدتها قواعد الرهبة والخنوع. ولـ م أكن أدرك، بعد، أن تسليم الذات الحية لتعاليم ميتة، لن يق ود إلا إلى الخراب. كنت لا أزال أعتقد أن أنظمة المؤسسة لا تخطئ. وهي إن أخطأت فلغرض مدروس. فالنظام كون ق ائم بذات ـه. ولست، في النهاية. إلا بعض تجلياته. أتدركين الآن في أي بحر كنت أسبح عندما عرفتك؟

–لا. كل ما أعرف هو أنك أحمق. أحمق عنيد. منذ البداية وأنت تتصورني تصورًا سلبيًا. تصور الذكر اللئ يم لامـ رأة عديمـ ة

الفعلية. وتعتقد، لسوء النية المواكب لتصورك هذا، أن التط ور مقصور على الرجال دون النس اء. صـ حيح أن ثم ة أنظم ة اجتماعية تناصر هذا الإحساس الذكوري بالتقوقع (كدت أق ول بالتفوق) إلا أنها أنظمة وحسب.

وأنت، نفسك، الآن، كنت تتململ من سيطرة هذه الأنظمة اللعينة ومن سلطانها، عليك. لكنك، كما صرت أدرك الآن، تعتب ر أن تمردك ضدها تمرد مبجل، وأن تمردي ضدها تمرد ضدك أنت. وهو ما يثبت تماهيك معها. ولكن اسمع: إذا كنا تركنـ ا الشـ ام معا، فلن نرجع إليها معا. وإذا ما رجعنـ ا، فلـ ن نكـ ون مـ ن غادراها. لم أكن أسمع ما تقول.

كان الوقت ليلا، وأنزلوني من القطار. قطـ ار أسـ ود طويـ ل. يوصل (مدريد) بـ . (باريس). كنت أحوم في ساحات مدريد منذ شهر. في المقهى المقابل لمتحف" برادو" كنت أجلس.

لم أتكلم منذ شهر. منذ الفراق التراجيـ دي المفـ اجئ. الحاسـ ة الوحيدة التي ظلت تعمل بانتظام عندي، كانت حاسـ ة الشـ وف. كنت أبتلع العالم بعيوني. المطر، نفسه، لم يكن يصيب القاع بل كان يبلل رؤيتي. أنوار وهيئات. شوارع طويلـ ة ومسـ تديرة. حركة مستمرة بلا موانع. لأول مرة أرى أن الكـ ون يمكـ ن أن

يكون عامرًا بلا رقيب. لكن حقدًا خفيًا كان يتجمع في أعماقي المضطربة من ضخامة الحياة. حقد لا على الشام وإنما....

-علي، قلها. قالت بتصميم.

ولم أقل شيئا. كان الوقت ليلا وأنزلوني من القطار. قطار "البيرينيه" الجميل، في منتصف المسافة أنزلوني:

-من أين أنت؟ صمت.

كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. وكنت أختبئ تحت أفرشه القطار: كنت أنام ببساطة، وأنا في طريقي إلى " النور".

-ديساند/ انزل. صمت.

-ديساند (بعدها تلت جملة طويلة، فحواها: انزل فورًا أقول لك) مدريد تملأ عيوني. تملأ حواسي كلها. تملأ الليل بأنوارها وألوانها وأنا بلا لسان. كنت أفكر ماذا أقول لرجال الشرطة الذين نهبوني، قبل أن أقول شيئًا. كنت أخرس. لم أتكلم منذ شهر.

عالمان.

أول كلمة نطقتها، وأنا أُرمي على الطريق.

ولم أفهم من اللغط المتشنج، حولي، سوى: عربي (آراب).

وكالمسحور يختفي القطار. محطة "سان سيباستيان" الصغيرة الخالية من الإنس. البرد. أنا. الريح. الليل. وصدى (آراب).

وصرت أردد (بهدوء غريب): الكلمة التـ ي نطقهـ ا شـ رطيو الحدود، كما نطقوها.

ولم يقطع الترديد إلا المحيط.

عبرت "سان سيباستيان"، ليلا. لك أن تتصوري، في أيـ ـة حـ ـال كنت في التلة المشرفة على المحيط الأطلسـ ي وقفـ ت: بحـ ر الظلمات. بحر متعجرف. يبعث بأمواجه الهائلة لـ يلا. وأتلقـ ى الموج المجنون بصدري. وأحس بالبرد الغريب يدخل أحشائي: "برد كهذا لم أعرف. وموج كهذا لم أر!" ظللت أردد ذلك الليل، كله، وأنا أفكر فيك.

(٥)

لحظة.

لحظة مواجهة المحيط الذي لم أكن أتصور أنني سأواجهه يوم ا ما.

اللحظة التي أجبرت فيها على الوقوف وحيدًا، ذلك الليل، ه ي التي فجرت مشاعر الاحتقار العميق عندي. احتق ار الش رق، واحتقار الغرب. ولم أعد أردد، ببلاه ة (كم ا منذ قلي ل): "عالمان". صرت أهذي: عالم واحد. عالم واحد. وبرغم حلك ة المحيط الشاملة. بدأ الأمر واضحًا: أساليب القمع، وحدها ه ي التي تختلف.

من تلك الأفكار المخيفة انتزعتني أمواج المحيط التي هجم ت، فجأة، علي. وبدأت أحكي لك، فوق تلة سان سيباستيان الصغيرة الموحشة.

كنت في الجبهة، بين " نوى" و" الصنمين". وكن ت أعتق د أن الشمس هي التي تدور حول الأرض. وأن أرضي هي مرك ز الكون. كنت أغادر الشام صباح كل خميس (أو قبله بيوم) م رة كل أسبوعين. قبل طلوع الشمس، كنت أركض نح و الك راج.

كراج حي (الميدان) العتيق: يا رب، السيارة المحصورة نفسها. والسائق الصموت، نفسه، والمرأة الحصناء الصابرة، نفسها. والركاب، هم الركاب. ويومًا، بعد يوم، كما صرت تعرفين الآن، تغيرت الرؤية والمشروع. كنت أحيا تماسًا: حدودي الجسدية هي حدود عالمي. ومداها مداي. محيط الكرة الأرضية، حتى حسابيا، كان يبدو لي أمرًا شديد التجريد. كنت أحيا كالمنوم: من قبو القصاع إلى كراج الميدان ومن ثم إلى نوى فالصنمين، وبالعكس. لكأن أحدا فرغني من اللب. ذلك الليل، على التلة النائية الغريبة، كدت ألتقي بخصائصي الشخصية (التي احترفتها فيما بعد). في وحدتي الخائفة، تلك، لم أكن أدرك آنذاك أنك جزء من ذلك العالم الرهيب الذي قذفت، غير نادم، به (وكان علي أن أقذف بك وإياه).لا، لم أكن قد توصلت، بعد، إلى القاعدة الأساسية:"لا تبرر، ولا تكرر". كنت في طور قبلي وكان ذلك قبل أن أقدم على ما سيسميه أغنياء الشام: هربا. وكأن الخروج من رحم الأم، جريمة لا ولادة.

كنت أخبئ في صدري كثيرًا من الأمور التي ربما، لم تكن ذات معنى، إلا أنها بالنسبة لي، كانت محاور أساسية من محاور أنظمة الكون وكانت الأمور تلك بحاجة إلى فضاء تنفتح فيه،

كان " وعي الرعاع" الذي تشبعت به لم يتحول، بعد، إلى وعي نقدي (وربما لن يتحول أبدا. وهو ما صرت أدركه الآن).

كان علي أن أتخلص من كل شيء. لأبدأ شيئًا ما.

إشكالية الوجود اللعينة: هل على الإنسان أن يلغي تاريخه الشخصي كله إذا ما أراد أن يعيش حياة جديدة: وما ستكون هذه الحياة التي ستكون بلا حياة؟

لا، ذلك لم يكن ممكنا، لا الآن، ولا آنذاك.

–وهو مع ذلك هرب، برغم تبريرك العجيب، قلت.

–بلى كان ذلك هربًا، حقا، هربا من عالم لم تعد أكاذيبه تطابق حقائقي، ولا أوهامه أحلامي. إلا أنه في الوقت نفسه، خروج للبحث عن أحسن ما عندي. للبحث عن حياة مجهولة(محتملة)، لأن الحياة التي كنت أدوسها بقدمي لم تكن تستحق حتى هذا. كنت لا أزال أعتقد: أنني بمجرد تغيير المكان سأغير الكيان. وكانت أنشودتي الليلية على الجبهة: "لا يجدد الوجود إلا عبور الحدود" تجسد ذلك الاعتقاد (وكنت أضيف أمامك بزهو: حدود الجسد وحدود الفكر، ألا تذكرين؟)

كنت أتصور أن مشروعي الشخصي مشروع كوني.

مشروع سيسانده الآخر، مهما كان. ولم أكن أعرف. آنذاك، أن الكون مليء بالمشاريع الصغيرة والكبيرة، وأن العالم مقسم

ومحجوز. وأن علي أن أبدأ ببناء نفسي قبل أن أتط اول عل ى مشاريع الآخرين. لكن الحب الذي كان يملأ أحشائي ل م يك ن ليدع لي متسعًا من الوقت لأفكر. حب مف روض بق وة الع ادة والتاريخ.

كنت ما إن أرى الآخر حتى أمتزج به. لم أك ن أمل ك، بع د، حواجز نفسية واضحة، تحميني. كانت نظرت ي إل ى الت اريخ العصابي الذي لُقِّنْته نظرة إجلال أحمق وتنزيه. لم أكن أع رف يومها أن كل حركة هفوة، وكل هفوة قاتلة. كنت مص ابًا بـ داء الاحتشاء. احتشاء سببه الامتلاء القسري بالغث والرديء. بذلك، كله كنت تختلطين.

وتريدين مني الآن أن أروح؟ نعم. ولكن إلى أين؟ إلى أية جهة؟ ومن أية قاعدة أنطلق؟

–إلى جهنم. إلى جهنم الحمراء. إلى أي مكان لا أراك فيـ ه ولا تراني.

كان الماء، في أسفل الأرض، لازال يحتفظ ببعض أشعة الشمس التي خلفت وراءها الكون. وبدأت أواخر الضوء الباهت تـ ولي الأدبار. كان الليل يتساقط رذاذا. ومن بـ رج" الس ين" الع الي صرت أتملى بامتعاض شرذام البشر العائـ دين إل ى سـ جونهم البائسة. من النافذة التي تعلو المدينة، كلها، تطاولت على قـ دمي

لاحقا شعاع الشمس الأخير. الشعاع الذي أحاط به غيم مفاجئ، وغطاه: الشعاع القتيل.

شيء يشبه الاهتراء كان يحيط بالعالم. اهتراء لم يكن عابرًا ولا لطيفًا يكاد يطال مكونات الحركة والسكون، بلا استثناء. ومع الاهتراء لا ينفع إلا تغيير خصائص الأشياء.

من الجدار، المقابل، الذي كان تلتصق به، جاء صوتها راعدًا:

–مرة أخرى الأشياء؟ ما يلزمك هو تغيير خصائصك أنت. هو التخلص من إرثك المخيف: معرفتك الشكلية وأصول نظرتك العتيقة للعالم. تلك العناصر المبجلة لديك، والتي هي أساس الحماقة عندك: حماقة الغيرة وحماقة المثل، وحماقة الانتظار. وإن كنت لا تزال تعتقد أن قلبك أبيض، فإنني أصر على أن رأسك فارغ. وفراغ الرأس هو المسئول عن خواء النفس. نفسك اليابسة مثل الحجر المشوي. وأنني لأتساءل الآن، كيف يمكن لك أن تقف مثل الموتى، لاصقا بزجاج النافذة، منذ أول الغروب. تقف بلا حراك. تنظر ببلاهة في فراغ أصفر دون أن يرف لك جفن. أكثر من مرة اقتربت من ظهرك والسكين السوداء الحادة بيدي. ولم تنظر حتى إلي.

كنت أحدد، من وراء، نقطة الطعن. مرة أختارها يمينًا، وأخرى يسارًا. واستقر الرأي، أخيرًا، على القلب. وكأن جسدك لم يكـ ـن لك، بقيت صامتًا كالتراب. كتراب منسي.

وانتفضت مأخوذًا: تريدين قتلي؟ ودون أن تهتمي تابعت:

–منذ متى وأنا انتظر لمسة أو كلاما. ولكنك لست هنا. كما أنك لست هناك.. فأنت كما أعرفك لا يمكن لك أن تكون إلا تابعا أو متبوعًا.تتلاعب حتى بحياتك. مقابل سلوكك البائس تتطلب دائما، " سلوكًا آخر" أكثر بؤسا. وما تحـ ـررك المزعـ ـوم إلا وسـ ـيلة إضافية لاكتساب غنائم جديدة إذ لم يكن التحرر عنـ ـدك، كمـ ـا صرت أعرف الآن، فعلا يفعل لذاته، بل مدخلا للولـ ـوج فـ ـي متاهات إضافية، لم تكن مهيئًا لإدراكها. ولم يكن ذلك عيبًا، لـ ـو حاولت أن تتطور. أن تنمي مشاعر الثقة بـ ـالنفس. أن تتحمـ ـل الألم الأخلاقي المواكب، عادة، لمثل هذه الابتسارات.كنت أراك تتدحرج من دوامة إلى أخرى قبل أن يتسنى لك التفوق والنبوغ. وأردت أن أشد أزرك ولم تقبل. كنت تعتقد أن ذلك حدا لك ولم يدهشني ذلك منك. فمن يملك تصورك الشكلي المبسط للعالم لن يكون إلا متبجحًا وجروحًا.

نقطة، نقطة، كان الخوق يتجمع في عيني.

لم تكن صادقة، ولكنها لم تكن كاذبة، أيضا. كانت " الرعب ة"، ذلك الليل، تنبثق من التقاء ما مضى بما يحضر الآن.

التقاء لم يخطط له من قبل. إلا أنه لم يكن صدفة. التقاء عالمين؟ لا التقاء بشرين؟ لا، بالنسبة لي كان انشقاق بشر واحد: نهاي ة اتحاد الأنا بالآخر وتماهيها معه. هذا الاتحاد الذي تعلمته: ميزة، لم يعد كذلك الآن وشيئا فشيئًا، اكتشفت، أن اتحادي الدائم حت ى مع نفسي عطب يجب التخلص منه. كنت لا أني أردد، مذ ذ أن تركت الشام: "هذا لكي تتعلم ألا تخضع لأحد، أبدًا". كنت أدرب نفسي على الالتفاف المستمر عليها.

لم تكن المشكلة تتعلق بالثقة، وإنما بالمشروع، فمنذ أن عرف ت أن الإنسان ليس سوى مشروعه الشخصي، لم أعد أف رط ف ي شيء، مهما كان ضئيلا، وهو ما جرني إلى تن اقض مس تمر وأحيانا غير مفهوم. تناقض. لا مع الآخرين، فحسب، وإنما مع نفسي أيضا. كنت أريد أن أصل الدرجة القصوى من الـ وعي. ولم يكن إلا وهما. وهم مريع ومحبط فتصوري للوعي كان ينبع من تصوري للعالم. وهو تصور لم أفرزه أنا. وإنما رض عته. تصور مبني على أسس أخلاقية أثبتت يومًا بعد يـ وم عس فها، وابتذالها. ومع ذلك، كان لابد من إعادة النظر بذلك كله. وهو ما صرت تسمينه الآن " توتراتي".

لكن تلك التوترات التي ترينها بائسة وبسيطة أتعرفين كم أقاسي لإنجازها؟ جبال ووهاد ورياح تتقاطع خلال دهور في أعماقي، قبل أن يرى توتر من توتراتي النور. لم أكن أحسب أنك شديدة الاحتقار لتوترات الآخرين إلى هذا الحد.

وفجأة توقفت عن الكلام.

كنت أريد أن أطبق قاعدتي الجديدة: " تنفس قبل أن تحكي". من قبل، كنت أسابق الريح أريد أن أبلغ الآخر رأيي(حتى ولو لـ م يطلبه).

كنت أعتقد أن ما أملكه لا يملكه أحد غير. لكن تغيي ر المك ان ضيق رحابة اللسان. ضيقها بالمعنى المحدد: فلم تعد ذخيرت ي من اللغة تسعف "لساني الجديد". صرت لأول مرة أف تش ع ن كلمة واحدة أنقل بها أكثر من "مغزى" (لكأن المعاني قيم جبرية، تنقلها عبارات هندسية لا يمكن ارتجالها). وهو ما أحالني، ه ذه المرة، إلى "النفس الصامتة". هل تفهمين؟ كدت أس ألها، لك ن الضجة المفاجئة ملأت نفسي بالخوف. شظايا. ش ظايا. كان ت الأشياء تبدأ كرها وفرها من جديد.

(٦)

هذا المساء قررت أن أجلس مع نفسي. أن أجلس معها مهما حدث وفعلا جلست. كنت أريد ني، هذه المرة، محاورًا لا محايدًا.

كانت تلح علي مشكلة تنظيف الذهن. تلك المشكلة التي انغرست في رأسي بتأثيرها. وأتطلع، بشغف، حولي، أبحث عن مكنسة أكنس بها البيت. ولم أجد غير القصيبات اللاصقة بالأرض. وطفقت أركض إلى النهير الناشف، أقطف الأعشاب الحجرية والأشواك المثلومة. أريد أن أصنع منها "عملا" أزين به رأسي. لم يكن البيت بحاجة إلى كنس. أنا الذي كنت بحاجة إلى لبس. ولحقت، قبل أن أعي. بي: " تعال"، "تعال".

لم أكن أعرف، بعد، ما كانت تريد. كانت أعشاب النهير الناشف تنبت متلاصقة: قرنفل ونفل وزيزفون. حلفاء وبابونج وقصب وزل. وورود صغيرة لاصقة بالوحل.

وهي خلفي تعد نقر الماء وعيدانها.

كنت أغني من الحزن. وكانت تبتسم. وبلهفة قالت لـ ي: "تبـ دو سعيدًا هذا اليوم". (كانت ترى الصوت ولا تسمع الألـ م) قلـ ت: بلى. (وأنا أريد أن أقول:لا). وجرتني برفق (وهـ ي تسـ حبني بعناد): "تعال. إنه لمن المفرح، حقا، أن يكون أحدهم سعيدًا هذه الأيام".

وجررت نفسي منها:" إلى أين تريـ دين أن تأخـ ذيني؟" وعلـ ى الوحل وقعت. ووقعت هي علي. وأحسست بالطين الغضـ روفي اللزج يدخل بي. كان الحزن يتبدد بهدوء، وهي تدخل أنفاسـ ها في محطاتي. كنت أتنفس كالطاووس. كانت تتمدد، كنت أتردد. وبحنان مطلق حاشت ذراعاي أغصـ ان الشـ جيرات اللاصـ قة بالأرض. حاشتها وأنا أنكب على التراب مهملا مآخـ ذ الجسـ د المبذول.

كانت تدفعني فيها وكنت أقاوم الانزلاق. كنت أطلب العون مـ ن العشب الصغير الذي رعيته يومًا بعد يوم، ولم يتحـ رك. كـ ان العشب يتملاني هازئًا منهـ ا. كـ دت أضـ حك لـ ولا إلحاحهـ ا العنيد:"أدخل. لا تخف ليس له أسنان". كنت أقاوم الإغراء فعلا. لم أكن أعرف بعد معنى المتعة ولا مداها. وصـ ارت تـ ركض بي: "ألم تركب فرسا من قبل؟"، تعال اركب" أضـ افت، وهـ ي تعطي ظهرا للريح.

كان البلل يشتد وكانت تهذي. وبقيت منحصرًا بين فخذيها. كنت أبكي. وكانت تقهقه بافتتان. وبدأت أتصرف وكأن الأمر واقع لا محال.

كنت أتكمش بالشجيرات الهشة وأنا أقاوم: " لا، لن تفترسني هذه البعوضة" وجاءت الشجيرات منقلعة. وبقيت أنا فيها. كانت تحضني على المقاومة: تشبث بالشوك، تشبث، لأرى إن كان ذلك يفكك". انقلع الشوك كله، وظللت عصيًا على القلع منها. خدعني يقيني. ذلك كله لم يجد نفعًا. كان القطب الأسفل يفلت مني نهائيًا. يغدو ملك يديها. كنت أحسه يبتعد عني مرغمًا. وصرت أتفرج عليه وهو يختفي في محيط الجسد الهاجم.

واقتربت أنظر. لم يكن ثمة إلا الماء. كانت حوافي " السدين" خالية من البشر والأشياء. أين أختفي..(وقبل أن أتم الجملة التي كنت لا زلت أفكر فيها) قالت شبه مبتسمة:

– تحب أن تنتظر، وألا يأتي أحد، أعرف ذلك، ولكنني لم أكن أتصور أنه كان مشروع حياتك الأساسي. ولا أرد. الليل، والماء والأضواء الخافتة تغريني. (كدت ألتقي بنفسي، من جديد، بعد أن أضعتها للحظات على حافة نهيري القديم). وفجأة بدأت تصيح:

–أين تراك ترى الليل والماء والأضواء الخافتة؟ أين؟ هنـ ـا، أم هناك؟ أم..

–أم، ماذا؟(تساءلت مبتهجًا بلا سبب) كنت أفرح عندما أسـ معها تحكي. ولم تقل بعدها شيئًا.

ظلت تجثم على الأرض، تحت الجدار المقابل للنافذة التي كنـ ت أسدها بهيكلي. وللحظة حسبت أن هذه المحاورة لم تحصل أبدًا. ولكن بلى. فأنا لا أهذي كما أنني لست وحيدًا. والوقت ليل فعلا. وها هي ذي خلفي. وأريد أن أستدير لأتاكد من وجودهـ ـا. ولا أستدير. ولم أكن بحاجة إلى الاستدارة لأتاكد من أنها ليست هنا، و حتى لو استدرت فلن أراها.

"فمن لا يراه القلب لا تراه العين" مـا حـ ـاجتي إلـ ـى التلاعـ ـب بعواطفي، إذن؟

كنت أردد منذ أيام: " لا تشغل نفسك بما فات. افهمه فقط" كنت أدرك أن ذلك لن يعود ولم أكن متأكدًا حتى إن كان قد وجد يوما ما.

في وجه الظلمة المقابلة لي، تلك الظلمة الشاسعة، أخذني خوف قاهر. المنطق وحده لا يحمي النفس من الجزع والموت. كنـ ت أنتظر بفارغ الصبر لحظة سقوطي من عل إلى القـ ـاع. كنـ ت أحدد في أسفل النافذة التي انفتحت قليلا بؤرة السقوط. وأتصور،

بشكل تشريحي رضوضي وكسوري التي ستكون بلا ريب غاية في الخطورة.

لم يعد ينتظرني أحد، وصرت أنتظر كل الناس. كل الناس الذين لا يهمهم أمري. وأتطلع حولي بنوع من الأسف والاكتئاب. كان عازف الأكورديون يعزف لحنا جميلا. كان يمشي بين المقاعد والجالسين، وهو يسحب خلفه أذيال جسده الذي ترهل وطال. لم يكن أحد يهتم بعزفه. أنا أيضا لم أكن أصغي إليه. كنت أتابع هذياني. صرت أحب أن أجلس في المقهى وحيدًا. لم يعد ثمة أصدقاء أحب رؤيتهم. باريس صارت جحيمًا، كما كانت الشام. كنت أحسني أعدو عضوًا في جوقة الخلعاء الأممين الذين أراهم يجوبون الشوارع، بلا غاية، حولي، ولم يكن باستطاعة أنوارها الغامرة أن تنقذني من هذا المصير المظلم.

كنت أعرف أن مصيري الشخصي يتوقف على التخلي عن أمرين: تبرير المتعة وتضخيم الحنين. عاملان أساسيان كنت بحاجة إليهما إذن: الزمن والصدفة. وأحدهما يكفي. لكن الالتقاء بالزمن صار يعادل استئناف حياة جديدة. وهذا هو بالدقة معني المستحيل. والعثور على الصدفة معناه التخلص من التراكم الهائل الذي يفسد الجسد والروح. وهو ما يعني (كونسيبت) الاستحالة، نفسه.

بدا لي ذلك مخيفًا، فعلا، لقد كنت أقف، في الحقيقة، على عتبة الطور الذي يسبق الجنون: " طور الخوف"

–الذي يسبقه؟ الذي يلحقه بالأحرى منذ عرفتك وأنت تخوض في مستنقع التوتر والجنون. كنت تخاطب الأشجار المرصوفة في ساحة " عرنوس" وكأنها خليلتك المشرقة. قالت. كنت تدور وتدور (أضافت فورًا)، وأنت تعرف أن المستحيل يولد من الدائرة، ومن المستحيل يولد الجنون. كنت أخمن هذا وأخبئه في قلبي. كنت أخشي عليك لأنني كنت أخشي على نفسي. ومثلك كنت أتابع الأشجار المهملة في "الصالحية" "وعرنوس" ولكنني لم أكن أكلمها كما كنت تفعل أنت كل مساء. كانت أنوثتي بادئة، آنذاك. كنت أعتقد أن كلامك مع الشجر موجه إلي. وكنت أحمر من الرغبة. يومها اكتشفت أن للرغبة متعتها الخاصة حتى ولو لم تتحقق ولم تكن تعرف ذلك أنت. كنت مأخوذا بالتصادم والتماس. وكان ذلك يغريني. كنت أتفرج عليك وأنت تحضن الأشجار بمتعة غريبة. كنت تصمت لحظات طويلة والشجر بين ساعديك. كنت تعرف أشجار الشوارع، واحدة واحدة. وفي كل يوم تنام، واقفًا، مع إحداها.

صمتت برهة، وأضافت محتدة:

-"أريد بيتًا في كل مكان، وامرأة في كل فراش"، كنت تردد أمامي كالمأخوذ. تردد وأنت تشير إلى أشجار" الصابالحية" اليابسة. وكنت أتلصق بك بمتعة ملعونة. كنت أخاطب نفسي: إن كان يعطف على الأشجار ويلتوي عليها، هكذا، فبأي عطف والتواء سيحتويني؟ بلى، كانت مزايا وصارت، كلها، سيئات: القلق والحب والحياة. وصار شعاري، اليوم: علي وعلى أحبائي (القدامى) يا رب.

التفت إليها لأقول شيئًا، كانت صامتة كالموت.

وكالبرق خطفت نظري منها إلى النافذة التي كنت أسدها. كنت أريد أن أقول لها إنني كنت أنام واقفًا، في الشام، لأنني كنت، ببساطة، بلا مأوى. لكن الاستياء القاسي الذي يشع من قسماتها أخافني. ذلك المساء اكتشفت سرًا خطيرًا: التماس الحنان من المرأة هو الذي يجعلها قاسية.

والتماس الحب منها هو الذي يجعلها عنيدة. فلقد تعودت منذ قرون، على الالتماسين. التواصل الحسي، وحده يجعل منها كائنا رائعا وإيجابيًا: كائنًا يعرف خصائصه ومزاياه. يعرفها ويحسن التصرف بها. جسد المرأة عالمها الأساسي وملجؤها الأول والأخير. وعلاقتها بالرجل مثل علاقتها بالماء:

تستحم به، وتتسخ، لتستحم به من جديد. لكن غباء الرجل وسذاجته سلبا منها كل شيء: "حق التمتع المطلق بجسدها". سلبها الغبي كل ما تريد، وأعطاها ما لا تريد (أو ما يريده هو):"حبه" البائس. سلبها ما تحتاجه وأعطاها ما لا تحتاجه.

شقها المتزمت شقين. ومذ ذاك وهي تعاني من أجل توحيد نفسها: "امتلاك جسدها بعد تحريره من قيود الحب". وهو ما لم يفهمه الرجل.

– القرصان بعد ذلك المساء، كنت أدرك لِمَ تعاند المرأة الرجل. ولا تسانده. هذه النزعة المجيدة، هي، في الواقع، نتاج تاريخ صراعهما. فالتماس بين الرجل والمرأة لم يؤد حتى الآن إلا إلى الانهيار: انهيار أحدهما في الآخر. (وغالبًا ما تكون المرأة.) وهو ما فرقهما وفرغهما، معا. تماسك المرأة يأتي من استيعابها التدريجي للإخفاق. وهشاشة الرجل تنبع من استهلاكه الفوري "للنجاح". وهو ما باعد المسافة بينهما أكثر فأكثر. مسافة لم يعد من الممكن اختزالها، لا بالحب، ولا بالقمع.

ووجدتني أتنفس بصعوبة. أكاد أقع على الأرض. رفيف. اختمار. انخطاف. قرف. تمزق، اكتئاب. انكسار. خوف. خوف قاتل يشل الطاقة: طاقة الفرح والانتشاء. (كدت أضحك من حالي).

كان الليل يغمر " السين"، تماما. ولم أعد أرى المـ ـاء. كنـ ـت لا أرى إلا أنوار سفن السواح الحوامة، كالذباب. وفجأة هبت مـ ـن خلفي:

–لم تظل ساكتا كالملسون؟

وأمرّ بعيني على " السين". السين اللئيم. سين المـ ـاء الأشـ ـهب السائر في صمت. الماء الذي لا أعرفه ولا يعرفني، مع أننـ ـي أشربه كل يوم، وكل يوم به أستحم. لا، لا أحد في مثـ ـل هـ ـذه الساعة وفي مثل هذا الجو: عتمة وخصام.

معركة حقيقة: معركة ضد الذات، إلا أنها، لأول مرة، لم تكـ ـن لمصلحة الآخر. كنت أريد أن أحكي قليلا. أن أتخلص من كـ ـل ما يجب الخلاص منه: أن أكف عن إرجاع الأمور" الضالة" إلى مجاريها. إلا أن حوائل عديدة كانت تحول دون ذلك: إحداثياتي القديمة، وآمالي التي انتهت بلا مآل، والبرهة التي آلـ ـت إلـ ـى الزوال، والحماس القديم المحبوس في جسدي مثـ ـل البرغـ ـوث الجائع، والأشياء الأخرى، جميعا. الأشياء التي غدت ركامًا فوق ركام. ومع ذلك كانت المسألة شديدة الوضوح: لا يمكن للنهر أن يحفر مجراه مرتين.

برهة.

برهة صغيرة اعطني.

أفكر فيها قليلا من التفكير. تفكير حقيقي يساعدني على الانعتاق من أسر الماضي. من أسر التاريخ الكامن في الخلايا. من كل ما كنت أتمنى حدوثه. مما حدث. ومما لو يحدث، بعد، وفجأة هبت:

–أنت محافظ وسكوني وهما أسوأ خصلتين عرفهما البشر. فبدلا من أن تجذّر ما تفعل وما تعيش، أهدرت طاقتك بالمصالحة والاستيعاب. وما بحثك المستميت عن " البرهة" المشتهاة، إلا نوع من البحث المفتعل عما بين يديك، وقد فقدت نفسك إياه.

– أنت ناقمة. قلت

– أنت لا تعرف نعمة النقمة. قالت.

"الروعة هي التمييز بين " الهائل" " والمستحيل." وأنت لا زلت بعيدة عن ذلك. فنحن في الحقيقة، لا نملك من الزمن الهائل الذي بين أيدينا شيئًا. ومشروع الحياة الأساسي، كله، يتخلص في محاولة امتلاكه، وذلك هو المستحيل" قلت ساكتًا.

(٧)

كان في الأفق ضياء واختفى. لم يبق في الأفق إلا ضيقه. كن ت أريد في تلك العتمة الصامتة، أن أستدرجها إل ى المو ت. أن أحيط منكبها بذراعي وأن أقودها إلى الجحيم. صر خت أخش ى فشلي، وأخاف منه. ولم تكن، هي، تمثل ذل ك الفش ل، وإنم ا تضاف إليه: كانت تسرع، وكنت أبطئ، وكنا عل ى الطري ق، نفسه. لم يكن ثمة مفر من الاصطدام. كانت النق يض الأنث وي الجاد لذكورية تاريخية هزيلة. كدت أستدير. أبحث في ملامحها عن...

– لِم تنظر إلي بمثل هذه الوقاحة والاستخفاف؟ قالت. وأع ود، سريعا، إلى النافذة. النافذة المعلقة في الفضاء. واقتر ب منه ا سهلا. اقترب حتى الرماد. الرماد الأصفر اللطيف. رماد ضد فه "بردي". ويكون ثمة الغراب والفيلسوف والشاعر. معه م أقع د مكتئبًا وحزينًا. كنت أعتقد أنني مسئول عن تدهور التاريخ، وهو ما شغلني عن تدهور نفسي. في ذلك المساء الغامض واللطيف، اقترب من " بردي" حتى اللصاق. أدس قدمي فيه. أحس حرارته اللزجة: حرارة حليبية غنجاء. أخض ماءه بأطرافي وأنا أتمذ ى

عليه: بردي ماذا يحدث للعالم من خلل لو حدث كل شيء كما أريد؟

" العالم؟ لن يحدث له شيء، لكن أصول اللعبة ستتغير، وهو ما سيغير العالم" يرد بردي اللطيف، هامسًا. وأخضه من جديد.

وقبل أن أسأل يجرني بردي، وأروح أسبح فيه. كنت أحلم بحياة بلا خيبة، وهو ما خيبني باستمرار. كنت لا أزال أردد: " تجنب ما لا يمكن إصلاحه" ولم أكن أدرك بعد، أن ما انعطب لا يصلح. وأنه لا معنى لاضطرابنا خوفًا من الهزيمة، وطالما أن الحياة ستهزم، يومًا ما أمام الموت. تلك الليلة اللطيفة أهبط بردي، مرارًا، وأصعده،ومع مويجات الماء الحنون أتموج، أذاب الآخر، ذائبا كالرذاذ. كانت أنوار دمشق تقبل " بردي " بلا انقطاع. وكنت فرحا بالماء والنور.

لكن عتمة النافذة، هذا المساء، لا ماء فيها ولا نور. ذلك الجمال الذي سلب مني عنوة لازال يحيرني.

الآن أتساءل عن معنى خشيتي الحمقاء من المحيط. أتساءل، وقد أدركت للتو أن الإنسان لا يهزم في حياته إلا مرة واحدة. وهو ما حدث لي من قبل؟ لكن المسافة بين الإدراك والانتهاك مسافة واسعة ومخيفة. كنت من منظور تاريخي، لا أزال في مستوى الأحياء الزاحفة، التي لا تعرف، بعد، كيف تمشي. لكن حركية

الذهن لا ترتبط بالضرورة، بحركة الجسد وحدودها ليست حدوده. وألتفت خلسة. أريد أن أقول لها بعض ذلك، الذي.

وفورًا، أعود إلى النافذة. أواجه العتمة والفراغ: كانت مقلوبة، بعضها فوق بعض وعيونها مغمضة ومفتوحة، مثل عيون الخيول النائمة ليلا.

على الطرقات التي نعرفها جيدًا تقع أكثر الحوادث خطورة. ألم تكن تعرف، هي، ذلك؟ لماذا استفزتني. إذن؟ والاستفزاز عدوة، والعدوة تولد الاستياء. تحسب أنها تعرفني، وأنا لا أعرف نفسي " أنا الموقع أدناه خليل بن حمد النعيمي من أهالي بادية الشام أقر وأعترف أني لا أعرف كيف هي نفسي."

في الحقيقة، سوء تفاهم عميق كان يربط أحدنا بالآخر. سوء تفاهم جذري. وإنني لأتساءل الآن إن لم يكن سوء التفاهم، هذا، عاملا من عوامل تغيير التاريخ الأساسية.

عبر النافذة المعلقة في فضاء باريس البارد، ينبح القمر فجأة. قمر يجري خلف غيوم رمادية كئيبة. غيوم لم تر الشمس من قبل. غيوم تتسابق ولا تمطر. إلفتي الأولى كانت مع الغيوم، وفرقتي الأخيرة ستكون معها. ربيعًا بعد ربيع كنت أسابق تحتها الخراف في بادية الشام: إن أمطرت تروي، وأن سكنت تظل. إن اجتمعت تهمي، وإن افترقت تحل. غيوم قريبة من الرأس

والقلب. تحجب الشمس الحامية، وتروي القاع الظامية. تلك الغيوم كنت أحبها، وكنت أعرف أنها تعرف ذلك.

كيف تعرف الطبيعة كائنا يحبها؟ تتحسسه كالأم الرءوم. أعرف ذلك من تدحرجي الليلي على التراب في ضوء أقمار الشام الخجولة. قمر باريس، هذا المساء قمر عدائي. لكأنه، هو الآخر، ساخط ومستاء: أمه تركته ونامت وامرأته خلته وقامت. وأذا ألاكم القمر، استولت علي فكرة الاهتراء.

أرعبتني الفكرة: فكما أن الأشياء تهترئ، تهترئ العواطف، كذلك. لكن المرعب، حقا، هو أن الأشياء التي نستعملها تهترئ أقل من الأشياء التي لا نستعملها. وربما كان ذلك بسبب الاعتناء المستمر بما نستعمل. ومصير العواطف المخبأة هو مصير مثيلاتها. فليست العواطف حنطة وشعيرًا. وحبسها في النفس يعني موتها العاجل والأكيد.

"قل أحبك، أذن، قل" كدت أصرخ في الليل. كدت أصرخ. إلا أن اللحام الوحشي خرب كل شيء: لجام عزل الكائن عن ذاته. ووجدتني أدور عن شجاعة متبقية في النفس. شجاعة تساعدني على القفز من فوق حجوزي. آنئذ أدركت بهاظة الاضطهاد. وبعد أن اقتربت قليلا منها، لأقول لها شيئاً ووجدتني ألصق النافذة، من جديد. ألصقها وأنا أبحث عن شيء أضعته. أدور

عليه أين؟ في تلافيف مخي. كان ذلك الشيء هو الأمل. الأمـ ـل الذي افتقدته نهائيًا. وعندما نفتقد الأمل نبدأ بالبحث عنه. كـ ـان ذلك هو أول إدراك جدلي لي. ومع ذلك كنت أردد باكتئاب: أية خسارة! من قبل، كنت قادر على إقناع نفسي بعكس مـ ـا كانـ ـت مقتنعة به. وكان ذلك، بحد ذاته، طاقـ ـة حيويـ ـة هائلـ ـة. الآن، أجدني كالمنوم، أقف منذ أول الليل في وجه الزجـ ـاج البـ ـارد. أنظر في عتمة عدائية. خلفي الجسد المنهك (لا من المتعة، وإنما من الإحباط) ملقى على الأرض كالرثاث. وأنا ساكن كـ ـالحجر الذي لا يهزه ريح: ساكن فكرًا ومقامًا (لكأن أحد فرغنـ ـي مـ ـن اللب) تلك صارت عادتنا. عادتها وعادتي. مـ ـن أيـ ـن تجـ ـيء العادات اللعينة؟ وكيف تسـ ـكن الأجسـ ـام والأرواح، ولا تعـ ـود تغادرها حتى الموت؟ كل شيء عادة. حتى الاسـ ـتهيام، نفسـ ـه (أعرف الآن ذلك) استيهام أننا نبدل أنفسنا عندما نبدل الأرض. والأرض لا تتبدل. الأرض الواحدة. الجسد الواحـ ـد. الرغبـ ـة الواحدة. الفكر الواحد. وصلنا نهاية الخط، إذن؟ بـ ـدأنا نتفسـ ـخ. لكن التفسخ " المحدود؟ الذي أصابنا، لم يكن محدودًا إلـ ـى هـ ـذا الحد. وما أصيب به لم يكن عاطفة حب في نهاياتها، ولا عملية " اتصال" بدأت انفصالها. وما أصيب به هو تكويننا التـ ـاريخي،

ذاته، التكوين الذي جمعنا في البدء، هو الذي يفرقنا الآن. ولكن كيف أشرح لك ذلك؟ وكأنها لم تتم أبدًا. قالت بغضب:

– تشرح لي؟ تشرح لي أنت؟ وأنت بك الصفات السيئات، كلها: جبان وطماع، وحسود.

وكأنها أصابت القمر بطلقة فضائية، رأيت القمر يعود القهق رى ويغيب. والغيوم الصغيرة التي كانت تحاذيه غطته فجأة. كنت لا أزال أدير للجنوب ظهري. وأصبح مدى النظر قريبًا جدًا. يكاد النظر أن يلتصق نهائيًا، بالزجاج، حتى العتمة المؤنسة اختفت. وللحظة صار وجودي وجودًا حياديًا بعم ق: وج ودًا مجانيً ا. أردت أن أضحك من المسألة، كلها، إلا أنني بكيت. كنت أردد. في زوبعة من الدواخ: أفهمك بوضوح. أفهمك، بقدر ما يك ون المطلق مفهومًا. أفهمها؟ ربما. في النهاية، نحن مكوذ ون م ن عواطف ومقولات، وبين القطبين يمر الـ وهج. الآن عل ي أن أتخلص من هذا كله، هذه هي مهمتي الأساسية. وفجأة بدا الأمر مضحكًا، حقًا. ولكن من يملك الوقت لكي يضحك؟ لماذا أكذب؟ ليس كل الكلام كلامًا. بعض الكلام يدمر. وهو الكلام النافذ الذي يرتكز على إحساس عميق، ويتمتع بهيكل فكري محكم وينق ل بلغة متماسكة. كلام مثل هذا لا يمكن له إلا أن يكون صائبًا. في تلك اللحظة أحسست بي شخصا آخر، شخصا أردت أن أمس ك

به وأن أحاكيه. لكن فراغًا موحشًا كان يجعلني عصيا على كل شيء. شخصان متمايزان كنت: أنا وأنا الآخر. من منا الذي سيكون؟ بعد لحظة موت قصيرة، وجدتني أبعث من جديد. وكان أول الحياة النظر وبدأت أبحث عن القمر بشغف. قمر لم أعد أريد أن أراه. لِمَ علي أن أري المكروه مرتين؟ قمر شهد قبل قليل موتي، وشهدت موته. وكأنها لم تنس مما قلت شيئا، قالت، بهدوء، دون أن تنظر إلي:

– مأساتك أنك اعتقدت نفسك جذريًا، واعتقدت أن هذا أمر مفروغ منه. وليس ذلك، في الواقع إلا صيغة جوفاء. آلة الحياة تطحن الصيغ طحنًا. ولم تدرك. مع الأسف. أن " الجذرية" (إذا وجدت) ليست أكثر من حدث عابر. أو بالأحرى، "معطى" دائم التغير تحتاج، هي الأخرى، إلى رعاية مستمرة ونقد دائم وتنمية بلا انقطاع.

لم تكن بي رغبة لأرد عليها. كنت أفكر: لو كنا نستطيع إعادة صياغة العالم كما نريد، لكان في ذلك بلا شك خراب له، وكأن غشاوة أزيلت، فجأة عن بصيرتي، صرت أقرأ في اللوح أمامي: عالم متنازع عليه، أفضل بكثير من عالم تم عليه الاتفاق. وهو ما أعطاني نفحة جديدة من الشغف. وبدا لي أن إحباطي

المستمر وخوفي من النقد مسألة توجيه قديم ومهترئ، لا أكث ر فبما أننا لا يمكن أن نكون، دائما، أشباها، فإن نقدا ما سيصيبنا، دون شك. متعة الحياة تنبع من منظ ور التع دد والاخ تلاف، وبؤسها مرتبط بمفهوم الإجماع والائتلاف. أنا مخطئ إذن؟ وأي ضير في ذلك: المهم هو أن يكون لأخطائنا مغ زى ت اريخي: مغزى لا يضر بالشخص فحسب، بل بالوضع، أيضا (وفي ك ل ضرر بالوضع فائدة). وكأنني كنت أنشر أمامها أفكاري، قال ت بتبجح:

–الجذرية الكاذبة لا تكذب، وإنما تميت. وقبل أن أقول شيئا.

أضافت بهدوء:

– منذ القدم والناس تعيش الكذب وتحاول أن تقول الصدق، وما يضرك، أنت، لو فعلت العكس. وفورًا أضافت:

– ألست أنت القائل: "العكس، دائما، ه و الص حيح"؟ المثي ر للعجب هو أن الكلام عندك لا يزال "طفرا". فما تقوله يستند على الحدس، ولا ينبع من السلوك. وهو ما يجعلك متوترًا وحساسًا.

وفجأة أفتح النافذة المعلقة في السماء وأسقط من عل نفسي. ل م يكن ثمة في الجو ريح. كان السكون، ذلك الليل مدهشً ا. ف ي السقوط الطويل المتتالي، أحسست بي كالطير المكسور الأجنحة.

حياته لم تعد معلقة بما في رأسه، بل بحركته. الحركة التي هي وحدها قادرة على إنقاذه. ولحقني صوتها، ساقطًا، هو الآخر:
–هل أستطيع أن أقول لك شيئا؟ وقبل أن أرد قالت بهدوء:
– أريد أن أقبلك.

شيء ما دب في خلاياي. مشى تحت جلدي الذي اقشعر عذ وة، مثل جلد القنفذ المنصاد. صعد من بطن القـ دم حتـ ى الـ دماغ. وحسبت أني أصبت الأرض. وبقوة أغمضت عيني. كان البحر صافيا والنهار قاتلا من شدة الجمال. و"برايتـ ون" تـ نلقح مثـ ل البقرة الحامل على شاطئ المحيط.
الشمس والمقاعد الخشبية الملونة، وهضاب برايتـ ون المغطـ اة بالعشب الأخضر الداكن، وأشجارها القصيرة الأغصان، وأناسها الهابطون ماء، الصاعدون ماء حصى. حصى كبير مكور متعدد الألوان والحجوم، حصى أملس، مثل كـ رات القذ ـب، يفـ رش الشاطئ. حصى بلا رمل. حصى وأخشاب وأجساد وأنا وسـ ط هذا كله، أسقط. أسقط وتسقط، هي الأخرى، علي. وأتمدد على الحصى اللين، ولصقي تتمدد. وأمسك بها بعنف لـ ئلا تـ نطحن على الأرض. كنت أفكر كيف ستكون هيئتي إن لامست الأرض أولا برأسي.

وكيف أكون إن سقطتها، أولا، على قدمي. وكانت تـ ـردد بـ ـلا انقطاع: أريد أن أقبلك. أريد. تردد وهي تتدحس بـ ـي كالـ ـدودة الحفارة. أنفاسها تلج خلاياي، وهي تلج الروح. ويشتد القـ ـوس ويهمي. وتسقط القطرات اللزجة على الأرض قبلـ ـي. قطـ ـرات تصير، في هبوطها، حبالا لينة مشدودة تجرنـ ـي حتـ ـى القـ ـاع. وأصير أتقلب على الحصى الذي غدا، كلـ ـه، عجينـً ـا. كانـ ـت تضحك. على أي شيء كانت؟ كنت كمن يحترق بالنار وينظـ ـر لـه الآخر عن الجحيم. بشر برايتون. ذلك النهار، بشـ ـر ملـ ـون وبلا روح. قضيت اليوم، كله، أبحث عن حصى يشبه الأجسـ ـاد التي كانت تمر، بلا انقطاع، أمامي لكل جسد حصـ ـوة تشـ ـبهه. وفعلا. كومت الكثير، منه. عندما تركت الشام كنـ ـت أعتقـ ـد أن نصف الأرض أبيض ونصفها الآخر أسود. وهنـ ـا عرفـ ـت أن اللونين يتوزعان بالتساوي على الناس جميعا. لكن قدرة التمييز بينهما (هنا وهناك) هي التي تختلف. وهنا يكمن مصدر الخطأ. وبدا لي واضحا، أن مسلسل الأخطاء التي لا تنتهـ ـي، مسلسـ ـل قديم جدًا. وأن مسألة خلاصنا الديمومة الخطأ، مسـ ـألة تنفـ ـتح بالضرورة، على التاريخ. صرت أبحـ ـث، فجـ ـأة عـ ـن الخطـ ـأ الصحيح. عن الخطأ المنقذ، إن صح القول. انتقالي من الضـ ـفة الأخرى إلى هذه لا يندرج إلا ضمن هذه المسـ ـألة، إذن؟ كنـ ـت

أعتقد أن الهجر (وبالتالي الترك، التخلي) يكفي لإبـ داع كـ ائن جديد مني. ولم أشغل نفسي بـ . " موضـ وع" فعـ ل " النفـ ي " الساذج، هذا. وأول مرة توصلت فيها إلى استحداث مواجهة بين المجتمع وبيني. كنت سعيدًا. وكان مصدر تلك السعادة الزائفـ ة، هو الاعتقاد الخاطئ بأن الخلاص من تقولـ ة المجتمـ ع يعنـ ي الخلاص من أحمالي. لم أكن قد توصلت، بعد، إلى التمييز بـ ين أنواع "الوعي" المختلفة، والإلمام بتدرجاته. لا، لم أكن أعـ رف أن الانقلاب الحقيقي، هو الانقلاب على الذات، وأن الخـ لاص الحقيقي، هو الخلاص منها. ذات كونها الآخرون في غفلة منا.

(٨)

كانت تصيح: الدم، الدم.. ودون أن أهتم بصـ ياحها المتكـ اثر، ركضت إلى المحيط، وغطست فيه. بشر برايتون، ظـ ل يرتـ ع على الحصى، مثل أبقار المختار السمينة. أخرجت مـ ن المـ اء ملوثًا بالأحمر الثخين. وقصدا، دهنت به وجهـ ي وأركـ اني.. وقصدًا مررت بينهم عابرًا، بتبختر، وأنا أسرق النظر والنظير. لا، لم يهتم أحد بالمشهد. ظلت الناس تزحف نحـ و المـ اء بـ لا انقطاع. عمق الخسارة لم يكن يكمن في تجاهل المشهد السخيف ولا، في تتفيهه، وإنما في كوننا مسكونين (وربما نقضي حياتنا، كلها في ذلك) بكائنات أخرى غير مسكونة هي بنا. ما حدث لم يحدث، إذن. لقد كان دائما، موجودًا. دائما.

في خضم التذمر المتتالي، جاء صوتها الآسف محمـ ولا علـ ى الريح:

–هذه المرة، معك حق، فمنذ اللحظـ ة الأولـ ى، تلـ ك اللحظـ ة المشئومة، أردت أن أخلص منك. لكن ما حدث لم يحدث، قـ ط. كان دائما موجودا. ومنذ ذاك وأنا أحاول التملص منـ ه. كانـ ت

خصائصك كلها معلنة، تكاد تكون مكتوبة، ومع ذلك وقعت ف ي المصيدة. لم أعد أشك الآن، في أن من صادني، هو أنا. أنا التي صدت نفسي، وليس أنت (ولكن هل يغير ذلك في الأمن شيئا؟).

والتفت إليها لأقول لها(وقد فرحت، أخيرا باعترافها المفاجئ):
–بلى، يغير الكثير. فقلب المنظور أمر خطي ر. وه و أكث ر خطورة (أعني القلب) عندما ينقل عقلن ة الإحس اس، وينب ئ بجذريته. ذلك هو السبيل الوحيد للخروج من المأزق.
–مأزق؟ قالت متعجبة وهي تكشف عن نواياها التي ألهبتني ذلك النهار. كان "بردي" الصغير يتلوى. وكانت تنطنط مث ل كب ة الغزل المنفلت. الشارع القصير في ظهر "الجامع الأموي" خ ال من المارة والمشتغلين. الشمس الدمشقية في أبهتها الهائلة. قب ل قليل كنا تركنا ساحة (المرجة). النوبة اكتملت. لا، لم تعد ت رى إلا الشمس المتسلطة: شمس تملأ الجسد بالوهج والاختناق "م ن هنا فقط يمكن أن أتنفس". قالت. ودون أن تنتظر، كان ت ي دها تغوص في باطن الهيكل المثي ر. ووقف ت مدهوش ا. كان ت أعضاءها تتلاقى بانسجام كلي. وكأنما تقودها موس يقى غي ر مسموعة. كانت لا تزال تقف في الضوء. شيئا فشيئا سحبتها إلى القاع. وأخذت السحب تجتاز أنحاءه ا. كن ت أرى ارتجاف ات

العضل المثيرة، وأكاد أرى المتوسط الصغير ينهض من مكمنه، ينهض متكبرًا، وبه، يحيط سجفان من لحم ودم. كانت هالتها، في الحقيقة تثير الدهشة. غدت، وهي المحدودة، عميقة عمقًا بلا حدود. وفجأة نادتني: شم. شم. وأشم الخرنوب. خرنوب ممزوج بتين طري، سقط، للتو، على القاع. أشم شيئا خافتًا، غريب الهيئة والأطوار. في أي زمن نحن؟ وعلى أية بقعة نقيم؟. أشم رائحة شواء حامض ورزين. رائحة الأخشاب المبلولة. رائحة الحور الذي تخترقه النار من أين كانت تجئ، ذلك النهار؟ وسط ذلك الفضاء الغريب، وجدتني أبحث عني. ولأول مرة أدركت خطورة الفقد: أن يكون الآخر في متناول يديك، وفي الوقت، نفسه، لا يمكن لمسه. الفرق بين عجز الجسد وعجز الروح كالفرق بين الميت والنائم، أحدهما يمكن أن يصحو أما الآخر فلا. وبلا تردد قاطعتني:

– فكرة العيش معًا (حتى الموت)، لم تعد تغريني. من حكم علي بالإعدام؟ العدو المشترك الذي أخفتني به طيلة الأعوام البائسة المنصرمة، لم يكن إلا عدوك أنت. ولست أدري لِم يتوجب علينا أن نعيش وهمًا مشتركًا: وهم الحياة الواحدة،

والسلوك الواحد، والحب الواحد. تصور! ونحن لا م ن نف س العقل، ولا، من نفس النظام.
وفجأة أخذت حجرًا من كومي، وألقت به في المحيط:

-أنظر الحجر الذي سقط في الماء للتو، سقط فيه ا ولكن ه ل م يمتزج بها. حتى الأشياء تقاوم الاحت واء، والانح لال. وأن ت أنفقت عمرك، كله، في البحث عن وهم سخيف، كهذا.

كانت المفاجأة تامة. وأكاد أقول قاتلة. لقد تصورت الاحتمالات، جميعها، إلا هذه. وبلا حرج، ضحكت شامتة، وهي تقول:
- الأغنياء، هم دائما، هكذا. لا يتصورون إلا الاحتمالات الت ي لن يواجهوها.
كان القمر يتلوى غائبا. لم أعد أميز بين الأشجار والدخان. ك ل شيء صار ضبابًا. أنوار باريس لم تكن إلا وهما؟ طعم الفش ل أسود. بلي، صرت أذوقه في رأسي ال ذي ب دأ يف رغ، مث ل الأحجار المنخورة. متى أخلص من هذا الرأس؟ وكيف؟ كن ت أعرف أن مشكلتي الأساسية هي مش كلة تك ويني الشخص ي: تكوين الحشو والتفريغ. وأن ثورتي الجذرية، هي الث ورة فيه وعليه. ومع أن ذلك يقارب الحلم، إلا أن مواجهته لاب د منه ا.

فنحن، غالبا، ما ندرك أن الطرق التي سنسلكها لن تؤدي إلى أي مكان، ونكاد نعرف، مسبقا، أنها طرق مسدودة، ونسلكها، م ع ذلك. لماذا؟ لأن الحياة تغدو لا تطاق إن لم نج رب الاحتم ال الآخر. حتى اللحظة التي خلت، للتو، كنت أحسني بحاجة إل ى شهود، إلى اعترافات تبهجني وترضيني. كان معنى وج ودي، بشكل ما، معلقا في نظرة الآخر إلي. كان القفص الاجتماعي قد أحكم إغلاقه من حولي. وكأنها لم تكن بعيدة أبدًا، قال ت، م رة أخرى، باحتقار:

–ألا تعتقد بما تفعل ولا بنفسك، فذلك هو شأنك. أما أن تطل ب من الآخرين الاعتقاد بما لا تعتقد به أنت، فتلك هي المشكلة.

وسُحبْتُ سريعا. سجني غمام باريس الليلي البارد. غم ام ب لا أحصنة ولا بهجة. كانت سفن الضوء البلي دة لازال ت تم ر. وأعرف أن مرورها لن ينقطع حتى الصباح. كانت أض واؤها تغمرني كلما اقتربت من البيت.

تغمرني ناشرة خلفي ظلا أسود شديد الهيام. في وسط ذلك الظل كانت تختفي وتنام.

–تنام؟ قالت محتجة. محتجة.

كانت شبهات تتوالد في نفسي وتتكاثر بلا انقطاع. كنت أريد، هذه المرة أن أملك " البداية" التي سأبدأ بها، من جديد. بداية "صغيرة" غير ملتبسة تكفيني. لم تعد "ضخامة" الأمور ولا "كثرته" تغريني. صرت أدرك أن الروعة هي أن تعرف كيف تتذوق الحياة، لا أن تتخم بها. ما حاجتي، إذن إلى الرد؟ عظمة الإنسان تنبع، أحياناً من مقاومة رغبته الملحة في تأكيد ذاته، إذ سيكون لديه، دائمًا متسع من الوقت لفعل ذلك، إن كان يستحقه.

(٩)

المرأة الراديكالية يستغني الرجل عن الحب، ولا يستغني عنه ا. ماذا يبقى، إذن من الهفوات الصغيرة والكبيرة؟ ماذا يبقى مذ ا، غير ذلك الألق الفضاح؟ ومنذ متى كان الانتهاك عيبً ا؟ لم اذا أكذب؟ أنا لا أبحث عن علاقة عابرة، عن علاقة لا تدوم. (وأنا أعرف تمامًا معنى "عابرة". أعرفه من منظور نقدي) إنني أبحث عن علاقة تاريخية. إني أبحث عن هذا. لك ن البح ث ش يء، التحمل شيء آخر. وهو ما يعطي الحي اة متعته ا الخاص ة، ومنعتها، كذلك. قبل الآن، كنت أخشى فشل الحب، وأنا أغ رق في فشل الحياة: ولم أكن أتميز في هذا عن غيري. الشبه يعمي. لا يعمي البصر فحسب وإنما يعمي البص يرة، أيض ا. الي وم قررت أن أنتهك هذا التجانس المشل. وسأبدأ بنفسي. سأقول لها كل الأشياء التي أريد أن أقولها للآخرين. هكذا أتمكن ربما، من اختيار المناسب منها. أريد أن أفهم لم أكون واضحًا عندما أتكلم مع نفسي، وشديد الغموض عندما أتكلم مع الآخرين. خطأ الآخر بالنسبة إلي كان يعتبر، دائمًا "جريمة"! ول م أك ن أتص ور أن خطئي كان يمكن أن يعتبر، هو أيضا، كذلك. وه و م ا ك ان

العائق الأساسي في " اللعبة". أتذكر، الآن، في الشام انتق ـاداتي "العنيفة" للنظام، وللنظام الإنساني، برمته: نظام اللغة والأحكام، وأضحك، أضحك من السذاجة العميقة التي تلتبس، بصدق، مـ ـع العبث. ما معنى هذا؟ أريد أن أقول أن " السذاجة" كانت آنـ ذاك نوعًا من مواجهة العالم، من تحديه. كانت بمعني مـ ـا، سـ ذاجة "ثورية". لم أكن متمكنا، بعد، من تحليل العالم ولا من فهمه "ولا أزال، بالتأكيد، كذلك" إلا أنني كنت ممتلئًا برفضه. شيئًا فشـ يئًا، أقنعت بأنني جزء منه، وأن علي أن أقبله كما هو. الأمر الـ ذي أدى إلى رفضه، فيما بعد، أيضًا. الخطأ الأساس، إذن والقاتـ ـل لكلينا: للسلطة (بمعناها الاستبدادي،وهي دائما، كذلك) وللفـ ـرد، هو أن تشويش الحس لا يخلق عقلا. وأن التفكيـ ـك المسـ ـتمر لا يعني إلا أننا في حالة حرب دائمة. وأول خطوة في تدمير العدو هي تفريغه من الإحساس. منذ البدء وأنا أحث نفسـ ـي، لأعمـ ـل "جهدًا خارقًا". وفي كل مرة كنت أجد أن المبذول "معزول".

جهد تجاوزته البنية المحكمة الإغـ ـلاق. مـ ـن أيـ ـن إذن يجـ ـب الانطلاق؟ الآن فقط، يخطر لي، بعد تلك الأعـ ـوام الطويلـ ـة أن أتساءل عن معنى " جهد ضائع". عن معنى فقد جزء من الحياة بلا معنى. من كان يغريني بتلك "الألاعيب" الصغيرة المـ ـدمرة للجسد وللروح؟ وكيف كنت أقبل أن أضيع لحظة مـ ـن حيـ ـاتي

"المحدودة" في " عمل" غير محدود؟ لكن الإغراء، كما صـ رت أفهم الآن، كان كبيرًا: إغراء أن تكون حمارا جيدًا بين الحمير. مأساتي، إذن، مأساة مزدوجة: مأساة حـ س، ومأسـ اة وعـ ي. ردموني. ردموني، وعلي أن أحفر النفق شـ برًا، شـ برًا، لأرى النور. وإنني لأتساءل الآن، إن كان ذلك ممكنا. فـ لا الرغبـ ة بالخلاص تكفي ولا الإرادة. قبل أعوام عديدة، واجهت الأزمـ ة بسذاجتي. كانت أزمة عميقة وكبيرة، إلا أنها مرت بسلام. كنت أواجهها للمرة الأولى. ولم أعد أعرف الآن إن كانت أزمة اليوم ذيلا لها، أو تبعًا. ما أعرفه هو أن طاقة تحملي انخفضت. ومـ ا كان يغريني قبل عشرة أعوام، مثلا وبالتحمل والتحليل، لم يعـ د كذلك، الآن. لماذا؟ لأن المواجهة تبدأ من "وضع" وتنتهي إلـ ى آخر. وعندما نلجأ إليها، مرة أخرى، تكون الأوضـ اع، كلهـ ا، تغيرت: فلا الرغبة هي الرغبة ولا الإرادة هي الإرادة. بمعنـ ى آخر: لا الشخص هو نفسه، ولا الموضوع، كذلك. ما لم يهزمنا وهو كبير، في المرة الأولى، يمكن له أن يهزمنا وهو صـ غير، في المرة الثانية. وهنا يكمن عمق المأساة: مأساة تبديد الحياة.

أنا وحدي. أنا وحدي أحاول أن أفهم ما حدث لي. وحدي خلف الزجاج النظيف، زجاج مقهى (دي فلور) مساء. في الخـ ارج،

بشر يمر بلا انقطاع. بشر يمر. هادئًا، تحت المط ر الخفي ف المنهمر. كان الزجاج نظيفًا، وكانت الأضواء صافية وعدي دة. أضواء صفر شحابة. عبر الزجاج، كنت أحاول أن أقرأ ما ف ي الوجوه. وجوه العابرين الكثيرة. وجوه لا أعرف منه ا وجهً ا، كانت وجوه الشام بعيدة، وجوه ذلك النفر المخيف، وجوه الوحل الجميل الذي يلصق كالعلك على الأبدان. كنت أريد أن أمد يدي. أن ألتقط وجها نظيفًا وجهًا ألوثه بالمغر والحناء. أطلق ه، بع د ذلك، أطلقه وأنا أجمع اللعب والأعاجيب. لكن البشر ظل يم ر غير عابئ. بشر رمادي.

ألوان الشام الزاهية مزقته كالبروق، وظل، مع ذلك يمر بع ض النساء، كان يتمعن في وجهي ويدققن فيه. ولم أكن أفهم لم اذا (لو كان معي أحد آخر لضحك مني، حتما. لماذا؟ لأنني أنا الذي كنت أستجلب النظر إلي) كنت ألاحق الوجوه. أبحث فيها ع ن الشفاه. أبحث مستلهما وأكولا: ماذا تحوي الشفاه غي ر القب ل والكلام؟ كنت بحاجة إليهما معًا؟ شفاه الش ام غ دت خرس اء؟ وأظل، ذلك المساء أتابع النظر، عبر المطر، إلى البش ر. أن ا وحدي، حاولت أن أستعيد بعضًا مني. بعض ما مر بي. بع ض ما عشته، (وأستحي أن أقول بشكل صميمي): حياتي.

ماذا استعدت منها؟ نتفًا من نتف. لماذا؟ لست أدري. بلى، الآن أدري. لم أكذب؟ لأنني، ببساطة لم أعشها. في الحقيقة، لا يملك الإنسان لا ماضيه ولا مستقبله. والمأساة، هي أن حاضره نفسه موزع بين قطبين: قاعدته مدفونة في وهاد الماض ي، وقمت ه مغروسة في سحاب المستقبل. وتريد مذ ي أن أك ون متفهم ا وألوفا؟ وكأنها لا تكون هي نفسها إلا في العناد، قالت بترفع:

– منذ أول يوم عرفتك فيه، وأنت تتشدق "بالحياة". وكأن الحياة تركيب سحري. لكأنها " صيغة كيماوية محجوبة ع ن الن اس. تدهشني الغفلة عند يدهشني تحليلك السريع للأم ور، وتبجيل ك السفيه لها. أحيانًا أكاد أشك في أنك تمل ك بصـ يرة. مذ ذ أول المساء وأنا أصغي إليك معلومة. ماذا سمعت: الحي اة ومعن ى الحياة.

ولم تكمل الكلام. سكتت فجأة. كانت لا تزال تنطوي مثل الدودة اللينة. تحضن نفسها بنفسها. كان الكلام الذي بدأته قبل قليل ق د تحول إلى فحيح. كانت عيونها لا تزال معلقة بالجدار الملاصق لها. وكنت لا أزال أقف، مطاولا ذلك الحائط البليد. ولأول مرة، لم تلفت سفن الضوء العديد.

– لم تلفت؟ قالت مقاطعة ومتعجبة، معا. كنت أريد أن أقول شيئًا وقطعته وفجأة تابعت، بهدوء:

– إن لم يكن ثمة معنى للحياة، فقط يكون للموت معنى. عليك أن تختار. ولكن المشكلة أيسر من ذلك وأبسط: معنى الحياة من معنى الكائن الذي يحياها. ومعنى الكائن هو "فعله". وفعله هو تحقيق رغباته.لا، الرغبة في تحقيقها، كما هي الحال عندك. وهو ما يفسر بحثك الدائم عن "الكمال" ولا أظنك تجهل أن الإنسان البدائي، نفسه، ومنذ بداياته الأولى، كان قد تجاوز ما تبحث عنه أنت، الآن (فجأة سكتت، وقبل أن تسكت أضافت).

– لا، ليس ثمة معنى مجرد لأي شيء (قالت وهي تقترب مني بتصميم) وفي النهاية، لا تنتج الحياة الفارغة إلا موتًا فارغًا."زت" نفسك في الفراغ، الآن، وسترى كيف تمتلئ.

أحسست بيدها تقترب مني مثل عصا سحرية دفاعة. تكاد اليد أن تلامس الثياب. لكن الثياب لم تكن في مكانها. كان جلدي معرضًا بشكل مباشر للمس. حاولت أن ألتفت. أن أرى مسار الأصابع. أن أحتمي، إذا اقتضى الأمر ذلك. لكن أصابع المرأة اقتربت بلا تردد. المرأة ذات المخالب المعدنية الحادة، أذكرها الآن جيدًا: دخلت بيضاء ناصعة، وخرجت حمراء كالورد. شيئًا فشيئًا تصلب ظهري. وكدت أحسني أرتفع إلى الحافة.

ارتفعت، فعلا، إليها. رأسي صار الآن محاذيًا للزجـ اج البليـ د. صارت الأرض قريبة وبعيدة. ما إن أسقط حتى أخـ ر كالمـ اء الهابط من أعالي الجبال. من يتلقاني؟ ولم تتردد. حفـ زت مـ ن نومها الهادئ كالجن. صارت، كلها فيّ. يد بين فخذي ، يد خلف رأسي، وبحركة مدروسة ومصممة، قذفت بي خارجا. قـ ذفتني كما نقذف قشرا يابسا وممجوجا. إلى أي أي مـ دى ألقـ ت بـ ي وكيف سألامس الموت؟ لم يكن ذلك يهمني. كنت مأخوذا بأشياء أخرى. كانت فترة السقوط المستطيلة فرصة للخلاص من كـ ل شيء. لكن صوتها اللئيم جاء يلحق بي:
"تتودد، وخلف مظهرك الذليل يختفي طاغية، لن تخدعني بعـ د الآن". وقبل أن أقول شيئًا، أضافت محتدة:

– لم تزل، كما عهدتك، تلجأ إلى كل الوسائل لتثبت أنك علـ ى حق، وهو ما يؤكد أنك لازلت دكتاتورًا صغيرًا. كـ ان رأسـ ي يتشظى. ينقسم إلى فوهات. ينفصل عنـ ي. أراه أمسـ كه بـ ين السبابة والإبهام. أقلبه. أرى بعجب، إلى فتحاته الخمس. أعرفه؟ لا. رأس بغيض. رأس بلا معنى. رأس صـ امت مثـ ل رؤوس الموتى. أدفعه بقرف، بعيدًا عنـ ي. أتـ ابع سـ قوطه العمـ ودي الواجف. سقوط الرجل الخائف. أركب الهواء بلا رأس. أرتفـ ع

حتى النافذة التي سقطت منها. كنت أريد أن أرى للمرة الأخيرة، غضون الجسد اللئيم الذي رماني. لم أقتنع، بعد، أنني لـ م أعـ د لائقا بالمكان. لم أكن قد توصلت، آنذاك إلى القناعـ ة الشـ ئيمة بأنني كنت أبحث عما/ عمن لن ألقاه. كنت لا أزال أحسـ ب أن لب الحياة هو الحب. وأن الحب سيرة سياسة ولم يتغيـ ر هـ ذا المنظور بعد فصل رأسي. كنت أبحث جاهدًا للوصول إلى حقيقة الأمر. لكن البحث لا يؤدي إلى كشف حقيقي: فمـ ا هـ و غيـ ر موجود لا ينتج وجودًا مستقلا عنه. معنى الحياة في الحياة نفسها إذن؟ ولكن ما هي الحياة؟ وفجأة رأيت رأسي يرتفع مسرعًا إلي ينادينـي: المعنى في الموت. موت الحياة هو معناهـ ا الحقيقـ ي؟ تساءلت بحدة. ومن جديد قذفت به إلى القاع. وظل معلقـ ا فـ ي الريح. كنت أراه يتطوح كالخيط المعلق بين غصنين: يهوي ولا يهوي. أي شيء يمكن للموت أن يعبر عنه غير الموت؟ الحيـ اة الفارغة هي نفسها مصدر الموت الفارغ (كما قيل قبل قليـ ل). وفجأة أفقت. لكأني نوديت فتحت عينـ ي. كنـ ت لا أزال فـ ي المقهى. قربي تجلس فتاة. متى جلست الفتاة وكيف لم ألحظهـ ا؟ فتاه مختلفة.

فكرت: لكأن الشبه يقتل الخصوص. سحبت الفتاة نظري منـ ي. كانت تجلس برفقة امرأة عجوز. أمها؟ لا أدري – كنت أراهـ ا

صفحا. كانت ترق تحت بصري حتى تزول. خدها أصـ فر، لا، لونه طحيني باهت. شعرها أسود، نصف طويل. فرقته من عند أذنها اليسرى، وأخذته يمينًا، أجمل ما فيها أذناه ا؟ لا. كاذ ت استطالة الوجه الغني تأسر العين. لم أستطع أن أسـ تعيد عين ي منها. ربما كان ذلك بفعل الشمس التي بزغت، عصر ذلك اليوم من بين الغيوم غيوم داكنة ومستديمة. غيوم كانت تسـ تقر ف ي سماء باريس منذ أحست هي بذلك. صارت تضحك للعجز جملة وتفصيلا. هكذا رأيت أسنانها القوية وفمها الكبير. فم يشبه أفواه الشام الظمأى. حاولت أن أرسم شكل رأسها في رأسي. قبل أن أفعل، رفعت شعرها الهاطل عن عنقها. كان أبـ يض، أصـ فر شمعيًا، عسليًا. عنق لو أحطته بين أصبعي، لطوقته بلا عنـ اء. عنق هيهات، يعلو جذعًا صغيرًا ملمومًا. جذع يلـ بس حريـ رًا رمادي اللون، ينزلق عليه بلا زوائد. ينزلق عليه كمـ ا ينزلـ ق الماء على الصخر. جذع أعبره، من الضفة إلى الضـ فة، لـ و وضعت نفسي فيه. امرأة من الشام؟ كنت أتسـ اءل. وقبـ ل أن يأخذني الفيض، جاء "أبوها". اللعنة! رجل يشبهني؟ لكأنه أنا بعد عشر سنين/ قبل عشر سنين. (هه. أي معني للـ زمن الـ ذي لا يحمل وعدًا؟) وفجأة قاموا. عبرت هي الشارع راكضة بـ دلال، ومشى "أبوها" هادئًا. كانت حركات أردافها الرجراجة المثيـ رة

تتعارض مع حركة الرجل الحالم. كنت أفكر: الشـ يخوخة هـ ي عجز الجسد عن الخلاص من مصيره وعجز الفكر عن تحقيـ ق أحلامه. وكأنها لم تغب إطلاقًا، لفحتني حرارة أنفاسها المتوترة:

– تتكلم وكأنك تعرف كل شيء. تهرف (تعرف) الحـ ال هـ ذه وتعرف تلك. منذ عرفتك وأنـ ت تعـ رف كـ ل مـ ا لا يعرفـ ه الآخرون. صرت أبكي كلما أسمعك تتكلم. هذا اليقين المرعـ ب كيف أصابك؟ أنظر إلي. هنا، في قلب عيني، أنظـ ر ألا تـ رى مقدار الخوف والشك؟ ألا تري الرعب؟ دعائم الحيـ اة لا تقـ وم على اليقين فحسب. لماذا تخاف "السقطة"؟ ومن سـ ماها هكـ ذا غيرك أنت؟ في الشام كنت تتضور جوعًا ولم تكن تشك. كنـ ت تلبس السمائل ولم تكن تشك. كنت تلتهب لمرأى الجسد العـ ابر ولم تكن تشك. كنت تعتقد أنك تغامر وأنت تسقط في بئر يقيناتك الآسن. كيف أشرح لك الأمر؟ وكيف أقويك. عيونـ ك، عيـ ون الشام اللاسعة، لم تكن ترى أبعد من الظلال؟ لم يكـ ن لخيالـ ك عيون؟

صمتت فجأة، كأنها لم تتكلم أبدًا وأنا أسـ معها، كنـ ت أخـ تلط ببعضي. كدت أدرك الفرق بين دور الكائن ومعناه. قبل اللحظة،

هذه كنت أحسب أن دور الشك هو أن يوصلنا إلى اليقين. لك ن صدمة الخيبة المفرطة في صوتها، أخرجتني عن مساري البليد. وبدت لي عزة النفس التي كنت أتفاخر بها، مثيرة للضحك: عزة نفس عزلاء. عزة النفس هي التحصن. التحصن بمنظور حركي للحياة وفيها، وبدا لي أن ذلك كله محتمل، وغير محتمل ك ذلك، وفي اللحظة التي كنت أنظر فيها شرزا إليها، كنت أفك ر:"دور الشك، إذن هو أن يخلصنا من اليقين". كدت أصرخ لكن قومتها المفاجئة لجمتني.

(١٠)

القمر يتلوى غائبا. لم أعد أميز من العالم سوى الدخان. النه ر وحده يلمع في البعيد. الأشجار، التي كانت طويلة، قب ل قلي ل بدت، قصيرة مدقوقة في القاع. كان نوع م ن الت وتر الخف ي يركبني. كنت أحسني هنا وأنا هناك. كيف يمكن للكائن أن ينقسم عميقا بمثل هذه السهولة؟

كنت، في تلك اللحظة، مثل عربة يجرها حصـ انان باتج اهين مختلفين. لأول مرة أدركت أن الحاضر الذي أعيشه ليس أق ل خرابا من ذلك الماضي البعيد. كدت أرى في فورة الاكتئ اب، تلك، يدها الصغيرة تمتد نحوي. تريد أن تلمس جزءًا مني. يـ د أحسستها مثل رأس الأفعى الملفوف. كان الليل يسرع الخط ى. ورأيت أوائل الظلام تلامس قمم الأشجار، أشجار غابة "بولونيا" القابعة في الحضن. كنت، وأنا أتطل ع م ن الط ابق الس ابع والعشرين نحو الأرض، أحس بسرتي على مستوى الش جر ذي المئة عام. كان نوع من الدواخ الخفي يربط بين رأس ي وب ين ذلك الشجر البليد أن يمنع ذلك الشعور من الانفجار. وقب ل أن تلامسني اليد الهوجاء، قمت أمشي وبلا مبالاة اقتحمت زج اج النافذة من جديد. لا، لم أعد أخشى ارتكاب الغلط ة، ولا حت ى

ارتكاب " الغلطة التي لا تعود". كنت قد بدأت أعرف أن الغلطة هي التي تقود. وقد أدركت (منذ متى؟) أن "الغلطة التي لا تعود هي الغلطة التي فات أوان تحقيقها من جديد". وبدأت أمشي فعلا. كان طين الأرض ينشمط مع قدمي. قلت أترك المكان، أركب الشجر وأروح. أروح إلى مكان يحبني فيه أصدقائي، ويكرهني فيه أعدائي. كانت الوحدة تأخذ بخناقي. كنت أحسني مقهورًا. كان خوف غامض يملأ كياني.

كنت أفكر: "لا تترك، أبدًا، مكانًا ليس لك فيه أصدقاء، إلا إذا أردت أن تتركه، فإنه المكان الوحيد الذي لن تعود إليه، مرة أخرى". وصرت ألوم نفسي: لِم أعسر الأمور وهي يسيرة؟ روعة الحياة مفهومة، ولطفها قريب، لكن الكآبة من أين تنبع؟ هل للكآبة علاقة بالقبح، وللقبح علاقة باليأس، ولليأس علاقة بالموت؟ كنت أحسني ضحية جهلي: ضحية معرفتي الناقصة. بلى، يلزم الإنسان معرفة واسعة لكي يعبر عن بعض ما يعرف. فالكائن البشري لم يتوصل، حتى الآن إلى الكيفية التي تمكنه من إيصال كل ما يعرف لا، إلى أحد غريب/ مستقل عنه، فحسب، بل حتى إلى نفسه، هو، بالذات. وأردت أن أبعدها عني. ولكن أية وسيلة أملك لإبعادها، وها هي ذي تمشي على الريح مثلي؟ تتخطى من شجرة إلى أخرى بمثل السهولة التي بها أتخطى.

ومثلي تنتظر إلى الجهات، كلها، وكأنها تبحث عني. تمشي ف ي صمت وانسحاب لكي تهجم بشكل أكثر جذرية. أعرف أهواءها. وأهدئ نفسي: كن حليمًا. ولكن أيمكن لمن هو غي ر عل يم أن يكون حليمًا؟ صرت أفهم أنها هي التي تتعم د إث ارة س وئي. وسوئي هو أسوأ ردود أفعالي. ما لم أفهمه هو أن أثار أنا بمثل هذه السهولة، ومن أجل أتفه الأسباب، وهذا هو بالدق ة معن ى "السقطة التاريخية": " أن يسقط الإنسان في حفرة لم يحفرها هو لنفسه".

مضى زمن طويل بين تلك اللحظة المفجع ة: لحظ ة الـ روح الأعمى وبين هذه اللحظة.أيام. أسابيع. أشهر. اليوم جئت م ن جديد. جلست في مكاني المعتاد، في مقهاي المفضل، في الوقت المناسب، كان الزجاج نظيفًا. الرؤية مكش وفة. ق دامي تمام ا يجلس رجل ربعة. أركانه مبنية. وفي مقابله، وقبل ي، تجل س امرأة، تجالسه، أحسست أني أنظرها. وفورًا، أخرجت مرآتها ا المستديرة، قلمها الصغير، وبدأت تسوي وجهها: شفتيها، عينيها، شعرها، شفتيها، من جديد، عينيها مرة أخرى. ابتعدت للحظ ة عنها، كنت أريد أن أراها مرتين. مرة قبل التس وية وأخ رى بعدها. أردت أن أعرف ماذا تغير الألوان في الوجه. وجه امرأة

أعرفه سلفا، أنني لن ألمسه، ولن أتحسس ثناياه. كنت أريد أن أتأكد من أن وجه الكائن المطلي "حجبة "، حجبة لن تستر ضحالة الوجود. وقبل أن أفعل قام. وقامت. قامت؟ سحبت خلفها وركيها بالأحرى. وركان هائلات لجسد شبه نحيل. وركان محشوان، حشوًا، في قماش من الجينز السميك. لكأنهما يحتميان به من العيون. الأوراك الدمشقية كانت حرة. تلعب بها الريح. تداعبها الشمس. أوراك تجرنا وراءها، وننجر. نتبعها من الريح إلى الريح. نرى نزيزها المرتبك الفضاح. تلمسنا قبل أن نلمسها. هي التي تستولي علينا، أولا. كانت أبواب النباتات الدمشقية العريقة، تحمي (الأخراب) من العيون. أبواب مصنوعة من خشب الجوز ومطعمة بفتات الهند والسند. أبواب ندفعها بهدوء، فتنفتح مثل أبواب الجنة المحرمة. خلفها نسقط الواحد على الآخر مثل الجلود المرفوعة على عود. كانت أعضاؤنا تنتشي. تكاد ترقص، لمرأى الأبواب، كنا نعرف أبواب دمشق، كلها، لم نكن نملك دارًا. كنا نملك أبواب كل الدور. نعرفها واحدًا واحدًا. نعرف خفاياها ومزاياها. لكل برهة من الوقت باب: باب الصبح وباب اللمج. باب الظهر وباب القهر. باب العصر وباب الخصر وباب الليل وباب الذيل. ولكل فصل حي: حي الربيع وحي الحفيف. كل شيء كان يسعدنا (حتى انعدام

الشيء ذاته) شرط أن نحصل على ما نريد. أين يمكن أن يخبئ الإنسان نفسه عندما يرغب أن يعطيها للآخر، الآخ ر يطلبه ا بإلحاح.

(١١)

كانت الساعة تقترب من الواحدة. وكان موعد العودة قد حـ ان. وحدي. أفتح الباب وأدخل. وحدي. أمر على المطبخ البـ ائس. وحدي. آخذ قطعة من الخبز الناشف، وبيضة سـ لقت صـ باحا، وعلبة من اللبن المحنط. وحدي. أخبار الساعة الواحدة ستبدأ بعد قليل. وحدي. وحدي، سأقابل جهاز البث الذي سئمت بثه منـ ذ زمان. وحدي كنت مصمما هذه المرة على أن أفهم كل شـ يء: أفهم القريب والبعيد. الممكن وغير الممكن. ماذا ينقصني لكـ ي أفهم ما أرغب "حتى الموت" بفهمه؟ وفجأة أرتبك. وكأني أسمع الصوت (الذي صرت أعرفه من بين أصوات البشر، جميعا):

-لا تحاول أن تفهم شيئا لقد فهمت، في الحقيقة، كل شيء. منـ ذ الآن عليك أن تكون فاعلا. وحدها الأشـ ياء الصـ غيرة تصـ نع الحياة الكبيرة. صمت. الأشـ ياء الصـ غيرة، وحـ دها؟ (رددت الصوت الذي اختفى من حيث جاء: صوتها الذي لا يحضـ ر إلا للتوبيخ). وصلت في الوقت المناسب، إذن؟ وقت أخبار السـ اعة الواحدة ظهرًا. وحدي. وصلت راكبًا على قدمي. غربة مخيفـ ة

كانت تستبد بي: غربة يلازمها فراغ قاتل للنفس. حتى رأسي، صرت أحسه غريبًا عني. غربة الرأس المرافقة لغربة الحال بدت لي نوعًا من الهبال. كنت أحسني في عالم ورأسي في عالم آخر. من قبل، كنت أحسب أنني أقوم بنقد ذاتي مستمر. نقد يطورني. وكان الشعور الدائم بتلك الغربة دليلي على مدى فعالية ذلك النقد. ولم تكن تلك الاضطرابات، في الحقيقة، إلا التماسات مغرية للذات لكي ترضى عن حالها. ومنذ أن أدركت ذلك غدا من المستحيل أن أستمر في لعبتي المزيفة، هذه، إنه الحصار المعمم، إذن: حصار الواقع وحصار المشهد. الساعة الواحدة، ودقائق. القناة الثانية تبث أخبارها المتواطئة بلا انقطاع. (التل) محاصر. محاصر من الجهات، جميعًا. من جهة الصديق. ومن جهة العدو. تل صغير في أقاصي الأرض. تل منفي على القاع، يحاصره العالم، كله. يحاصره بأسلحته ومعداته وتقنيته. يحاصره ليعلن على الملأ موته النهائي. الموت وصورته الآنية. صورة الفتك المخطط والمدروس.العدسة تقترب. تلاصق الجنة تدخل الجثة بعد الأخرى في نورها. تنزاح الجثة لتقع الأخرى في لقطة العدسة. الدم الأسود ينشف قبل أن ترطبه العدسات. (العالم الذي يلتهم لا يكف عن الأكل والشرب) من فوق التل يعلو الصوت. صوت القذف الذي لم

ينقطع منذ أخبار البارحة ظهرًا. الجثث المعروضة اليوم تكـ اد تكون هي نفسها جثث البارحة من أين تنبع تلال الجثث وثيابها؟ وهذه الرؤوس المكسرة كأحجار الجبل العتيق ويضيق بها الأفق ولا يضيق؟ بتردد أقرب الخبز اليابس. أرطبه باللبن المعـ ب. أقشر البيضة المسلوقة. أخلط هذا بذلك. أكاد أبلع. لكن الصورة تمنع. اليد تتوقف في الفضاء. تتوقف وتستدير نصف اسـ تدارة. الاستدارة النصف، المألوفة، نفسها، استدارة الساعة الواحدة، كل يوم كان المشهد يؤكد أن التل وصل الدرك الأسفل من المـ وت، والذروة الأقصى من العناد. لم يعد بإمكانه أن يموت أكثر مـ ن ذلك ولا أن يحيا أكثر من ذلك. كنت أحس أنني وصـ لت إلـ ى الحد الأدنى من الحرية والحد الأقصى من التنازل. كنـ ت قـ د بلغت عتبة التنازل الإنسانية الأعظم: لم يعد بإمكاني أن أتنـ ازل أكثر. كانت يدي لازالت معلقة. أمسكت بهـ ا، وأعـ دتها إلـ ى مكانها، قربي. ظلت يدي معلقة، رغم أنني أعدتها، فعلا، إلـ ى مكانها الطبيعي" المناسب". يدي تعاندني أتساءل بحماقـ ة. كـ ان رأسي، في الواقع، هو الذي ارتفع إلـ ى صـ ف الاضـ طرابات المعلنة، فجأة، تزاد العدسات عدسات جديدة. الصـ ور تتلاحـ ق مثل المطر المنهمر. صور الجثث التي فقدت للتو معناها. معنى أن تكون جثة هو أن تدفن، لا أن تعرض كمشهد فـ ي الفضـ اء

العام. لكن للتل الصـ غير المنفـ ي خصوصـ يته. خصوصـ ية "الصورة" التي صارت "مفهومًا فلسفيًا". الصورة التي تقنع العين قبل العقل بأن ما يحدث، قد حدث فعلا، وأن حدوثـ ه لا يتعلـ ق "بنا" أي أنه لا يحتاج إلى "قبول". وبالتالي، فليس لنا أن نرفضه، أو أن نتخذ منه موقفا منطقيا. هذا ما تطمح إليه" فلسفة الصورة" ومشتقاتها. مفهوم" لا نهائية القوة وهشاشة الضعف"، الذي كـ ان تقذفني به الصور المتلاحقة ومنذ أول الأخبار، وضعني فجأة في مأزق " العقل الذي ينزف". حركية الصور واختزالهـ ا للواقـ ع، حولا" الحدث المأساوي" (لا، فهذا لا يعبر بدقـ ة عـ ن الهـ ول العظيم) حولا "همجية التدمير" (لا، أيضا، فهذا ليس هو التعبيـ ر الملائم) حولا " تفتيت الإنسان للإنسان، وتذريره" (هـ ل نكتفـ ي بذلك؟) (لا، فهذا أيضا يعجز عن التعبير)، حولا هذا كله وذلك، وخصوصات أخرى كثيرة إلى "مشهد مقلـ ق" فحسـ ب. مشـ هد يهدف أساسا إلى بيان "ركودة الجسم" وقصوره، مقارنـ ة مـ ع "حركة" الصورة وزوالها. الصورة العابرة، التـ ي تسـ د مناف ذ العقل، وتفسد الروح، والتي تجعلنا نقف، في مكاننـ ا، نتف رج. الصورة التي تصنع من الفعل الإنساني الأشد بشـ اعة مجـ رد صورة بشعة. بتحويلها لفعل الكائن الشديد التعقيد (أقصد الفعل) إلى صورة له، أسست "حضارة الصـ ورة" المسـ طحة ثالوثهـ ا

الرهيب: حركية الصورة، سكون الجسد، بلادة العقل. وهو بـ ـلا شك وراء تشوه الفعاليات الإنسانية، كلها بما فيه ـا مـ ـا يسـ ـمى "الحروب الأهلية"، التي بدلا من أن تكون (تفجرا لكبت جماعي) "مبرر"، تحولت إلى حروب "مسخ" تثير الضحك والارتزاق. ولم تنقل لنا (وعنا) من التاريخ الإنساني العظيم (لا أقصد التـ ـاريخ الحربي، فحسب) إلا صورًا مبثوثة في ثنايـ ـا الكـ ـلام الهـ ـاذر والبليد. وبدلا من أن نواجه أنفسنا (أقصـ ـد الواقـ ـع والتـ ـاريخ) بعيون جريئة ومتحررة من مفهوم المنفعة والابتـ ـذال، أصـ ـبنا (بعصاب الكمال المرضي). وهذا العصـ ـاب (مقنعـ ـا كـ ـان أم مكشوفا)هو الذي يدفعنا (كما يدفع البغل المدرب على المسـ ـير بحمله حتى آخر الشوط) إلى الركـ ـون "التـ ـاريخي " بانتظـ ـار صورة جديدة أشد هيمنة وأبعد أثرًا.وهو نفسه، بلا ريب، وراء بحثنا المستمر عن " مزايا العيوب". وهو، لابـ ـد، (مـ ـن بـ ـين عصابات أخرى عديدة) وراء ركضنا الهوسـ ـي المـ ـتمكن منـ ـا (المتمكن بشكل لا انفكاك منه) خلف التبريـ ـرات (حتـ ـى ولـ ـو كانت زائفة. وهي دائما كذلك). تلك التبريرات العبثية التافهـ ـة والتي تكاد (لشدة تفاهتها، مهما كان مبررها)أن تضحك الموتى لا الأحياء المندمجين (برضاهم أو برغمه) في أدوارهـ ـم التـ ـي رسمت بعناية لهم. حضارة الصورة التي أواجه مدها الآن، ليس

لها منظور تاريخي، ولا ترتكز على رؤية فلسفية خاصة بها، وليس لها سند أخلاقي أو عاطفي، إنها، ببساطة ضرب من ضروب السلعة العابرة المنتشرة، حاليا فوق الأرض.
ولكن لماذا أظل أواجهها قاعدًا؟ لماذا؟ وفجأة،صرت أصرخ. كنت سعيدا وشقيًا معا. وكان ذلك الشعور المختلط ناجمًا (بالتأكيد) عن تلك " الوحدة الحادسة": وحدة الانفكاك المفاجئ الذي يعقبه وصل جديد. وصل له طعم الولوج في "جوف" مهيأ لذلك. وصل له طعم الانفكاك ورائحته. كنت أفكر، بلا انقطاع منذ بداية أخبار الواحدة، ظهرًا: "إن كنت لا تعرف إلى أين تروح، فلا تنس أبدًا من أين جئت".

كانت الصور تتعاقب دون انقطاع، كأنها في سباق. في سباق، مع الزمن، (فهذا في فضاء الصورة لا معنى له إطلاقا، لأنها "شيء" منجز سلفًا. منجز لا من حيث التكون فحسب، وإنما من حيث المفهوم، أيضا) بل مع نفسها هي. إنها بناء محكم الإغلاق. لا يفك ولا يطاق. بناء تنظره من خارج تسكنه وأنت لست فيه. فلسفة الصورة هي فلسفة القبول بما تصوره لك. القبول المطلق، باعتبارك لا تملك صورة أخرى تناطحها بها. فمن يريد أن يناطح يحتاج إلى قرون والقرون هي الحجة

والحجة هي العقل. والعقل ينقله اللسان. واللسان في الفم والف م مملوء صورا.

قهر جديد لا عهد لي به، ينضـ اف إل ى القهـ ورات القديمـ ة، "الكلاسيكية" ولكن، كلما ازداد القهر شدة، اتسـ ع العقـ ل ونمـ ا الوعي. كدت أفرح لهذا الاستنتاج البسيط، و(أكاد أقول الكاذب)، فمن تجربة حياتي المقهورة لم أشعر أبدًا بأن عقلي غـ دا أكثـ ر اتساعا. وأستطيع أن أؤكد أن وعيي لم يزل في حالة "الوعي – الوليد"، مع أنه يخدعني أحيانا وأكثر أشكال خداعـ ه لـ ي هـ و الإلحاح المفاجئ على أنني وعيت وكان الوعي يريد أن يثبـ ت لنفسه أنه وعي يعي فعلا، وليس هو مجرد اسم، وفجأة لم أعـ د أرى الصور السخيفة التي كانت تتلاحق بـ لا انقطـ اع. كنـ ت أكتشف، مذهولا، أن لكل شيء معنـ ى. وأن كـ ل مـ ا يحـ دث يستوجب التمعن فيه كفعل له دلالته التاريخية الخاصة به.لا، لم يعد الحياد ممكنًا، بعد الآن. بتصميم، قـ ذفت بالوجبـ ة البـ اردة البائسة، وجبة"مدينة النور" المظلمة. وأنـ ا أرمـ ي بعيـ دًا بهـ ا (الوجبة)، كانت إحساسات الشام القديمـ ة تدغدغني،إحساسـ ات لمس اللحم المشوي عند (أبو كمال). وملمس الخبز المحمـ ص الذي يوضع بأبهة أمامك وأنت تنظر في البعيد تنظر حيث تمر

ظباء دمشق اللحيمة. وقبل أن تمد يـ دك الخائفـ ـة إلـ ـى ذلـ ـك" الفضاء"، تحس بلهاثك ينبثق في العمق. لهاث الشهوة الهادئـ ـة، ولكن التي لا تثني عن الالتهام.وكدت أسمع فحيح اللهب الجواني المرافق لمثل هذه الاحتقانات. تأكل؟ أولا تأكل؟ تسأل نفسك، في اللحظة التي تسأل فيها. ولكن. كيف لك أن ترد وأذ ـت تلاحـ ـق الضياء الذي لا يكف عن المرور؟ وقبل أن يعود السائل الغريب ينتهي كل شيء وكأنه لم يكن، أبدًا. وتستدير بتمهل على جنباتها وأنت تداعب بالظواهر اللذيذة بيديك. ومن يديك إلـ ـى جـ ـذعك ينتقل النور: نور الشهوة المتجددة كالماء الدافق. قذفت ذلك، كله وقذفت نفسي في حذائي ومن السماء السابعة والعشرين هبطت. هبطت هادئا ثم ما لبثت أن أسرعت. أسـ ـرعت أكثـ ـر فـ ـأكثر، ولأول مرة، منذ دهور وجدتني أركض أركض، وأنا أتحسـ ـس الورقة في جيبي. الورقة المشقوقة. (ورقـ ـة العنـ ـوان). آخـ ـذ (المترو)، فورًا. وفورًا أصل. أصل بعد دقائق. وجهي مكفهـ ـر، أنفاسي تتلاحق مثل أنفاس عصفور أفلت من قفص لـ ـم يتعـ ـود عليه. أقف أمام الباب، كلي. أتمعن في السكون الغريب الذي لم أكن أتوقعه كنت أحسب أنني سأصل والجموع تتـ ـزاحم. أعيـ ـد النظر بالباب. الرقم نفسه، الباب مهترئ. شديد الاهتراء. المكان وسخ. شديد الوساخة، أتعجب: مكان قديم وباب وسخ إلى هـ ـذا

الحد وفي قلب باريس؟ ولكن لا أحد يسمع، كان الوقت ظهـ رًا ولم يكن في الجو عصافير. الصور المخيفة التي قذفت بي إلـ ى الأرض لم تقذف بأحد غيري؟ وإسراعي اللحـ وح فـ ي أنفـ اق المترو لم ينجز سوى الوهم؟ أتهيـ ب الـ دخول، أو لا أتهيـ ب؟ لا ولكن كيف ألج دون إنذار؟ وكيف أنذر من هو غير معني بأن ينذر؟ أدفع الباب بهدوء ينفتح الباب. ينفتح باعثًا صريرًا خفيفًـ ا ومزعجًا، في آن. خلف الباب، لا يوجد سوى الممر. ممر طويل معتم، وسخ، وبه عفونة رطبة. ممـ ر مـ ن ممـ رات (سـ وق ساروجة)، في عين باريس؟ أقف في الممـ ر، وحـ دي. أقـ ف؟ اشتاق بالأحرى. الشام مرة أخرى؟ بدهشـ ة، أتملـ ى السـ اقية الصغيرة النازلة من أعـ الي المكـ ان إلـ ى أواطئـ هـ. سـ اقية (المزة)القديمة؟ اللعنة. أقرأ اللوحة الوسخة على وجه المـ دخل الداخلي. بلى، هو المكان الذي أبحث عنه، أدخـ ل مـ ن جديـ د تستقبلني وجوه مرعوبة وجوه رجال أكـ اد أعـ رفهم. رجـ ال غاطسون في الخوف. كيف تتسرب الحياة لدى الكائن المذهول؟ ومن أي فتحة من فتحات الجسد وأخلاطه تسيل المادة الإنسانية في مثل هذه الحال؟ من قبل، كنت حريا أن أصرخ في العنـ ف. أصرخ وأنا أبكي. أصرخ وأنا أحكي.

كنت أتصور أن لي حقا طبيعيًا في أن يكون لـ ي موق ف. وأن أكون معنيا بالدفاع عنه. كان ذلك في بداية الاحتق ان. وش يئا فشيئًا. صار الشام معادلا للتوتر المفرغ من محتواه. صـ رت لا أصرخ حتى في النهار. لكن تلك الشحنة من الاسـ تياء ظلـ ت تلازمني. وهنا تحولت إلى شيء يشبه النزيف الخفي. صـ رت أحس بنفسي حرا إلا أنني لست في مجالي. حرية بلا محتـ وى كانت تملأ أركاني. حرية تكاد تكون عبثية. ما معنـ ى الحريـ ة التي لا تنجز فعلا؟ وهل يمكن للكائن أن ينجز مثل هذا الفعـ ل، وهو يحيا في وسط ليس هو أحد بناته؟ أوليس " الحرية" في هذا السياق، مجرد وهم نعيشه؟ ولكن لم ترانا نصر، مع ذلك علـ ى أن نعيشه؟ الآن القمع الذي عشناه فرغنا من الإحساس؟ أخرجني السؤال المباغت من دخيلتي:

– وي. انتري. (نعم.ادخل). وأدخل.

أمر بوجوه سمر، شاحبة. وجوه شباب طوال، في مقتبل العمر. تملؤهم كآبة بلا حدود ثيابهم رثة، لكنهم شـ مروا عمـ دًا عـ ن سواعدهم الهزيلة. كانوا ينتظرون الذي جئت من أجل الحصول عليه. كيف اشرح أمري في هذا الخبل الجماعي؟ حولهم كانـ ت تدور، بلا هدف واضح فتيات المكان الذي ولجته للتو. فتيـ ات

شقر سمان. أردافهن ممتلئة بشكل يثير القرف. بأيديهن أوراق شبه رسمية. عليها يسجل المتطوع اسمه وعنوانه وجنسيته ومهنته وأشياء أخرى. يسجل وهو يسأل. وأسمع ولا أسمع.

من أنت؟ لماذا أنت هنا؟ ومن أجل ماذا؟ ولم تريد أن تتطوع؟

ويتبع الأسئلة المنهجية بعض الشرح. شرح يكاد يكون متواطئاً ومخلا. المكان محاصر. نحن نعرف ذلك. يرددون. يردد الصوت اللين: لكننا لا نستطيع أن نعدكم بالوصول إلى هناك. خذونا إلى أقرب نقطة، إذن. لا نستطيع. نور العيون السمر ينطفئ. تركب الأجساد الجاثمة حركات شبه عصابية. لكن الصمت يسود للحظات طويلة. فجأة، يتحرك أحد الشباب الجالسين، يتحرك وهو يتذمر: نريد أن نموت. ودون أن يبالي أحد بما يقول، يتحرك الشاب الذي نذر نفسه للموت. يتحرك ولكن في مكانه. كانت الرغبة في الموت تتجلى، فعلا في قسماته لكن الموت وبالشكل الذي يطلبه فيه لم يكن ممكنا. لماذا؟ سأل الشاب بعدمية صرفة، عدمية تشبه إلى حد كبير عدمية البائس وتجيء الأجوبة التي لم يكن ينتظرها:

"لأنك عربي، ولأن الحصار حصار لتل عربي. ولأن المحاصرين عرب. ولأن أوراقك عربية. ولأن إقامتك، هنا إقامة عربي:"إن خرج لن يعود" ولأننا، في هذا المكان الفقير،

الذي لم ترعه بعد هيئة عربية غنية، لا نملك ثمن تذاكر سـ فر محتمل. نحن هنا من أجل أن نلفت الأنظار إلى " المأساة"، فقط".

وينظر الشاب الذي كاد يلتهب لسوء التفاهم التـ اريخي: سـ وء التفاهم العميق بين "المشهد" وبين " الفعل "، ينظر ساخطا إلـ ى الورقة الممدودة نحوه. وبدون أن يقول شيئا، يسأل. ولـ م يكـ ن الجواب، شيئًا آخر، غير الجواب الذي كان يعرفه، جيدًا: وقعوا، ضد الحصار، (وأرى الرجل المهمل في البئر. بئـ ر الأفـ اعي السامة رجل حبيس يريد أن ينجو بنفسه. شـ عره طـ ال. ثيابـ ه اهترأت. جلده امتلأ قروحا. رجل يحاول منذ سنين أن يتجـ اوز قدره ولكن كيف؟ أخيرًا يخرج من " المسقط". وأتابع، في البحر والغابات والبر هروبه المخيف على الشاشة، إلى أن يسقط مـ ن جديد بيد الثعبان الأعظم: السلطة التي هرب منهـ ا). وقبـ ل أن أخرج إلى الريح تشدني اليد السمينة:

"ميسو". "مسيو". (لم تتوقف، منذ أن أوقفتني عن الكـ لام). ولا أرد. لكن اليد التي تعلقت بي لم تتركني. تريد اليد أن تفهم. لكن الأيادي لا تفهم العيون. كيف أشرح لهـ ا الأمـ ر؟ إن تكلمـ ت، ربطني لساني. وإذا اضطربت وقعت في أسر اضـ طرابي،وهو

ما سيسهل لها الأمر، وبعفوية، أشرت إلـ ـى لسـ ـاني، (إشـ ـارة خرساء). وبتهيب فكت "رباطي":

فوزيت موبيت؟ (أنت أخرس) ولا أهز رأسي. "فوريت سورد؟" (أنت أطرش؟)، وأهزه. في الخارج، بدأت أتنشق مـ ـن جديـ ـد، بعض الهواء، بعض الهواء البليد. هواء باريس اللامبالية. كانت الشوارع، كالعادة، ممتلئة بالناس، ناس من كل الأجناس. نـ ـاس الشام القدامى كانوا واحدًا. كانت اللوعة ترى علـ ـى وجـ ـوههم المتهيبة. خوف غامض كان يلين قسماتهم. خوف يغري.
عندما تقع الفريسة فـ ـي الشـ ـباك: لا تـ ـؤلمني. لا تنهشـ ـني. لا تعصرني. لا تفعل بي. لا تعذبني. آه، هذه الـ ـ . (لا تعـ ـذبني) الصادقة في الخوف والارتباك. هذه الـ .(لا) العبثيـ ـة. تقـ ـول لا تعذبني والحياة كلها عذاب؟ لكنها لشدة، لشدة الوجـ ـد، لا تـ ـرى غير عذابها. في الخارج وجدتني أردد: أعود كما كنت؟ لا. علي أن أفعل شيئا ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ لا شيء؟ بلى أشـ ـياء كثيرة يمكن لي أن أفعلها.

بأيها أبدأ؟ بأبسط الأشياء وأسهلها: بي. كدت أضحك في ذلـ ـك النهار المقيت، أحد نهارات حصار(التل) الرهيب. كانت " مسألة

التوقيع، ومبدأ التطوع"لا يزالان ينهشان أطراف نفسي. كنت أدرك بهدوء مدى العبث في أن يتطوع المرء، من تلقاء نفسه، للمساهمة في حدث لم يكن طرفا فيه. وبخاصة عندما لا تعبر هذه المساهمة إلا عن استلاب غامض. عندما لا تكون "فعلا واعيًا". كنت، في الحقيقة، في مأزق، وأردت أن أخلص منه بمأزق آخر. الذين أغرونا بالخلاص الوهمي كانوا هم أيضا في مأزقهم الخاص، وإن حاولوا الخلاص منه بجرنا، نحن، إلى مأزق جديد. كنت أفكر: من أجل لا شيء أضعت كل شيء. أضعت الواقع وصورته. أضعت الـ (هنا) والـ (هناك). لكن الأمور لم تكن واضحة إلى هذا الحد. وأحسست بي كائنا متحجرًا، كائنًا لا دواء له، بعد الآن. كان نوع من الصراع الخفي يدور في نفسي بين ما أفكر فيه وما أعبر عنه. وأحيانا كثيرة لم أكن قادرًا على التعرف حتى على (أنا). كنت كالأنبوب المثقوب من طرفيه. (وأضحكني التشبيه. فالكائن الإنساني، في الحقيقة ليس شيئا آخر غير أنبوب مثقوب الطرفين).

أردت أن أعبر عما يجري في أعماقي بعبارات ملائمة، لكن القصور كان أعمق مما أتصور. كنت أستعرض، بلا توقف، أساطيلي من الكلام، من الجمل الجاهزة، من صفات الخلق، من "المنظومة" المحمولة فوق "نفسي" منذ وعيت، دون أن أجد فيها

شيئا صالحا للاستعمال. كان نوع من الاهتراء العميق يحل ف ي كل شيء: مثلما نشيخ تشيخ العواطف. وتشيخ أيضا، وهو أسوأ ما في الأمر، الكلمات.

(١٢)

كدت أبتهج وكأنني ألج المدينة، للتو(حين دخل ت فج أة ذل ك المقهى الصغير) ألج مدينة لا أعرفها، من قبل ف ي م واجهتي تجلس امرأة وبنت. شفة البنت معلقة بأنفها: شفة البنت اللاصقة بأمها كالفطر اللاطئ تحت شجر كبير. ش فة تش رب الش اي ولا تبتل. وحدها، الشفة السفلي تمتلئ سائلا ساخنا. العليا تنظر إليها تنظر في الأسفل ولا ترتوي. ترتفع السفلى إليها. تمس ها. أرى لمعان السائل الساخن ينبسط فوق انحنائه ا القرم زي: آه شفة البنية اللاطئة تحت الأم، الشفة التي يلحسها اللسان.

رأت الأم عيوني؟ فجأة خطفت بنتها وقامت. من جديد بقي ت وحدي. استدرت نصف استدارة، صارت الشمس ف ي عين ي. ملأني ضياؤها الباهر بظلمة عتية. ظلمة دفعتني، فورًا، إلى فتح عيوني. كان المقهى، بعد، ممتلئا بالناس. ناس لم تكن البنية – الفطر بينهم. وبلامبالاة فتحت كتابي وبدأت أقرأ.

(بدون شك، فإن عالمنا الراهن يفضل الصورة على الشيء والنسخة على الأصل، والتمثيل على الواقع والمظهر على الوجود المقدس بالنسبة له ليس إلا الوهم. وما هو عرضي، وعابر ليس إلا الحقيقة. وأسوأ من ذلك، إن المقدس يكبر في عيونه بقدر ما تتضاءل الحقيقة ويتضخم الوهم).

(١٣)

نافذة الطابق السابع والعشرين مشلولة. مشلولة بظ ـلام الك ـون الذي أخذ يرقى إلى أعلى. ظلام يجيء بلا توق ـف، منـ ـذ أول المساء. عجبا، لم لا يتوقف الظلام في منتصف الطريق؟ كن ـت لا أزال ألتصق بزجاج النافذة البليد. أنتظ ـر، بف ـارغ الصـ ـبر، مرور سفن السواح المجللة بالأضواء. أضواء تنتشر فوق سطح " السين" الهادي: نهر من النفايات الكيمياوية، فق ـد فيـ ـه المـ ـاء خصائص حركته اللاعبة. الحركة الهوجاء، أحيانً ـا، والخواف ـة أحيانًا أخرى. لكأن الماء صار، هو الآخر "شيئًا" مربوطا إلـ ـى حواف النهر. كنت أكتشف، بمرارة أن الحيـ ـاة الفارغـ ـة التـ ـي أعيشها هي حقًا حياتي. وهي حياتي الوحيدة. وأنني لن أعرف، بعدها، حياة أخرى. ومع ذلك، فإن الانتقال من هناك إلـ ـى هنـ ـا ضأل إحساسي بأهميتها، بـ ـدلا مـ ـن أن يضـ ـخمه. وأغرانـ ـي. بالاعتدال بدلا من أن يدفعني إلى التطرف. أعيش وكأنني محاط بغلاف عازل شفاف. أرى العالم ويراني دون أن أتفاعل معـ ـه، أو يهتم هو بي. صرت وكأنني" أسبح في بحر مياهه مرسـ ـومة على الورق لا بللا ولا غرقا".

وخطر لي أنني إن بقيت في هذه النقطة فسأغطس، لا محال ة، في ذاتي المحدودة. ذاتي التي غدت باردة كالخبز البائت. كن ت أتضور شوقًا إلى ملاقاة اليم. لكن الظلمة اللعينة جعلت ش وفي محدودًا. ظلمة " باريس اللامتناهية. وكأنها لم تت رك فض ائي، أبدًا، هبت. فرحت: " ستقول، هذه المرة، ش يئًا لطيفً ا". لك ن حركاتها المتناقضة كانت توحي بأنها تريد أن "تقاتل" ولم أستدر. كنت أرى من الخلف كل ما يمكن أن يجيء من أمام. فلم أع د أتوقع من حياتي المبتذلة لا إرهاقًا ولا معجزة.

كنت أقف على حافة الوهم. الوهم الذي صار،لأول مرة، وهم ا حقًا. كنت قد استنفذت، كما كنت أتصور، ذلك المساء العاصف الذي سينتهي بموتي، (بموتي مقذوفًا من الشباك) ك ل أس اليب "الحيلة على النفس" تلك الأساليب الهمجية الوهامة التي جعلتن ي أعتنق الطيش. كان قد مضي على وجودي، هنا، م ا يق ارب العشرين عامًا. وكنت قد قررت، هذا المساء، أيضا، أن أت ابع بحثي المستمر عنها. أن أتفرس في الوجوه المارة (مث ل م ن يبحث عن مفقود): وجوه الأمكنة المختلفة أبحث عن وجه سلب مني، وانسلبت به؟ لا، في الحقيقة، لم أكن " أبحث عن..." كنت أتمعن في الوجوه المحيطة بي كمن يرج و أن يلتق ي بش يء

أضاعه. أضاعه، ولن يلقاه لكن تلك لِم هي تلك حالتي، أيضـ ـا. كنت أتأكد، أكثر فأكثر، عبر تحديقي المدقق، أن العالم مختلف، لا مؤتلف. وأن علي، في النهاية أن أخرج من مستوى الكـ ـذب، والزيف إلى فضاء المواجهة والتماسـ ـك. كنـ ـت لا أزال فـ ـي المقهى، وكان الكلب الذي لم يكف، منذ جلوسي، عن الـ ـدوران بين رواده ينظرني. ينظرني الكلب بعجب" كلب سمين آمـ ـن لا جاع ولا هرب". أدع الكلب ينظرني مشغوفًا، وأنظر غيره. في الخارج، عند " بائعة الكريب" تقف الشقراء: طويلـ ـة، نحيفـ ـة، متناسقة شعرها نصف طويل– نصف قصير – تبدو مغرية، من الخلف، هي واقفة، وأنا قاعد. كيف لا أميز بنية جسد ينتصـ ـب؟ آه، اختفت قبل أن أتم رؤيتها. أعود إلى الداخل، حيـ ـث الـ ـناس مقيمون. مثلي. جارتي المباشرة سمراء، نصف عمـ ـر، أخمـ ـن ذلك من انحناءة ظهرها. شعرها أسود" صباغة"، يزينه مشط من ذهب مزيف. بأذنيها قرطان من اللؤلؤ الخـ ـام. رائحـ ـة ثيابهـ ـا توحي بالإنهاك: رائحة امرأة لم تعد تنتظر شيئًا من الحياة؟.

سعلت بشدة، وبشكل مزعج، وأنا أحدق في وجه الرجل الـ ـذي يجالسها. أردت أن تدير وجهها إلي. كنت أريد أن أرى عينيهـ ـا وشفتيها، وبخاصة أنفها. لم تستدر. كنت أعرف أنها كانت تنظر

في عينيه. تبحث فيهما عن رأيي فيها. كنت أعرف ذلـ ـك مـ ـن الاختلاجات المفاجئة التي بدأت تصعد ظهرهـ ـا، منطلقـ ـة مـ ـن إليتها. من جديد، حدقت (لكن بعدائية ظاهرة هذه المرة) في وجه الرجل الجامد. وجه " التمثال الحي". الوجه الذي لم تعبره رغبة منذ أعوام، وربما، منذ عقود. ولابد أنها رأت في عينيه بريقًـ ـا معاديًا (بريقا شديد العدائية) لي. إذ تصنعت، بعد لحظة، حركة غير معلنة، جعلتها تراني: أنف مبتذل شديد التناسق. فم مسطح بلا شخصية. وجه متنكر بعناية: وجه يسجن إحساسـ ـاته خلـ ـف أصباغه المتراكمة.

أدرت وجهي، حانقًا: جسد بلا وجه، جسد بلا ذاكرة. لا، ليست هي المرأة التي أبحث عنها.

كان نوع من النفور المباغت يستولي علي. كنت أفكر، متكدرًا: أن تكذب ليس هو ألا تقول الحقيقة ولكن أن تناقض تصـ ـرفاتك أمنياتك الحقيقية. " هيا بنا نذهب، هيا". كنت أحث نفسـ ـي وأنـ ـا أقترب. واقتربت أكثر. وهجمت من قريب علي: أكسر الشباك، واطلع. لم أرد. كنت أريد فعلا أن أكسر الشباك. وكسرته. كنت

أريد أن أرى دون حواجز. أن أقارب، أكثر ما يمكن، الأشـ ياء التي لم تتوقف عن التمازج والاختلاط.

كانت اللعبة تغدو لعبة سمجة للغاية. كانت تملؤني الرغبة في أن أحكي. ولأول مرة، رأيت أن الكلام هو الآخر، سلاح. سـ لاح فتاك. ولأنه كذلك، كان علي أن أحسن استعماله بعد الآن. كنت قد بدأت أقترب من التكاثف، وأبتعد أكثر ما يمكن عن الميعان، عن ذلك الخليط الهلامي، الخليط الغبي الذي كان يـ دور مثـ ل النحول في رأسي. ولفرحتي صرت أريد أن ألمس ذلك الشعور الجديد، ذلك الدفق الكثيف الذي يفتت" خليطنا" كله ويقلب كمـ ه إلى نوع. ولكن كيف؟ كيف وهي تلبد ورائي كالأفعى؟ ووجدتني أكرر نفسي. أكررها ببلادة لا تطاق. وهل تتكرر" نفس" إن لـ م تكن نفسا خاوية؟ أوليس "التكرار"، فـ ي النهايـ ة نوعً ا مـ ن الاجترار؟ بلي. ألا تكرر، إذن، وألا تتكرر هو وحـ ده الفـ رادة البشرية. ومتى كان التماثل ميزة؟ كنت لا أزال أكرر آمرا نفسي "هيا بنا نمشي هيا". وفورًا أمشي. أغمض عيني وأمشي وحيدًا، بين المتحف والجامعة. القيظ لاهب. الشوارع خاليـ ة. تحـ رس الكون، آنذاك، شمس تمنع كل شيء: تمنع الحركة كمـ ا تمنـ ع السكون. شمس تضع الوهج في أعماق الجسد الذي بدأ يلتهـ ب.

كان النور الحراق الذي يغذي الضغينة هو الذي أحاط بي م ن كل نحو. كنت وحيدًا، حقا. إلا أنني كنت بالأخص، لا شيء. لا شيء آخر سوى قدمين تذرعان شوارع دمشق من الصباح إلى المساء. علام كنت أبحث؟ كان معنى "الوقت" يتجسد في "اللقوة". واللقوة، دائما، ام رأة. ام رأة م ن...(كذ ت أمش ي وأذ ا أتمتم) :"أبحث عن امرأة، نارية العينين والشفاه، والجسد./ امرأة مهتوكة السترين، في الهوا معلمة/ ترود من مجاهلي ما لم يرد"

كانت الشمس تمنع الانسحاب، الانسحاب نحو النفس الظم أى. تدفع بالعين إلى الأرض خشية السقوط. السقوط م ن العط ش والجوع والرغبة. الرغبة في الالتهام. التهام أي شيء، حتى ولو كان عضوا من أعضائي. وفجأة، كانت أمامي. ولم يك ن ثم ة ملجأ. الثوب أصفر لصاق الأرداف تهتز بذهول كذهول من ل م ينم منذ قرون، أو ذهول من يريد أن يمسك أرنبا جاثمًا أمام ه. ومتحفزًا، مع ذلك، لهرب جديد. أرداف كدت أمسك بها ب لا استئذان. لكنها ظلت تمش ي. لكأنها ا ل م ترن ي. آه! أرداف المشغولة عني بمشيها الهادئ (العالم، كله، ملك ردفيها).

نظرت إلي؟ نظرت إليها؟ من بدأ النظر إلى الآخر؟ كان بـ ـاب المتحف مغلقا. ولم يكن ثمة ملجأ. أمشـ ـي.. أغمـ ـض عينـ ـي وأمشي. أحبس الوهج المتسلط. أضـ ـعه داخـ ـل العـ ـين. أمنـ ـع الأصابع من الاضطراب. كانت المشية، وحـ ـدها، متعـ ـة مـ ـن لا يعرف كيف " يقضي". رفعت إلى الشمس، رأسي: لا أحد في الكون غيري. "التكية السليمانية" وحدها في الوجـ ـه. حيطانهـ ـا بيض وسود. يتعاقب لوناها بشكل أفقـ ـي ومتناسـ ـق، وجميـ ـل. حيطان توحي بالخلوة.

الرغبة تشع من الجسد. لا، لم يكن ثمة في المكان أحد. أبـ ـواب التكية نصف مغلقة، نصف مفتوحة. لمن كانـ ـت العتمـ ـة تفـ ـتح أبوابها؟ كانت لا تزال تتلوى، وكنت لا أزال أغمـ ـض عينـ ـي. أحبس النور فيهما. أيده. باب التكية الهائل يئن عند دفعه. عنـ ـد دفعه بحنان: لا توقظ النيام يا غلام. تبتعد ضفتاه بكسل. تنفتحان بهدوء. تنفرجان وتنغلقان كفخدين يضمان، بحرص شديد، لذتهما الفائقة. يقترب الثوب الأصفر حذرًا. يكاد يفـ ـوت، ولا يفـ ـوت. عبر الجسد العريض الذي صـ ـار الآن، طـ ـويلا، أري تكـ ـوين الساحة، وخلاياها. أرى ظلال الأشجار الألفية وأغصانها. أحس بنعومة الفيء وغنيمته. لكأني ولدت في هذا المكان. وأكاد أزت

نفسي عليه. لكن سرعة العطب المتجسدة فيه تهدئني. تجعلن ي أنظر النحو بعين أليفة: لا غاضبة، ولا هاجمة. ويرقق الجس د الأصفر المتهيب، نفسه: ادخلي. ادخلي أرج وك وي دخل. ولا يدخل. كانت الضفة الأخرى تحجز الذوبان. وف ورًا، تفرجه ا بيديها. تفرج اللصاقات اللزجة المتمددة على " الخابور" وأح س بنعومة الطين الثاقب. وبلا تردد، أدخل الجسد الذي بدأ يندخل. كانت ضفتا الباب تفترقان وتلتقيان كجفني نائم يفيق ولا يفيق. لم يبق من الجسد سوى الثوب. الثوب الذي غطى بشعاعه المكان. كان الغمام ينجلي. وأخيرًا، يفوز الضوء المنبعث م ن القم ر البعيد بالوصول. بالوصول إلى حافة النافذة المعلقة ف ي س ماء باريس. النافذة التي فقدت، إلى الأبد نفوذه ا. نافـ ذة الس كون الهابط من أعالي الروح. كنت أفكر: يجب أخذ كل شيء مأخ ذ الجد، وإلا هلكنا. لا، ليس ثمة شيء نافل ف ي الحي اة. حت ى الذكريات لها مجرياتها وتصورها الخاص للتاريخ. وكنت أري د أن أرى الأمور في أكثر حالاتها تطرفا وسوءًا. كن ت لا أزال أتجول بين الرغبة الممنوعة والفعل غير المرغوب فيه. كان ت وحدات الرغبة الصغرى هي المسيطرة على الانتظ ار. كن ت أحس أن العالم متواطئ ضدي.

لست أدري كيف نبعث في اللحظة المشئومة، اللحظة التي كدت أقارب فيها الانهيار. صرت لا أسمع إلا صوتها، المخيف، يردد في صدغي:

–العالم؟ ألا تزال تتشدق به؟ ألم تقتنع، بعد، أن العـ ـالم، لا هـ و هناك، ولا هو هنا، وإنما هو أنت؟

لا، لم أكن أسمع شيئا. كانت الرغبة في التكور فوق جسد ممدود تملأ نفسي. عاشت الرغبة المكتومة سنوات، وعندما تحققت لـ م تكن هي " الرغبة " المشتهاة، نفسها. لماذا تتغير الرغبة؟ وكيف يتغير الجسد الذي يبذُلُها؟ رغبة أخرى تسدل عليها الستار؟ تذليل الرغبة؟ تظليلها؟ تضليلها؟

–سيد المضللين يضلل؟ هجمت من لصق الحائط الشمالي، عليّ هجمت تحكي. تحكي من أجلي، كما كانت تقول. لكن هذه (المن أجلي) صارت تخيفني. صرت أعرف إلى أين تـ ؤدي طـ رق الكلام ولدغاته كانت تملؤني رغبة عنيفة لإسكانها(ولم أفعـ ل). كنت أعرف أن الكلام كماء بحر الصيف: مالح وساخن. نسـ بح

فيه مأخوذين، ولا نشربه. ماذا يلجم اللسان في هذه الأحـ وال؟ لماذا نكتف أيدينا–ألسنتنا حتى الغرق؟

كان القمر يختفي من جديد. قمر باريس اللعين. القمـ ر البـ ارد والبعيد. القمر الغيمي الذي يرقى سماء لا لون لها، ولا أبعـ اد. سماء بلا لون لا يمكن لها أن تحمل قمرًا جميلا. كانت تحكـ ي. (ولم أكن أسمع.) كنت أردد بصوت عال: لا تسـ مح لأحـ د أن يقتحم عالمك الحميم بسهولة، ولا أن يقول لك ما تحب عمـ ن لا تحب. فسيأتي يوم يقول لك فيه ما لا تحب عمن تحب.

(١٤)

رنين. رنين معدني صديء وقاس. رنين ضد حكتها المتوترة المتقطعة. الرنين المزعوم الذي أعرفه جيدًا، حل فجأة في المكان. رنين مشئوم، بقدر ما هو ليس في محله. من أين يجيئها ذلك الضحك الخبيث؟ ومن أين ينطلق صوتها؟وما هو مصدره: داخلي، خارجي، مختلط، هو الآخر؟ صوت مزيج من الشبق واللوعة والحسر. تضحك بلا سبب. ولا تضحك لكل الأسباب. شيء غريب (إشارة تعجب) تريد أن أجيبها. وعن أي شيء عن علاقة في طور الموت؟ علاقة محكومة بعلاقات عديدة هي الأخرى بدأت تموت وتريدني أن أجيب؟ لا، يكفي لم يعد يهمني أن ينزغ وجه العراف في وجهي. ولا أن يلبسني لسان الشراح. تبجح "الذي يعرف كل شيء " القديم حل محله تهيب، هذا المساء، تهيب واثق لا يمازجه شك. وأخرج متجهًا إلى المرآة. " عشرة أعوام طويلة مرت. عشرة أعوام طويلة" كنت أردد، وأنا أطالع وجهي الجديد: وجه من، هذا الوجه العبء؟ أنظره ولا أعرفه. وجه من ركام. ركام من الخيبة والهيبة والارتداد. أبحث في الوجه الساقط في المرآة عن وجه قديم،

وجه لم يكن يعرف غير لوعة واحدة هي لوعة الجـ وع. هـ ذه اللوعات المتراكم بضعها فوق بعض من أين تسللت إلـ ى هـ ذا الوجه؟ يريدني أن أجيب:"اسمك"؟ ولم أكن أعرف لي اسمًا بعد. ولا يصدق. ومن جديد يشدني إلـ ى الحبـ ل المشـ دود: " اسـ م أبيك،إذن". ولا أجيب. وفي لساني الداخل يتراكم الكلام. اسـ مي واسم أبي واسم المكان الذي منه خرجت. ومن جديد يهزني كما تهزني العاصفة: "سأذكر اسمك واسم أبيك واسم المكـ ان الـ ذي خرجت منه، يكفي أن تهز رأسك بالإيجاب". ولا أجيب. فجـ أة أصير جبلا. جبلا تتحكك به الرياح ولا تزعجه. ولم يكف عـ ن السؤال. ولم أكف عن عدم الإيجاب. وتكاد تسألني مـ ن جديـ د ولا تفعل. أدركت فجأة انغلاق الدائرة المحكم. ومن الدائرة يولد المستحيل. لا، لم يعد بفخفخة ألفاظها. ولا معطيات جديدة أسابق السامع إلى سماعها. كنت قد وصلت إلى الحافة، حافة الـ تملص من... ولم أرد أن أكمل الجملة. قالت وهي ترتج غاضبة:

– كالعادة ليس عندك ما تقوله سوى الصمت.

أردت أن أقول لها لم يبق عندي سوى الاستياء، الاستياء منـ ي ومنك ومن كل شيء. إلا أنها ابتعدت هازئة، من جديد. وفجأة، تلألأ النهر. تلألأ تحت تأثير أضواء السفن الغبية ذات الأذـ وار الكشافة، التي لا تني تدور في محيطهـ ا وتـ دور. وانعكسـ ت

أضواؤها الباهرة على الجدران. وفي البعيد بدت واجهات الأبنية فضية لامعة (ولا أحد يقف في الضوء) هذه المرة، أيضا، كنت وحيدا. لم يكن في مواجهتي سوى الزجاج البارد: زجاج النافذة العالية الذي سأكسره بعد قليل. كنت أحسب أن نوعًا من سـ وء التفاهم يفصل بيننا. كانت تلقي بأحسن ما عندها إلي، وكنت ألقي بأسوأ ما عندي. كنت ألتهب، وكانت صامتة. لماذا يجرنا هـ ذا الزمن الصغير البائس إلى ذلك الزمن الكبير؟ وهزتني ضحكتها الغاشمة:

-"زمن التلاؤم إلى حد الموت": موتي أنا، أضافت بامتعاض.

ولم أتردد. كنت أتابع الطريق بانشراح."احذر المنعطفات" كانت تتعاقب باستمرار. وأحيانا "صل متأخرًا خيرا من ألا تصل أبدا." كانت المسافة التي تلي " دمشق" غربًا تأخذ الأبصار. الشـ مس تحاول الغروب ولا تصل. أشعتها الصفر التـ ي كانـ ت تشـ عل شجر" الغوطة" لم تعد ترضي أن تفك النار عنه. ونسيم الغروب الذائب بتأثيرها ظل مخلصا لامتزاجه بها. " الشمس لـ ن تـ ولي الأدبار" كنت أردد، مستاء، في أعماقي. كنت أنتظر الظلمة لأبدأ

الاقتراب. لِم كنت أنتظرها؟ كان بإمكـ ـاني أن أتخـ ـل الجسـ ـد الصغير المرمي على الحافة لصقي، فورًا.

–كنت أعرف أنك جبان. قالت دون أن تحرك شفاهها المتورمة من الغيظ.

وألاحق الأشعة الغاربة، كالمجنون. أسوقها بعصاي سوقا. أريد أن ألمها في الحال. أضعها في العين الحاميـ ـة لتصـ ـبح الـ ـدنيا ظلامًا. كان تفتحي الغريزي ينتعش في الظلام. ولم أكن أدرك، بعد، متعة النظر وسلطة إغوائه. لم أكن غِـ ـرًا، فحسـ ـب، بـ ـل مغررًا بي، أيضا. وأسمع، لصقي، القهقهة المكتومـ ـة اللافتـ ـة للبصر، ولا أقترب. كان للنور عيون. وكنت أحسب أن الضوء يسمع. كنت أخاف أن يشاركني النور متعتي. كانت يدي تتفلـ ـت للاقتراب منها. لدخول حوضها الملاصق لي. وكنت أرى، فـ ـي البعيد، فلول أشعة الشمس التي كنت أطردها توالي الانـ ـدحار. كانت سجف الظلام ترتفع حولنا. وكنت أردد، بأجزائي كلهـ ـا" والليل إذا عسعس". وأحس الضحيكات المكتومة تتحول إلى نفس عميق. نفس يبدأ ولا ينتهي. وأكاد أسند الجسد الصغير الذي بدأ يغيب. كان الظلام يلتف حولنا. والطريق الأعمى ذو الحـ ـواف

المهدمة يرقى الجبل عاليًا ليلتف حول الشام. والتفت اليد على اليد. واقتربت القدم من القدم. وحس الفخذ الفخذ. وتساوت السرتان. كان الفضاء بين الجسدين ينكمش واكتشفت أن جسدي كله، أبصار وأنامل. كانت عيناي مغمضتان وكنت أرى كل شيء في تكوينها كنت أراه منورًا وكأن الأشعة التي اختفت منذ قليل ولجته. وفجأة، ساد الصمت، صمت ثقيل كالرصاص. كنت أعرف ذلك الصمت اللعين الذي يسبق عادة غثيانها الذي سيندفع، هائجًا، كالسيل.

-لا تلمسني

أخيرًا تكلمت؟ حسبتك مت.

ضحكة صغيرة جديدة، وانتعاش خفي يملأ الكيان. لماذا أدور منذ ساعات حول الشام؟ رأيته من أسفل، ورأيته من أعلى، وأريد أن أراه الآن من الأجناب. في قمة الجبل المهيب توقفنا. ولم أعاود النظر إليها. كانت الرائحة الطازجة تملأ المكان. رائحة القيء الممزوج برائحة اللبن المخاط.

كانت أنوار دمشق تصعد الجبل المعتم لتصل إلينا. وكانت أعضاؤنا قد ارتدت كل إلى مكانه. لماذا لا نتبادل الأعضاء

والأنحاء؟ كدت أتساءل. لكن جلال المنظ ر وبح ة الص وت القريب أخذاني. كنت قد بدأت أحس برغبتي المفاجئ ة ف ي أن أصير قطعة من الجبل الذي كنت أركبه.

–لماذا؟ سألتني باستغراب.

–لأظل أرى الشام من عل.

–امش.امرتني، فجأة، وكأن شيئا ما تغير.

–لماذا أنت خائفة إلى هذا الحد؟

كان" قاسيون" يحمينا من الظهر، وفي البعيد يمتد الظلام حت ى رُبى" حوران". وكأنني قد تركت الجبهة للتو، أحسست من جديد برغبة عنيفة لأخذها بين يدي وقدمي. كانت الشمس اللاذعة قد أمدتني بعنفوان خفي، وطاقة للاشتباك لا تنضب. كنت م ا إن أقوم حتى أقعد. ويكفيني القليل من الوقت للانتصاب" من جديد". لكن الرعب الكاذب الذي استولى عليها، فجأة، ض للني، ه ذه المرة. وبدأنا الهبوط.

هبوط صامت. كان الطريق الجبلي الضيق يتلوى منحدرًا حت ى الأرض.

–بماذا تفكرين؟

-لا أفكر بشيء.
-إلى هنا، تمامًا، كان علي أن أعود.

-هذه هي المرة الألف التي عدت فيها إلى هذه النقطة، ولم يجد ذلك نفعًا.وفجأة أزت الصفارة. صفارة الإنذار اللعينة، صفارة الموت. وانطلقنا، مثل العصافير المرعوبة راكضين. أذت تشدينني. وأنا أشدك. ومعا نشد بعضنا بعضا. كنا في الحد الأدنى من الحياة.
-لكن هذا لن يغير في الأمر شيئًا. قلتِ مستهزئة بي.

لم أكن أريد إيذاءها. كنت أريد أن أهدم ما بنيته خلال عشرين عامًا. ولم تكن تدرك ذلك بعد. كيف أشرح لها الأمر؟ هي هنا الآن، وأنا هناك نوع من سوء التفاهم التاريخي يفصل بيننا. سوء تفاهم لا يزيله إلا تفاهم جذري مع الذات. كدت أصحح العبارة، سريعًا:"إلا فهم نقدي لها". لكنها أخذتني بتدخلها الذي لم أكن أتوقعه:

--التطور الإنساني يبدأ، دائما، من بداية ويتجه، دوما، إلى نهاية إلا تطورك أنت، فإنه يعود إلى الخلف. إلى نقاط بدايته

المشئومة، وما ذنبي إن كنت ولدت محروما من كل شيء، حتى من سروال صغير تلبسه. ألا تريد أن تفهم أن سوء التفاهم الذي تحكي باستمرار عنه لن يزول إلا عندما تتعلم "كيف تتكلم بوضوح". وسأصر على ألا أفهم طالما ظلت في منطق غموضك المصطنع.

ولم تدعني أبصق الجملة التي ملأت فمي "عندما ألتقي بمن هو بحاجة لأن يفهم، فسيفهم، فورًا" لأنها أضافت بحدة آسرة:
–في غياب الأفضل، عليك ألا تبحث إلا عن الأفضل. ألم تقنع بعد؟

لم يكن لدي هذه المرة أيضا، ما أقوله. كنت أعرف أنني ضحية (القلل الثلاث): قلة الصبر، وقلة الحيلة، وقلة المال.

صمت. (كنت أفكر، وأقرر):"علينا أن نعترف كيف ننهزم. الهزيمة، هي الأخرى، فن أساسي في الحياة". كان نوع من الخوف السائل يجري في عروقي ولم يخرج صوتي. صرت أحس أنني أقرب إلى نفسي عندما أتكلم صامتا. وفجأة بدأت تصول وتجول. لكأنها أصبحت مستعدة لعراك كانت تتوقعه منذ

أمد طويل. كنت مازلت ألتصق بوجه الزجاج البارد. أرى، من عل، إلى ظلمة القاع الغريبة.فمنذ أن اختف ت أضـ واء السـ فن الجوالة غدا النهر أسحم ومدفونا. لم يعد لوجهه رونق، ولم يكن له من قبل. وكأن محاورًا سريًا يسكن داخلهـ ا قالـ ت بهـ دوء ووضوح:

– تريد أن تعيدني إلى هناك، ولا أريد. قالت ذلك قبل أن تترك مثواها الذي احتلته منذ أول المساء. وأضافت بلا اكتراث:

–العود القسرية جوفاء وفارغة. لها طعم الفشل المر والخديعـ ة المريعة. لا يكبر الإنسان جسدا فحسب، بـ ل روحً ا، أيضـ ا. وعندما نكبر نخلّف أنقاضنا على الطريق. ننهزم أمام تطورنـ ا الذي يحرق كل شيء بما فيه كياناتنا. أين، تراك، لازلت تجـ د نفاياتك التي تتمسك بها بإصرار، أين؟ وفجأة، ركبها الضـ حك. ضحك هستيري شامل، وهي تتطلع في وجهي المرعوب. مـ اذا كانت تقرأ في وجهي الصامت آنذاك؟ هل كانت تحيط بما كانت تسول لي به نفسي؟ لا. وربما بلى. الآن تبدو الأشـ ياء، كلهـ ا معلومة وكأننا فرغنا من فعلها للتو. كل ما فعلته، ومـ ا أذ وي

فعله، فيما بعد، غدا واضحا وصريحًا. غدا، ببساطة، يقينًا. لم يعد حلمًا.

– لا. لم تعد الخديعة ممكنة. بالأحرى. أضافت مصححة. واستدارت. صار وجهها الآن، لصق الجدار الوسخ المشئوم. في لونه البني القاتم، لم تعد ترى انعكاسات الأضواء الخافتة الآتية من بعيد. كانت فرصة نادرة أختلي فيها بنفسي، إذن. وبدأت سيري الساكن: في محاذاة النافذة العالية أروح وأجيء دون أن أبرح المكان. مثل بندول الساعة المتعب، كنت أترنح وأنا أتقدم خطوتين، وأرجع خطوتين، هما، تمامًا، عرض النافذة المعلقة في الجو. كان رأسي، كله مملوء بفكرة واحدة: فكرة أن ذلك، كله (ما مضي وما سيأتي) أصبح بلا معنى. وهي، أيضا، وبلا ريب، كانت تدركه بدقة متناهية. إضافة إلى أنها تعرف آليته وخصائصه ومزاياه. لم يعد ذلك يعني شيئا؟ بلى. صار ذلك يعني، الآن، كل شيء. لا خلاص، إذن؟

باريس، الشام. حرب واحدة؟ حرب تدور رحاها في ذاتي العتيقة التي لم تتجدد. باريس– الشام عالم واحد إذن؟ عالم منتهك وكذاب. أسطورة الخلاص ليست في الحقيقة إلا ورطة ومحاولات الاستقلال الزائف ليست إلا اندماجًا لا انفكاك منه.

قيم واحدة تملأ أحشاء هذا العالم الهالك. أريد أن أتوقف قل يلا. أن أعيد النظر بكل شيء. "أن أصل متأخرًا خيرًا من ألا أصـ ل أبدا". أن أتقدم بوعي، قليلا، خير من أن أتقدم كثيرًا بلا وعي.

– أصبحت، فعلا، تثير اشمئزازي. قالت محتدة، وهي تضـ يف بسرعة نارية:

– ألا ترى أن ذلك– الآن– غدا من نافل القول؟ ومن البلاهـ ة الاستماع إليك وأنت تهذي. منذ متى وأنا أقول لـ ك إن الحيـ اة ليست لغوا. ومما يثير ضحكي أنك تحاول أن تحذر المنعطفات (الوهمية)، ولكنك، للأسف الشديد، مثل من يسرع على طريـ ق لا يعرف أنها مسدود.

(١٥)

كنت أحسب أنني صرت أقوى وأوضح منذ أن أعادتني الشرطة العسكرية إلى الوراء (قلت مذكرًا إياها ببعض تاريخنا، وأضعت مقلدا صوت الآمر):

- ارجع. ارجع. يا كلب.

كنا في طريقنا إلى " الزبداني" وكانت الحرب في أولها. ولم يكن حر " دمشق" يطاق. وكنت تلتصقين بي. كان نور الشمس، فـ ي حزيران، وهاجًا. ولم نكن قد عرفنا شيئًا عنا، بعد. وفجأة قالت:

-كنت متوترًا ونحيفا وكنت أحسبك قارة لا يحاط بهـ ـا. كنـ ـت أخاف مجرد التفكير في أنني قد أحمل عبء اكتشافك ذات يوم. كنت أقول لنفسي من أين أمسك به. وكان أنفك الطويل أول مـ ـا يخطر لي. كنت أراني أقودك كالبعير من الأنف. أمشي وأنـ ـت ورائي والنساء يتوقفون عجابى قلت للشرطة أريد أن...

- أرجع يا كلب. قالت الشرطة بلا احترام. لم تسـ ـأل الشـ ـرطة عن السبب، ولا عن العاقبة. أتخشى السلطة الحرب إلـ ـى هـ ـذا

الحد؟ فكرت، وأنا أتوقف قريبا من المكان. صرت أتطلع إلي ك بدلا من التطلع إلى السماء وجاء صوت الشرطة من بعيد:
-الطيارات. الطيارات.

واختفى كل شيء. أقفز العالم فجأة. وكان ذلك، وح ده كف يلا بتحقيق مشروعنا: نور. وحر. ومكان مغلق. وجسدان لم يلتقيا، أبدًا من قبل. وتحول المكان المذعور إلى جنة. كنت ترتع دين. ولم أكن أعرف أخوفًا كان رعدك أم لذة. شيء واحد كان يشغل نفسي: أن نموت متداخلين الآن، وأنا أقف على الأرضية الت ي أقف عليها منذ عشر سنين، صرت أعرف: " أن المك ان يفق د ذاكرته عندما يفقد مشروعه". الأمكنة التي ب لا مش اريع ه ي مأوى النفوس الخائبة. وهذا هو حالي الآن، وحال ه ذا البي ت المعلق في سماء باريس التي لا شمس فيه ا ولا نع م، والت ي تشدني، مع ذلك، إلى البقاء مستكينا، وقد كن ت أتفل ت مث ل المسعور. أمكنة بلا مشاريع، ومشاريع بلا ذكريات، من ك ان يصدق أنني سأقبل بذلك يومًا ما؟ الآن، أعرف أنني م ن ذل ك النوع البائد، أو بالأحرى " النوع الزائد": نوع "من يظل يركض ولا يصل". ومع أنني كنت، منذ زم ن طوي ل، أردد لنفس ي، معلمًا:"لا تملأ قلبك بالضغينة. املأه بالح ب"، إلا أن الض غائن

الصغيرة، "المجهرية" تراكمت يوما بعد يوم حتى غدا احتمالها مستحيلا ضغائن لا تصيبك أنت فحسب وإنما تمس عالمًا كاملا. كيف أشرح لك الأمر. كيف أخرجك من تحت هذا الجدار الساكن مثل جدران القبور؟ تكلمي. تكلمي. صرت أصرخ. ولم تتحرك. كانت لا تزال تثوي لصق الجدار البني الوسخ. لكأنها لم تسمعني. حتى صوتي غدا بلا معنى؟ صرت أتساءل بمرارة. لم تؤكد لي فراغ صوتي من الحس، ولم تنف ذلك أيضا. كانت تنتظرني بلا اهتمام، لكأني لم أكن إلا زولا، زولا مجردًا من الحياة. وأحسست، فجأة برغبة عنيفة لسماع أحد يغني ولم يكن ثمة إلا الصمت صمت جسد مرت (حتى) " لحظة عقوبت" جسد امرأة قطعت الأدوار، كلها. كدت أبكي. لم أكن أريد أن أكون لئيمًا. لا. "فالإنسان الثوري يناضل ضد اللؤم والاستفزاز". هكذا تكلم "ماركس" ومع ذلك، كنت أنظرها بلؤم عاصف، وأفكر:"أحد أشكال قتل الوردة إهمالها، تركها معلقة على الغصن حتى تموت".

وظلت جاثمة في مكانها، وكأنها لا تسمع ما أقول. عجبًا، وأنا الذي أخاطبها منذ أول الليل. أيقتل المكان المغلق الكلام؟ كنت أعرف أن للحبس أثرا فاتكا على النفس، لكنها طليقة. طليقة في

هذه الغرفة الواسعة، ٤م×٤م ماذا تريد أكثر من ذلك في باريس؟ وهأنذا أروح فيها وأجيء، نصف الهواء لي، ونصف لها، م اذا تريد أكثر من ذلك في باريس؟ أمشي في مساحتي، وتقعد ف ي مساحتها، ماذا تريد أكثر من ذلك مني؟ أش رح، وأش رح، ولا تتحرك. كنت أعرف أن الأمر أعقد م ن ذل ك بكثي ر، إلا أن الإنسان الثوري مسئول عن خضوعه أكثر مما هو مسئول عن تمرده" هكذا تكلم ماركس. كان علي إذن أن أجعلها تقوم، أو أن أقعدها إلى الأبد. المنزلة بين المنزلتين ما عادت قابلة للاحتمال. والتفت إليها وصرت أصرخ. ولم تتحرك. وفجأة، انبث ق ن ور الشام في وجهي وأنا أستدير، مبتعدًا، عنها. نور الجسد الصغير الطازج. أمد يدي إليه وأغرف من رحيقه. لم أكن أعرف قب ل معنى الجسد – الجنة حتى احتويته. كنت أريد أن أع رف، أن أعرف فعلا، كيف يمكن للكائن أن يخسر نبوغ جس ده دون أن يربح شيئا؟ (ألا يكمن هنا معنى الموت؟) كنت وحيدًا حتى ف ي خصامي. عدت ألتصق، من جديد، بزجاج النافذة البارد. أنتظر مرور سفن السواح التافهين. السفن الخامل ة للضد وء. السف ن السخيفة التي تنطلق دائما من النقطة نفسها لتعود دائرة إليها، بلا انقطاع. ما معنى الإنهار إن لم يأخذنا إلى نقاط جديد؟ ولم يقوم

الإنسان بفعل يعرف أنه بلا جدوى؟ صرت أتساءل، وأتساءل
وأنا أتابع السفن التي تدور وتدور.

(١٦)

تناضل المرأة لتكون حبيبة، وعندما تكـ ون، تناضـ ل لتصـ ير زوجًا، وعندما تصير، تناضل لتكون أما، وعندما تكون، تناضل لتغدو عشيقة، وعندما تغدو، تناضل لتصبح حبيبة، من جديـ د. ويكون الأوان قد فات. وعندها تدرك أن الأدوار، رغم تعددها، لم تكن، في الحقيقة. إلا دورًا واحدًا: دور الكائن الذي فرغ من محتواه. كنت أفكر بهذا وأنا أتابع بحثي عنها. وكنت قررت أن أعطي اسما سريا لذلك الفعل المنهك: ومع أن ذلك غـ دا يثيـ ر الابتسام الساخر (إن لم نقل الضحك المجهـ ور) إلا أنـ ه يفـ ي بالحاجة، مبدئيا. فليس الاستعمال المغرض للكلمـ ات بغريـ ب عني. ما جدوى أن أبحث عن قول لم يقل، بعد، إن كنت أفعـ ل ما فعل من قبل؟ وقبل أن أنتقل إلى الفكرة التالية، جلـ س عـ ن يساري زوج. رجل وامرأة. أحطتهما، رأسًا وبنظـ رة سـ ريعة: لا،هو ولا، هي. لا شيء. عدت إلى الأنوار اللامعة في وجـ ه المقهى. أنوار بللها مطر باريس الثقيل. حبات المطر مكـ ورة. أحسها تسقط بفعل "الثقالة" لا حبا بالأرض. وكيف يحب المطـ ر ملامسة الأسفلت البارد؟ المطر يسـ قط مـ ن السـ ماء. ليلتقـ ي

بالأرض: بترابها، بحشيلاتها، بأشواكها، بما لا يعرفه المطر في أعالي الكون. أعدت النظر إليهما، واستعدته منهما، فورًا. فعلا، لا شيء: وجه رجل يصلح لامرأة، ووجه امراة هو في الحقيقة وجه رجل. كدت أتخلى هذه المرة نهائيًا، عن البحث عنها.

– "لِم أبحث عن أحد لن ألقاه؟" قلت لنفسي. وكأنها سمعتني قالت بلا تردد:

– وما معنى بحث يؤدي إلى لقيا، يا أحمق؟

كدت أستدير باحثا عن صوتها الذي جاء، لكن تل ك " القول ة" جعلتني ألزم السكون، وهو ما أراحني. وفع لا، أحسس ت أن رأسي غدا صافيا وبليدًا. لكأن أح دا غس ل دم اغي، م رات ومرات. غسله من توتراتي العنيفة الملازمة لي منذ أيام. توتر، وتعب، ويأس، وحزن، أربعة أسباب تكفي لكي ينهار الإنس ان. ومع ذلك، كنت أقاوم، وأقاوم. لكن " التسمم" هو ال ذي قض ى نهائيًا على تلك المقاومة الفارغة. مقاومة لا تخترق الحصار ما معناها؟ مفهوم المقاومة "مفهوم تطوري"، بمعنى أننا نقاوم لك ي نصبح أفضل مما نحن عليه،لا، لكي نحافظ على الوضع البائس الذي نحن فيه. ألم يتكلم هكذا "ماركس"؟ وكان من نتيجة ذلك أن رأسي غدا" أبيض". وجسدي استعاد بعض الراح ة. وص رت أرى العالم بعيون مغسولة.

أكاد أكون سعيدًا، حقا. هل يعني ذلك شيئًا؟ فـ ي خضـ م ذلـ ك التسمم العرضي، (بماذا تسممت، وممن؟) كنت أردد فـ ي شـ به غيبوبة: "أم مكر الصديق" إن حدث وقضيت هنا، وصيتي لك أن تأخذيهم إلى هناك.

كنت أحس أن الزمن يمر بسرعة. وكنت أتساءل: من يسـ تطيع أن يوقف هذا المرور المستمر؟ وقررت أن يكون هذا الصـ باح لي. لي وحدي لذلك قعدت طارفا، أتملى. وبدأت أفكر في أشياء كثيرة فعلت. كنت أتصور أنها فعلت من غير قصد. الآن أعرف أن الأمر لم يكن كذلك: فمن يفعل، يفعل، دائما، قصدا، لمـ اذا؟ لأن اللامقصود. ببساطة، غير موجود.

هذا الصباح، أيضا، جاء المغنيان: رجل وامرأة. بـ دءا الغنـ اء بهدوء (غناء ينتقل من طارف المقهى إلـ ى طارفـ ه). وجهـ ان أصفران. جسدان ناحلان. وثياب رمادية. صـ وتاهما نائمـ ان. ولا ترى حريكات شفاههما عند الغناء. من أين كانـ ت تخـ رج الأصوات؟ وإلى أين كانت تروح؟ لا، لم يكن ثمة من يسـ معها غيري. نظرت إليهما بإمعان: الرجل يحمل عودًا وبـ هـ يـ دور.

يدور حول المرأة التي ولت الأدبار. برد الصباح، هذا اليـ ـوم. جعلهما يرتجفان. المرأة ترقص مدركة معنى البرد. وهو يهتـ ـز بغباء (لم يكن أحد يسمع ما يهمسان به، حتى ولا أنا) المـ ـرأة كانت تراني ولم يكن هو يراها. وهممت أن أقوم إليهما (ولـ ـم أفعل). كنت أرى أن ذلك غير عادل. وكل ما هو غيـ ـر عـ ـادل يمردني. لكن بين الشعور بفقدان العدل وبين التمرد خصاصـ ـة: خصاصة شديدة الرقة، إلا أنها أساس الفعل الثوري، كله، كمـ ـا قال ماركس. ولأنني لم أكن على مستوى توتراتي، بعـ ـد (هـ ـل سأكون لاحقا؟) بقيت جالسا والامتعاض يفوح مني، مثل رائحة كريهة لا يمكن إخفاءها، ولم أعد أرى حتى المـ ـرأة الصـ ـغيرة التي كانت لا تزال تتملاني. كنت أريد أن أفهـ ـم معنـ ـي ذلـ ـك الانفصام الذي أخذ يتسلل، خلسة، إلي. علاقاتي القديمة تفسخت، كلها. لم أنشئ علاقات جديدة. نوع من الضمور الخفـ ـي كـ ـان يتأسس في كياني. فترة الفوران الشكلية أعقبتها فتـ ـرة انكمـ ـاش عميق. ولماذا لم أصفع المغني المجهول؟ ولم لا أزيد الصـ ـدع بيني وبين الناس؟ وكما حدث عندما أوقفتنا الشرطة العسـ ـكرية، وأجبرتنا على العودة إلى الوراء (يومها، أحسست أنني أطير من فوق الشرطة، وأعبر الحدود التي لم أنو حتـ ـى تلـ ـك اللحظـ ـة،

لحظة المنع، انتهاكها. وقد انتهكتها. فعلا، في أول فرصة سنحت لي)

حدث الآن: أحسست أنني أخضع لإرجاع قسري إلى وضع كلفني الخروج منه وعليه جهدًا كبيرًا. في الحالتين، حدث تحول جذري في كياني. تحول حل فجأة فيه. لكم صارت تضحكني الآن" مقولة الإرهاب الذي يعيد إلى الصواب". تضحكني بلا خشية أو شماتة. كأن التراكم الزمني المتكدس على أجساد عشرين عامًا (هي الفاصل بين يوم الشرطة العسكرية، ذاك وبين أمسية الموت، هذه) لم يكن قد وجد أبدًا، وجدتني أغني الأغنية الصغيرة الهشة، تلك التي انبثقت في نفسي يوم أجبرت على أن أعود على أعقابي خاسئا: " أحب الطرق المسدودة، والأوضاع التي ليس لها حلول وهل تستحق حياة لا عوائق أن تعاش؟" وقبل أن تسمع صوتي، هجمت من لصق الجدار علي. هجمت بيدها المقبض الأسود والسكين. ماذا كانت تريد أن تفعل بي؟ وقبل أن يرتد طرفي إليها، سمعتها تضرب أنحاءها ضربًا:

– أعرف أنك جبان.أنا التي...

ورأيتني أنخطف نحوها كالبرق. لم تتم الكلام الذي بدأته. انقلبت علي. وبيدي، كلتيهما، أخذتها، توا. كان السيلان اللزج يربط

جسدينا. سيلان محا، تدريجيا، ذلك التراكم الفاسد، كله. محـ اه كما تمحى الأمواج الهائجة، مساء، آثار يوم كامل على الرمـ ل. وصرت أتساءل: ما معنى أن نلتهب كل لحظة إذن؟ مـ ن هـ و عدونا الحقيقي؟ وكأنها لم تترك خناقي أبدًا، قالت لائمـ ة، مـ ن جديد:

–شيء ما ينقصك عندما تتكلم، وعندما تفعـ ل. عنـ دما تـ تكلم ينقصك التماسك، وعندما تفعل ينقصك النضج. لمـ اذا؟ لأنـ ك لازالت تحسب الكلام نظمًا من الكلمـ ات، والكلمـ ات"أوعيـ ة" مملوءة. أو تدرك، الآن، مدى الخيبة عند من يظل يستمع إلـ ى إنسان فارغ مثلك؟

–وعندما "أفعل"؟ مستسلمًا، لأول مرة، منذ أول الليل. وقبـ ل أن تسمع سؤالي الذي كانت قد أجابت عليـ ه وفـ ي أول كلامهـ ا، أضافت بهدوء:

–وما يسخف فعلك هو" العجز": عجز الانتقال من " حالة التكلم" إلى "حالة التعلم". لماذا؟ لأنك لا زلت تحسب أن العالم لا يحتاج إلى ما تقول، وما تقوله لا يحتاج إلى برهان، وليس الأمر كذلك

أبدًا: العالم ليس بحاجة إلا لما تقوله، وما تقوله دائما، بحاجة إلى برهان وبرهانه ليس شيئا آخر سوى فعلك، وفعلك هو أنت: أنت ساكتا، وأنت صامتا. هل تستطيع أن تدرك، الآن معنى أن يخطئ الإنسان في كل شيء؟

-لا. قلت مشمئزًا وأنا أقترب، هائجًا. من الشباك.

كان النهر قد أظلم ولم تعد سفن الضوء ترى. كانت قد صارت خلف غشاء الليل، تقطع هائمة نصف النهر الشرقي، لتعود بعد قليل، إلى نصفه الغربي. أريد أن أراها الآن. أن أرى بريق ضوء، حتى ولو كان ضوء، مزيفًا وسريع الزوال. وفي النهاية" قد يكون الزائل، وحده، أساس الديمومة". وإلا ما معنى التحول؟ التحول الذي يصيبنا ونحن في أحسن الأحوال، كما يصيبنا ونحن في أسوئها. ذلك " الشيء" الذي يدفع بنا، دون توقف، نحو المجهول الذي سيصير معلوما، والذي سيفقد، ذات يوم غموضه الخلاق. سيفقده بشكل مأساوي، وإلى الأبد. وكدت أكتشف أن " الفقد" ، هو، وحده الذي لا يتغير. إلا أن الابتسامة الهازئة، خلفي، جعلتني أرتجف، خوفًا.
-لم تهزئين؟ قلت مرتبكًا. ودون أن تخفف من غلوائها، قالت:

–لم أكن أهزأ، كنت أضحك.
–وما الذي يضحك الآن؟

وهذه المرة ضحكت فعلا. كان حس ضحكاتها ينفذ عبر كيـ انـي كالمخارز. حاولت أن أتفاداه، ولكن كيـ ف؟ المسـ احة مغلقـ ة. والفضاء عال والليل يتقدم في الليل. وأنا معلق من قـ دمي فـ ي الطابق السابع والعشرين. والجو غريب عجبًا، لم لا يحس الكائن بالاطمئنان إلا في مهاده؟ أكاد أتشنج. أكاد أفقد القدرة على عقلنة إحساساتي المنفلتة: من يعطي للأشواق لهـ ب العاطفـ ة ويقـ ين العقل؟ تركت الشام باختياري وهأنذا أعود إليه بـ الرغم منـ ي. أريد أن أقول" بالرغم مني." لكنها لا تفهم هذا، لا لأنها امـ رأة، بل لأن الأنفس "مراكب". كيف أشرح لها الأمر؟ وقبل أن أقول شيئًا جاء صوتها:
– تظل تسأل عن سبب ضحكي وأظل أشرح لك. أذ ـا أضـ حك عبثا وأسكت عبثا وبمعنى آخر: عبثًا أضحك، وعبثًا أتوقف عن الضحك.
الضحك الذي لا يقض إلا مضجعك. ولـ يس ذلـ ك إلا بعـ ض أعراض جنون عظمتك المستتر.

ودفعة ملأتني الرغبة: رغبة عنيفة في أن أتحول إلى سـ لحفاة، وأمشي بين الركنين بعيدًا. أتوارى بين جبليها النيئ ين. أتمايـ ل يمينا وشمالا، وأنا أتدحرج إلى البقاع المنثبجة السـ ود: ببقـ اع الجزيرة التي لم تنقطع عنها الأماطير. ولم تفهمـ ي شـ يئا مـ ن مقامي. كان التوتر قد أخذ منك كل مأخذ. كنت ترتجفين وأنـ ت تنظرين إلى ساعدي بوهج ولهاث. كان العراء ينكشف أمامنـ ا. وكان علينا أن أستمر في الحركة آمادا أخرى. كانت تلك هـ ي المرة الأولى. المرة التي لم ننسها، بعد. لمـ اذا يظـ ل الـ زمن مستمرًا إن لم ننس ما فعلناه؟

(١٧)

كانت النساء تبكي وكان الرجال صامتين. كان "الجسد" ممدًا على الطريق. جسد من؟ هل تذكرين؟ لا. لم تكوني قد دخلت في "نفسي"، بعد. كنت وحدي أختل بين أشجار الشوك القصيرة، في أقاصي الطريق. كانت الخطمية والقصب الأصفر والزل العالي تسد منافذ النظر إلي. كنت أرى إلى الجسد الممدد وأرتجف. جسد "اللص" الذي قتلوه. أتعرفين من كان ذلك القتيل؟ لا. لم تكوني قد استوليت على أسرار نفسي، بعد. ماذا سرق اللص الهالك، هل تعرفين؟ لا؟ سأقول لك الآن: سرق؟ لا، لم يسرق. كان جائعًا وهائمًا في البر. وقعد على الطريق. وأكل. أكل بصلا. وحسي ماء من ماء النهر الساقي. وغسل وجهه الأصفر من حريق الشمس غسله بماء السواقي الصغيرة الناشفة. كان الوقت مساء، وكان الضوء يختفي خلف التل. تل القرية البعيدة. كان يريد أن يتشاهد، وهو يمضغ "بأمان" لقمة البصل المخلوطة بالشوك. وفجأة دوي الرصاص. وانهار. انهار "عباس" انهار وهو يسد انفجار جسده بيد، وباليد الأخرى يبحث عن خنجره الذي طار. ولم يلمس سوى الدم. دمه الذي خالط

ماء الأرض الظامئة إلى الماء. كان رجال" المختـ ـار": يقفـ ـون، فوقه، بتبجح، مثل الخنازير: شيلوه. شـ يلوه. كـ انوا ينـ ـادون. ينادون على من يريد أن يتعرف على (حرامي الحقول)، علـ ى من يريد أن يعرف الوجه الملوث بالتراب. لا، لم يعرفه أحـ د، ولم يتعرف عليه أحد، سواي ومنذ ذاك نفرت. نفرت مـ ن كـ ل شيء. الآن، أعرف أنهم لم يتعرفوا عليه، ولم يعرفوه، خوفًا من " المختار". وأعرف أن المختار كان يعرف أنهم يعرفونه. وأنهم "أهله"، ويتجاهل. كنت أفرك وجهي بالشوك، وأبكي، وأتساءل: لماذا لا يعرف المختار من هم؟ لكأنني كنت أبحث عن عقـ ـاب جماعي يشفي "عباس" من موته. ولـ م أكـ ن أدرك، بعـ د، أن أغلب"الميتات" لا تشفى. ومثل الكلب الصغير، الذي عضعضته الكلاب، خرجت راكضًا حتى شليل أمي. وقصدا صرت أنتحب. انتحب عاليًا وأنا أحدق في وجوههم. ولـ م يتحـ ـرك المختـ ـار. استدار مبتعدًا، متجاهلا إعلاني عن هوية الميت وأهله. ومشـ ى متبخترًا، مثل الحصان الذي هبط، توا، عن ظهر فرس نازيـ ـة. ودون اهتمام دون اهتمام أبدًا وكأننا لم نكن نعرف بعضنا مـ ن قبل، قلت باستغراب ولؤم:

–ومن يمنعك الآن من أن تنفر ومن أن تنفر كما يحلو لك؟

وبقسوة خبطت رأسي على الزجاج. عل ى الزج اج القاس ي. وانفتحت الثغرة فيه. الثغرة التي سأتدلى منها، فيما بعد، لاقح ا نفسي في الفراغ.
ورأيت لمع الوجع يعبر ظلام الليل. ي أتي إلي ك، وتطردين ه. وجعي القديم؟ لا، لم أكن أشعر في حضن الشوك ب الوجع. ل م أكن مهيئًا لذلك.آنذاك؟. وظل الزجاج يهت ز، يهت ز للحظ ات طويلة، وأنت ترتجفين:
– أريد أن تفهم أنني أريد أن أظل وحدي. لم يعد وجودك يعني لي شيئًا. بلى، صار لا يعني إلا شيئا واحدًا: الانهيار.

صمت. نفس طويل عميق. دموع غزيرة. كره. كره يشبه لونه لون الموت. ورجفة. رجفة ملتاعة حلت محل الرجفة الأول ى. تلك الرجفة العذبة رجفة المتعة (التي ولت الأدبار) متعة التف تح التي لا تزيف، ولا تهيف، هي التي ربطت بيننا عص ر ذل ك اليوم. يوم الحرب اللعينة. يوم ردتنا الشرطة العسكرية إلى، إلى الوراء. كنت أريد أن أحيط بوضعي المتلاشي، وكنت تصيحين:
–في المرة القادمة سألقي بنفسي من الشباك. سألقي بهـ ا الآن. الآن. وفتحت ذراعي كلتيهما، أحجز بينك وبين الموت. وحسبت أنك ستلقين بجسدك الصغير بين ذراعي. ولم يكن ذلك إلا وهما

جديدًا. كنت أحب فعلا، أن ترتمي بين حوائجي وأنقاضـ ـي. أن أحملك كما يحمل الوالد ولده المنهك. كان البرد الصامت يتسلل إلي. ولم أكن أريد أن أقاومه. كنت أريد ولم تكوني تريدين ومع ذلك أمعنت في إصراري. كنت كمن أخطأ، وهـ و لا يريـ د أن يخطئ، فيخطئ أكثر في المرة القادمـ ـة. وحسـ بتني أسـ معك ترددين:

–من يخطئ الهدف يظل يطلق ويظل يطلق على أهداف أخرى، حتى لا يصيب. واشتعلت غضبا:

–صرت مقترنا بالموت، وكنت مقرونًا باللذة! تشوش كبير كان يملأ رأسي وأنا أصرح بذلك. لكأنني كنت أريد أن أسمع صوتي أنا. منذ متى لم أسمع حسا؟ وبتصميم أضفت:

–لا، لم أعد أعرف شيئا. لم أعد أعرف.

–لكنني أعرف، أنا، كل شيء. أعرف شـ يئًا واحـ دًا يلخـ ص الأشياء، كلها: هو أن تحل عني. أن تذهب، وألا أراك بعد الآن. قلت بلا اكتراث واختلط صوتك النائح بصوتي الخفـ ـي. كذ ـ ت أتمتم مستاء:" هذا هو الوعي الجديد الذي اكتسبناه؟ وعي أبعدني عنك، وأبعدك عني، وأبعدنا معًا عن الشام؟" وأجلـ ـت الطـ رف

حولي" أربعة جدران معلقة في سماء باريس. أربع ة ج دران مغلقة، لكنها تسع العالم، كله، وأنا فيه. أتركها؟ أترك مكاني؟ ولماذا؟ لأنك تريدين ذلك. اتركي المكان أنت.

–أتركه لك؟ صرت ترددين بين البسمة والبكوة. ورأيت الضرر يلمع في عينيك وأنت ترددين: أتركه لك؟ أتركه لك؟ وأدرت لك ظهري. أدرته وأنا أفكر في معادلة" الطرد". اقتربت، من جدي د من زجاج النافذة المكسور، حتى التصقت به، وأنا أقرر:" لا، لن أترك بعد اليوم، مكانا لا أرغب، أنا في تركه". حماقة لن تعاد. وبدأت أضحك في وجه الليل، متمتمًا: "العم ر ه و التجرب ة. والتجربة هي الجذرية التي تعطي للحياة معناها".

(١٨)

مرت أيام لم أعد فيها إلى المقهى. هذا المساء عدت إليه. جلست، كالعادة في مكاني المناوئ للباب. الزجاج الذي يفصلني عن الشارع نظيف ومبهج. في مواجهتي يجلس رجل أسمر بدين. ثيابه شديدة النظافة شعره مرتب بعناية ومقصوص حديثا. بين أصابعه البضة يستقر "سيجار" ضخم وفي إحدى أصابعه خاتم من ذهب. أمامه كأس في قعره حثالة من " الكونياك". في مواجهة الرجل تجلس امرأة شعرها أسود طويل. شعر لف بعناية ورفع إلى فوق. كاشفا عن بهاء جيدها وفضائه. في أذنيها قرطان صغيران. عنقها مكشوف من جهتي. صفحته اليمني تفصل وجهها المتطاول عن كتفها الممتلئ. ما بقي منها كان خافيا عني، ومع ذلك كنت أراها: ظهر نحيل بلا تعاريج وورك ملأ بتدويره الكرسي الأحمر الذي احتواه- وأشياء أخرى لا مجال لذكرها الآن. لكنني لم أكن أرى لا فمها ولا عينيها. تكاد تكون هي. إلا أنني لم أتمثل بعد، مآثرها الأخرى. كنت قد قررت، وأنا في تلك المرحلة، ألا أنساق وراء نزعتي التي كانت تستسهل الأمور. تستسهلها لتعطيني انطباعًا زائفا أنني لا أحقق،

في نهاية الأمر، إلا رغباتي. كان علي في هذه المرحلة، تحديدا، أن أخرج من فضاء الكذب على الذات، وأن أتخلص، نهائيا، من نوازع الافتعال: افتعال الحاجة وافتعال الاكتفاء. فالافتعال مهما كان موضوعه وغايته، ما هو، في الحقيقة، إلا علامة لنضـ وب المخيلة. كان علي إذن أن أرى وجهها، بأصـ غريه: ثغرها وعينيها. وبدأت أفتعل اضطرابا (أحسسته يربكني، حقا) علها تستدير إلي. ولم تفعل. وبدأ الأمر يربكني أكثر، فأكثر. لماذا أتابع البحث عنها؟ ومن هي تلك المرأة التي ضاعت؟ ومتى حدث ذلك؟ (كانت يداي تدخلان جيوبي ومنها تخرج بلا استقرار لم أكن أبحث عن شيء إلا أنني لم أعد أحتمل السكون.) أسئلة أخرى كثيرة، وأكثر حماقة، كانت تتوارد. وكنت أبصقها أقوم. أن أقوم وأقعد. وأقعد وأقوم. وبدأت الريبة تغزو العيون الجوف التي كانت تحيط بي. عيون فوق عيون إلا عيونها، هي. ماذا أفعل الآن؟ حتى الرجل السمين الطيب صار ينظرني، وهو يبتسم.وبحركة من يده اللينة (لم تراقبها عيونه التي تعلقت بي) طير الكأس وما فيها. ورأيت شظايا البلور الصافي تتناثر في البعيد، وفي القريب. ولم تتحرك المرأة ذات الجيد. آه! الآن فهمت. كنت أعتقد، دائمًا، أنني أستحق أفضل ممن/ مما عندي.

وكنت أقبل، "مؤقتا" بمن/ بما هو أقل. كنت أتصور أن قواعد اللعبة لا تستقيم إلا أخذ الأفضل مكانه الطبيعي، يوما ما، في حياتي. ولم أكن أدرك بعد، أن خطورة المؤقت، لا خطره فحسب، هو أن يدوم. وهو بدوامه يبدع فضاءه المستقل، ويؤسس تاريخه الخاص. وأن اللعبة" البسيطة":المؤقت/ الدائم هي، في الحقيقة، أساس لعبة الحياة المعقدة. خطر لي ذلك، قبل أن أبدأ الرقص. قبل أن أقوم من جديد بحركتي "المؤقتة"،من أجل أن تلتفت إلي " امرأة المقهى". وكأن أمرا سريا ملأ رأسي، توقفت، هنيهة، في مكاني، وفجأة، مشيت.

(١٩)

في الشارع الطويل الذي احتواني، بدأت، ربما، أول خطوة في رحيلي. أول خطوة حقيقية في ذلك "الرحيل" الذي بدا قبل عشرين عامًا. كيف حدث ذلك؟ كان البشر المحيط بي يتحول إلى حمام طيار. وكنت أبحث، فيه عنها. ولم أجد سوى الأثر اللعين الذي يشهب فوهة البئر. ماذا كنت أرى في ذلك الظلام الحالك؟ لا شيء سوى خفق أجنحة الحمام المبتعد. وفورًا، عفته وعدت إليها. كنت أريد أن أقابل بينها وبين ما صارت عليه الآن. أن أجمع الأصل والصورة. أن أخلط الأثر بالمؤثر. لكن الدرب الطويل الذي سلكته ظل مملوء بالحمام الذي لم يعد يطير. لصق الشجرة الصماء الراسخة وقفت. وقفت وأنا أتمتم بنوع من الفرح: "أهمية الضائع تكمن في أن يضيع أكثر فأكثر". ومن جديد، مشيت وأنا أتلوع استياء. تركي القديم للشام، ذلك الترك الذي كنت أعتقد أنه كان رحيلا حرًا مارسته بوعيي واختياري، والذي اكتشفت، الآن، أبعاده المأساوية،هو الذي صار يحول دون أن أخطو بعد اليوم خطوة أخرى فاشلة. كنت أتصور أنني أتمرد. وأنني إن تمردت أصير مرعبًا ومخيفًا،

حتى ولو كنت وحدي (لكم يضحكني ذلك،الآن).وكيف يواجه "فرد متمرد" من لا يريدونه أن يكون كذلك، سوى (بالتحرر منهم)؟ وبأية وسيلة يتحرر؟ بتركه لهم كل شيء. كانوا يعرفون، إذن، أنني كلما أوغلت في تحرري مما لا أحب، صرت عبدًا لما أحب، لا، ذلك كله، لم يعد يغريني. أريد أن أعود إلى الشام، أن أعود إليك، لا إلى صورتك الزائفة المخيفة. ولكن من أنت، في حقيقة الأمر؟ من أنت؟ كنت قد وصلت نهاية " السان جرمان" منها عدت، وأنا أتابع تمتماتي: ما معنى الحياة إن لم نتغير؟ إن لم نتطور؟ إن لم نعد أكثر احتمالا لقسوة الحياة؟ واسوتوقفتني الفكرة الأخيرة. بدت لي فكرة مخيفة حقًا. ولِم يتوجب علينا أن نتحمل؟ لا. كدت أمسك بخناقك وأرسل بك إليها عبر القارة النائية، قاذفا بك من أعالي (السين). أنت الأخرى تدفعينني، دفعا غامضا نحو الليل. تزينين لي الرحيل. والرحيل عمن؟ عني أنا، بالطبع. لا. لا يفرغ الكائن من لبه مرتين. أدهشتني وأنا في منتصف الطريق، وجوه البشر الذابلة، وأجسادهم المتهالكة. لكأنهم لم يأكلوا منذ سنين عجبًا، لأناس باريس، هذا اليوم. بسرعة أخفيت وجهي عنهم، وأنا لا أستطيع أن أتنفس الهواء ماء. ماء كنت أصرخ،طالبًا بعض الماء. ولم يردني سوى صوتك:

–قم اشرب. لست مكسورًا.

لأول مرة، منذ المساء، بصـ قت. كـ اد بصـ اقي أن يصـ يبك وأصابني رذاذه المتناثر في الأنحاء. والتصقت، أكثـ ر فـ أكثر، بأرضية الغرفة الوسخة، وأنا أعد أضواء الأبراج المقابلة لـ ي. أستشف عبر الزجاج المعلق في الليل، بعـ ض سـ مات حيـ اتي (كدت أقول مماتي). ولأول مـ رة، أحسسـ ت، بشـ كل فاضـ ح وعنيف، أحسست بحاجتي القاسية إلى الحنـ ان. الحنـ ان، هـ و الآخر، مرتبط بالمكان؟ بلى. (والحنان–على العكس من الحنين– ليس عاطفة مدسوسة ولذا، ربما، لم يعد أي منـ ا قـ ادرا علـ ى إفرازه.) ومن لا مكان له، ليس له سلطان. ذلك، وحده، يكفـ ي الآن لتلخيص مأساتي، وربما، مأساتك، أيضا – وترديننـ ي أن أرحل؟ أن أترك المكان الذي أقف فوقه بقدمي؟ أن أمشـ ي؟ أن أمشي؟ نعم، ولكن عندما يحين الحين. فعلتهـ ا مـ رة. فعلتهـ ا ابتسارا؛ ولن أفعلها مرة أخرى.لا. صـ رت أدرك الآن معنـ ى مكاني، وماهيته، وحدوده. أعرف قوة المكان وفاعليته. المكـ ان ليس مسقط الرأس، بل موطئ القدم. أعرف، الآن، كيف أحافظ عليه، وكيف أنطلق منه، وكيف لا أعود إليه. إذا اقتضى الأمر ذلك.

قشعريرة ملعونة هزتني. هزتني عميقا، وأنا أفكر بذلك. كـ دت ألتفت إليك، أستطلع أحوالك. كنت ترتدين إلى الوراء، وتلق ين بجسدك الصغير المتعب على الأريكة المهترئ ة.عبثً ا كن ت تحاولين أن تنامي. كان الليل لا زال في أوله. كنت قد ق ررت أن أرى فجر باريس، أن أظل واقفا في مكاني حت ى الص باح. (ولم أكن أعرف، آنذاك، أنني سأموت قبل ذلك بكثي ر.) وب لا مبالاة مددت أطرافك، منفرجة وألقي ت ي ديك وراء رأس ك. وصوبت بتشف وحقد، ناظريك إلى ظهري. ماذا كنت تري دين مني غير أن أموت، في تلك اللحظة؟ (وهو ما ستسببينه، فيم ا يلي ذلك من الوقت). كان الليل الملقي عل ى الأرض، أم امي، يغيب عنك، تماما، وأنت في وضعك الجديد. وبصوتك الخافض الحزين. قلت بتردد يكاد يقارب الخجل:

–تعال. تعال.

ورأيت، دون أن أنظر إليك، دموعك العميقة، وحن وك القـ ديم، وشوقك القتيل، واستياءك المستمر وخوفك، خوفك الذي أحسست به، أحسسته صوتًا مائيًا ذابلا بلا مغيث. بلى. رأيت، ذلك، كله، يتجسد حولي. حولي، يحوم، يحوم كالذباب العنيد فوق رأس ي يكاد يعيد الوصل بيننا من جديد– كنت تتمايلين بشغف، وأن ت ترددين:

–لماذا جئت بي إلى هنا؟

كانت الشهوة المتطايرة منك تسقط فوقي. تغريني بأكل ك أكلً ا وكانت الشمس الدمشقية تشويك. وبلا تردد أجرك وتركضين:

– إنها الحرب، ألا ترين؟

–الحرب؟ تقولين مستهزئة. وتضيفين بلا مبالاة:

–لكن النهار رائع، هذا اليوم، وأحسني أتسـ لل إلي ك. أدخ ل أهوازك السرية، أتسلق تعاريج جسدك المستثار، وأراك تحسين بتحركي الهادئ داخل أجوافك. وتنهمرين. كان الطريق خاليً ا. وكانت الشمس، وحدها، تملأ فضاء دمشق المرعوب. كان ك ل شيء لنا، لنا وحدنا، ومن جديد سألت:

–لماذا يخاف الناس الحرب إلى هذا الحد؟

كنت في عالم ملتهب كنت أريد أن أفهم كيف يتسلط جسد عل ى جسد آخر ويغريه. ولم أجبك. لم يكن لدي من ج واب. سـ وى الجواب الباهت السخيف:

–لأنها الوحيدة التي تحمل إمكانيتين فوريتين: إمكاني ة المـ وت وإمكانية الحياة. وأيضا. لأنها الوحيدة التي تلهب الكائن بالشوق. (قلت ذلك وأحطتك بذراعي) ولم تسمعي مما قلت شيئًا. كن ت

تدخلين في، وأنت وأحطتك بذراعي) ولم تسمعي مما قلت شيئا.
كنت تدخلين في، وأنت تلحين:
–ضمني (بعنف أكثر) ضمني، حتى تضع الحرب أوزارها.

وبدأ العرق الوهاج ذو الرائحة النفاذة ينتشر. وأحسست، لأول مرة، أن جسدي، كله، يشارك في الالتحام. أنوار مجهري ـة، لا تحصى وكانت تضيء جسدينا.وفجأة، جاء الهدير، هدير عميق، متسلط، وصرت تصرخين:
– أريد أن أموت أريد أن..

وابتلع هدير الطائرات صراخك المتوتر. ورأيت الأبنية الحجرية العتيدة تقف بعناد. تكاد تهزأ من قسوة الانفجارات التي أخ ذت تتلاحق. ولم يعد يصلنا إلا صراخ المرأة المقعدة الجوفاء. وهي تثرثر متحدية: " أكره الحرب ولا أحب الحياة" وعندما رأتن ي أنظر إليها مستغربا، هاجمتني وهي تموء: ماذا تريد؟ ونظ رت إليك، ونظرت إلي. كانت عيناك توحيان بأنك جاهزة لكل شيء. وأكثر من ذلك، قادرة على إعطائه. وكان ذلك بحد ذاته سلطة، فالسلطة الحقيقية هي أن نستطيع إعطاء الآخرين ما يري دون.

تلك الطاقة الخفية التي كانت تنبثق من عينيك. هي التي جعلت الأمور تلتبس علي فيما بعد.

-كالعادة، خطؤك المزدوج الرهيب (في الوضع، وفي الشخص) تريد أن تجعل منه خطأ بسيطًا، مبتذلا. ومن المسئول عنه؟ كالعادة: أنا. منذ عرفتك وأنت تهذي: "من يتبصر لا يضع". ولم أفعل أنا إلا تطبيق ما كنت تدعي أنك"هضمته". ومع ذلك، ضعت، ضعت في نهيرك الناشف، فكيف بك أنت، وأنت تحيا غفلا؟ تمد يديك إلي وكأنني كيس من التبن. تخشى حتى من النور على عينيك. ماذا أفعل لك؟ ما باستطاعتي، بالأحرى، أن أفعل، إن كان سقوطك ناجمًا عن " الفراغ المخل بالذات"؟
- تتكلمين على هواك. وقاطعتني محتدة:

- أنت تعرف أنني لا أنطق إلا عن الهوى. تعرف ذلك وتتجاهله. فما زلت تحسب" أن مع الجهل علما، أن مع الجهل علما" قاعدتك العتيدة ستظل قاعدة صالحة إلى الأبد. ولا تريد أن تعترف، إن ذلك لم يكن إلا وهما. وإنك تجهل كل شيء بما فيه ذاتك، نفسها، تجهله رغم "علميك"،وإن كنت تزعم بالعكس (العكس ليس دائما هو الصحيح. كما تردد باستمرار).

تركت ساحة الحديث واقتربت من الظلمة. خطوتان فقط، وأصير لصق الزجاج البارد، من جديد. وهذه المرة لم أطلق النظر بعيدًا. لم أبحث، في الأسفل، عن السفن الحاملة للضوء. كنت أقرر بتصميم في نفسي: " مهمتي الأساسية، (أو إحدى مهماتي)، منذ الآن، هي " تدقيق محاكمتي للأمور." ومن ورائي جاء صوتها هادئًا وبطيئًا. كانت تتكلم وكأنها تنعي أحدا مات:

–ولم يتعلم ممن حولك شيئا، حتى من أبغض الناس إليك: مني كل ما يمر بك ينزلق عليك، كما ينزلق الماء عن ظهر الحوت.

وبدأت أمشي في مكاني، فهمت، فورًا، علامة الاستياء المتراكم الذي كان يتجلى في كياني المهتاج. أتكون عرفته فعلا، إذ صمتت، فجأة، وهي تراود الجدار؟ كنت أحس أنني صرت في "وضع مخيف". وضع أحتاج فيه إلى " قوة إضافية " لأحتمل مآسيه. في الخارج، انتهى " جنون العيش" الحلو إلى "الحياة المرة" في الداخل. وصار الأمر اليسير عسيرًا. الآن. تريدني أن أتعمل، أن أتكيف، أن أقلد" محتقراتي" التي قضيت حياتي كلها وأنا أهملها وأتحاشاها، لا، ليس المنطق دائما، على حق. وفجأة، قلت بنوع من التبجح، دون أن ألتفت إليها:

–لو تعلم الناس، بعضهم م ن بعض،لحل ت الكارث ة: كارث ة الأنساق الواحدة، والأفراد– المثل.

ظلت ساكتة. لكأنها لم تسمع ما قلته. كانت تلتصق، التصاقا قويا بالجدار. لكأنها كانت تجامعه. ورأيت. فعلا، حرك ات الج دار المريبة:

حركات الدخول والخروج المتناوب. الجدار ي دخل ويخ رج، وهي تتلقح بين شقيه. وأدرت وجه ي، خج لا. كن ت لا أزال أخجل من الرغبة وأجلها. بعد أن نفضت ع ن ظه ري أثق الا كثيرة، ظلت الرغبة وحدها تبعث الخجل الفارح ف ي نفس ي. أخجل منها، وهي عند غيري، كما أخجل من أمي. رغبتي، أنا، تجعلني، على العكس، عدائيا وشديد الوض وح، إل ى درج ة الاعتداد الكاذب بالنفس. كانت تذهلني دائما تلك الحركة الهادئة. الحركة الواثقة من أنها لن تصيب إلا هدفها الوحيد. حركة تحدد المتعة شدتها ومداها. تلك الحركة المنتظمة والرتيبة إل ى ح د الموت، كانت تثير، رغم تجربتي الطويلة، خوفي، وأكثر ما كان يشغلني هو ما يعقب تلك الحركة الدائرية التي كلما أمعن ا ف ي ممارستها أدركنا أننا لا نفهم منها شيئا ونكاد نكتشف كل يوم أننا لا نعرف حتى كيف نفعلها. ما كان يشغلني، إذن ه و س كون الجسد وبراءة العقل اللذان يعقبانها. وبدأت أتحرك في مك اني،

دون أن أبرح الفضاء. كان رأسي يمتلئ بمفهومات لا تحصى ومنها يفرغ للتو. كنت أحسني مثل النهر الفائض: أقش الحشائش والعيدان والأوحال والإرهاصات والأحياء النافقة، على طريقي، دون أن أدقق في ماهياتها. كنت أريد، فقط أن أمتلئ. أن أمتلئ بأي شيء يمكن له أن يملأني. لكن "عامل الزمن المفرغ" هو الذي شفى كل شيء (أكاد أقول، وشفاه). كنت أحسب. وهمًا، أننا يمكن أن نتخلص من تراكماتنا. ولم يكن في الحسبان، أن تلك التراكمات هي الأخرى، ستدافع عن نفسها. واختلط الأمر علي. كنت أعتقد أنه يكفي أن يبدأ الكائن صراعه(مع نفسه) للتحرر من " إرثه القديم"، لكي يتغير هو، وربما، لكي يتغير العالم. لكن وقائع هذا النشاط الملغوم غالبًا ما أثبتت العكس (والعكس دائما هو الصحيح). الآن. وأنا في هذا الطور من الانحياز النهائي للذات، لم تعد تلك الانتكاسات الصغيرة ترعبني. ولكم أود أن تفهمي، أنت الأخرى،هذا.

– فهمته. وفهمت ما هو أكثر من ذلك ولكنك أنت الذي لا يريد أن يفهم لا تريد أن تفهم أن مشروع تحررك كان مشروعين واحد لك، وواحد لي " وأنك (أنت، من يجب أن يستفيد، دومًا) قضيت حياتك وأنت تلهث لتحويل " الخسارة إلى ربح" متمسكا"

بوعيك التجاري" البـ ائس. والآن (كعادتـ ك) تريـ د أن تحـ ول "الانتكاس إلى ارتكاس" متبنيًا، بلا خجل مقولات السلطة التـ ي تدعي محاربتها. لا، لست في الحقيقـ ة إلا متسـ لطًا صـ غيرًا. متسلط يحسب أن جسده مركز الكون. وأن عقله روح العالم ولم تفهم برغم تكراراتي أن التحرر، مثل العبوديـ ة، لا يمكـ ن أن يكون إلا شاملا، وهو يمكن أن يكون أي شيء إلا " مشـ روعًا نفعيًا" تافها. أن تكون متحررًا هو أن يستطيع الآخـ ر التحـ رر، ببساطة، منك، أفهمت الآن، عمق مأساتي معك؟

حكت كثيرًا. كنت أسمع صامتًا. كنت لا أسمع. كنت أعتقد أنني وصلت إلى " المأزق" الذي أنا فيه لأنني " أرخيت الجبل" كثيرًا. ولكن من يستطيع أن يؤكد هذا، أو أن يؤكـ د العكـ س؟ مـ اذا سيحدث لو لم أقم بذلك؟ أوليست المسألة، أخيرًا، مسألة حـ دس نافذ؟ لا. فالمسائل التاريخية لا يمكن أن تحسم بالحدس، وحـ ده وما أعانيه، أنا، الآن، أمر تاريخي، أيضا فليس " التاريخ" حكرًا على التجمعات، وحدها. وكأنهـ ا أرادت أن تؤكـ د انتصـ ارها، بشكل نهائي، علي، قالت، "هذه المرة"، بيأس وهدوء:

–لا تلم نفسك. يم وت المرض ى م ن أمراض هم، (وك ذلك المجتمعات). الآن أريدك أن تتجنب أم را واح دا: لا تح ول "وضعا" بين يديك، يمكن أن تستخدمه كسلاح ضد الآخ ر إل ى سلاح بين يديه، سيستخدمه، هو بالتأكيد، ضدك.

وبدا علي أنني لم أفهم مما قالت شيئا. كنت أتأرجح بين قطبين: قطب الحقد وقطب الحب. كدت أتساءل بصراحة ع ن وج ود امرأة تجرؤ على أن تحدثني بمثل هذه الوقاح ة، وبمث ل ه ذا الصدق. ولم أجد على لساني إلا الكلام الجاهز القديم:

– من يعلم؟ من يعلم كيف تنقلب الأحوال؟

ولم تتردد. قالت مؤكدة، بهدوء:

–أنا أعلم. أنا أعلم.

ووجدتني أنساب خلف أفاعي الجزيرة، بين التـ رع والأخاديـ د. ألاحق أذنابها الملْس اللامعة أتبع خيط الماء الدافق، بارتيـ اب. أرض وماء، وأعشاب شتى، وحجيرات، وصوت "أحد الن اس" يردد في مساء "الجزيرة" البعيد: "من قال لا أعلم، علمه الله مالا يعلم."

(٢٠)

أَلْهاني البحث عني، عن البحث عنها. كيف يحل الشيء في الشيء، وكيف يخرج منه؟ أردت أن أعرف قوة هذه الحركة ومداها. أدخل وأخرج مدن عديدة مرت بي ومررت بها. المرأة التي أبحث عنها صارت محنة. لم تعد موجودة. ما جدوى الأمكنة إن لم تحتو من نبحث عنه؟ سافرت من جديد. لم أكن أبحث. ظننت أن عدم البحث الذي طال سيخلصني، نهائيًا، من البحث الذي استمر زمنًا طويلا، بعد الشتاء العاصف جاء ربيع هائف. شمسه ضئيلة. أمطاره لا تنقطع: أمطار لا تصيب زرعًا ولا تروي فرعًا (كما سبق لي أن أكدت من قبل). أمطار تبل الرأس وترطب القدم لكنها لا تنعش النفس. أسير تحتها بحياد مخيف. أمشي فيها وأنا أبصر مطر (الجزيرة) المهيب: المطر الحالولي الهدار، الذي يذري الماء ذروا. تسوق ريحه القطرات إلى أقاصي الأرض المملوءة أشواكًا. تحتل الزواحف والحيات بانتظار أن يكف المطر عن التوقيع. وحدي. كنت أتجلل بأغطية الصوف العتيقة وأركض لاهثًا خلف الزرازير: زرازير (الجزيرة)، ذات الهيئات الملكية وهي تمشي متبخترة، باحثة في المزابل عن الحب. الآن، علي أن أترك المكان. لا أحد يمر.

الشارع خال تماما. الشمس محجوبة بغيوم بلهاء شديدة الدكنة غيوم بليدة لا تتخلى عن مكانها: غيوم كسيحة لا تسير. لكن هذا الوجه الحاسر من أين نبع اللحظة؟ وجه شديد الأسف يخفي لوعة بادية الظهور. وجه بلا بصر. أدرت وجهي عنه، زورًا وأنا أتصنع النظر إلى القاع (فمنذ أن أحسست أنني لن أحقق ما أريد صرت عدائيا، مشاكسًا، ولا أحتمل أحدًا لا أحتمله). كنت أحس (بشكل عنيف) أنني لم أنضج، بعد (وهل يمكن لكائن أفرغ من محتواه أن يقارب النضج، يوما ما؟) وهو ما كان يدفعني، بشكل قهري، لارتكاب حماقة يصعب إصلاحها. الحماقة التي سأرتكبها – بعد قليل وكنت أهدئ نفسي ولكن إلى متى؟

(٢١)

بدأت أحوص في مكاني المغلق مثل فئران المختبرات: كانت المواجهة بيني وبينها تتحول، شيئا فشيئا إلى مواجهة بيني وبين العالم. كنت معلقاً في قلب العتمة المعلقة في سماء باريس. كانت الأضواء مرمية في الأسفل ولم تكن تلك الأضواء الباردة توحي لي بشيء. قطعت الأرض من المشرق إلى المغرب، لأراها، وهاهي ذي تتبدد في الفضاء، بلا معنى. أي شيء يملأ الأنفس بالعَمَه والإحباط؟ كانت الرغبة في التخلص من "تاريخي الشخصي" أو، على الأقل، التشابك معه، تركبني بلا توقف وما معنى أن يكون للإنسان تاريخ شخصي إن لم يستطع، عندما يستاء التخلص منه؟ ولم تمهلني طويلا. إذ قالت، بنوع من اللامبالاة.

–لو قال كل منا للآخر ما يفكر فيه، حقيقة، عنه لما صمدت لحظة في وجهي. ولتغير، ربما سياق" علاقتنا" (كما تسميها أنت)علاقة العبد بمن هو أكثر منه عبودية. علاقة فتح السراقين وضمهما ولكم أشعر بالأسف، الآن، لأنني لم أتصدك منذ

البداية. كنت أنا الأخرى أتصور أن الإنسان يمكن أن يشفى من غبائه.

ورأتني أتهدد مشيا فسكتت لحظة، ثم أضـ افت بقـ رف شـ ديد (وكأنها قررت أن تقول تلك الليلة المشئومة، كل ما يعذبها):

– بعض الأنواع (وأضافت بين قوسين) ومنها نوعك، يجب أن يختفي.

– لماذا؟ (طرحت على نفسها السؤال) وأجابت:
– لأن الماء الآسن لا يشرب وعلامـ ة الأسـ ن فيـ ك تـ رددك المستمر بين ما كنت عليه وبين ما أنت عليـ ه الآن. وكلاهمـ ا شر. وما نفع الإنسان الذي لا يغرف منه أحد غـ رفتين؟ كانـ ت تحكي. وكنت أتجول بين أضواء دمشق الزرق الباردة.

تحكي وأنا أتطلع بوهج واضطراب. كانت ظلمات الحرب التـ ي تملأ الشوارع مفعمة بالنور. ومرة بعد أخرى، أردت إسـ كاتها. ولم تقل:

– أعرف أنك كنت تحسب أنني كنت خرساء. لكن"فك" جسدي، هو الذي أطلق لساني نهائيا. ماذا أفعل الآن، وق د انف تح ك ل شيء؟ ولكي أغير ما كنا فيه، قلت "متأبيا":

– أخاف عليك إن تأخرت كثيرًا. أهلك، تعرفينهم أكث ر مني.

ورأيتها تستند على الجدار من شدة الضحك:

– يا إلهي، ما أغباك. أهلي؟

ولم تقل بعد ذلك، شيئًا. كنا وحدنا. وكانت المص ابيح الـ زرق المعلقة في أعلى أعمدة الطريق. تنفث، بتردد وح رص، بقاي ا نورها الذي خبا. ومن آن لآخر، يمر بنا بعض النسوة العجلات. لماذا كن يركضن. في ذلك الوقت البطيء؟

–لأنهن وحيدات. قالت. وهي تمد يدها اللطيفة إلي. ول م أك د أتحرك. ودون أن تنتظر مني تعليقًا، أضافت بتصميم:

–لا، لن أعود إلى البيت. لن أعود أبدًا.

ولأول مرة أحسستني وحيدًا، وهي تزهو بجانبي. كانت العتم ة الدمشقية، قد بدأت تتسلط على النور، وأحسست بجسدي ينهض

من غشائه الساتر. خوف. وتردد. وهذا الجمـ ـل الهـ ـائج كيـ ـف أعقله، الآن؟ وكأنها كانت تقرأ انبثاقاتي، رأيتها تلتز علي. تحط نفسها في أنحائي. وتأمرني، بتصميم:

-تعال. تعال.
-إلي أين؟ إلى أين؟ أجبت مندهشاً.

كانت فوهة البناء الحجري الهائلة تدعونا. ظلمة وخلاء.اتسـ ـاع غير محجوب.وباب دمشقي عريق. باب أسود ونظيـ ـف. بـ ـاب ولوجه سهل مثل الخروج منه، ماذا يمنع الفوت، الآن؟ وكأنها لم تكن قد فكرت بشيء من هذا كله دخلت فـ ـي الفضـ ـاء المظلـ ـم بهدوء، وأدخلتني. ماذا أفعل الآن؟ وقبـ ـل أن تسـ ـمع صـ ـوتي اللاهث، أحاطتني. وتحولت، كلي، إلى يد، يد صغيرة مملـ ـوءة بالشوق. (من أين نبع ذلك السيل الهائل من الشوق الكبيت؟ وأين كان يختفي؟) وتلمست أنحاءها. أي نحو منها كان أعذب؟ لم أعد أدري. كانت اليد التي صرتها تتجه عفوًا نحو"الشيء" المناسب، وكأنها ألفته منذ ظهوره. وأحسست بي أتلاشى. كان ذلك الفص الذي أثخن بجراحه، يغريني بطعنه أكثر.لا لم أكن أعرف، قبل

ذلك، أن متعة الإغراء لا تعادلها إلا متعة أن تدع نفسك تغرى.
وقبل أن أفصح نفسي، قالت، وهي تتلوى:
-آه، ما أروع أن أموت، وأنا حية.

وبشماتة ولؤم التفت خلفا. لماذا أدرت رأسي، آنذاك؟ وكيف خطر لي أن أستدير وراء؟ كنت أريد أن أستطلع ما بقي منك. كنت أبحث، في الحقيقة، عن بقية نور في قسماتك. لكن الظلمة الباريسية اللعينة لم تسمح للنظر بالوصول إليك. عتمة الشام القديمة كانت ناصعة؟ بلى! في ذلك المسار القديم أكتشفت كل شيء فيك، ظلمة، عرفت رؤوسك وخلجانك، لمسا. ولم تهتمي باقترابي المفاجئ منك. كنت تتكورين على نفسك وتنامين. ومع ذلك، اقتربت إلى حد اللصاق بك، ولم تفعلي من أجلي شيئا. لا لم تكن رؤيتك ممكنة، لا من بعيد ولا من قريب. وعدت أقترب من النافذة من جديد. كانت الأضواء تشر في فضاءات الطرق المحيطة بي.
- وبدأ سطح النهر أملس ورتيبا. على حوافه تتراكض السفن المملوءة بالضوء (ولم أر منك، رغم ذلك، شيئا) كدت أضحك، وأنا أفكر بصوت نصف- عال بما كان يجتاحني. آنذاك: "ما جدوى النور في الخارج إن كان الداخل مظلمًا؟" أنت، وهي،

وباريس والشام. كنت أريد أن أجمع، ذلك كله، أن أقابل بين النار والماء. أن أفهم أين أنا من ذلك الخليط المريب. الخليط الذي ابتلع، دون أن أدري حياتي كلها. لا لم أعد أريد حبًا. كنت أريد فقط، أن أفهم وأحسست أن رأسي يابس وعصي على الفهم وأنه سيظل كذلك دون مقارنة حقيقية، ودون مقاربة فعلية لجوهر الأشياء. لا لم أكن أفهم في عتمة باريس الرهيبة تلك لِم كان ذلك كله سرابا ولا لِم عبرني ذلك كله وعبرته دون أن أفقه من أمري (أو من أمره) شيئا (لم يبق من ذلك كله بقية). لكأنني وليد نبذ من رحم أمه بلا تاريخ. أيمكن أن تكون أركان الحياة الأساسية مؤقتة، وبلا مغزى، إلى هذا الحد؟ وكأنها لم تتم أبدًا، جاء صوتها من قلب العتمة واضحا وصريحًا:

– ألم تتعلم، بعد، أن أهمية " الشيء" تنبع من كونه مؤقتا، وأن مأساته تكمن في ديمومته المحتملة.

– لماذا؟ سألت نفسها. وأجابت:

– ليهتز عقل سكوني مثل عقلك لا يحس بالأمان إلا فوق خط مستقيم لكنك لازلت بعيدًا عن إدراك أهمية أنه ينقلب المرء "أو إذا شئت، الشيء" من حال إلى حال.

– بلى، لكنني لا أريده أن يصير أسوأ مما كان

ورأيت ضحكتها تنبثق في جوف الظلمة المحيطة بي:

–تقول أسوأ؟ أنت من يقول هذا؟ كلنا نصير أسوأ مما كنا عندما يمسنا عفن التطور. ألم تفهم ذلك، بعد؟ ولكن لماذا نصير أسوأ؟ (إن صرنا فعلا) لأن الآخر صار أكثر سوءًا ببساطة، إن كن ت تريد أن تعرف السبب ووجدت الفرصة سانحة لكي أعلق م ن جديد. لكي أوضح الأمر الذي كان يشغل بالي. لا، ما كنت أريد أن أقيم الحد على أحد. ولم أكن أريد أن أستخلص حكمًا مغرضًا أو مظلومًا. كنت أتمنى، فعلا، أن أستعيد ما مر بي لكي أفهم ه بشكل أعمق. كنت أشعر بخلل كبير في تكويني كلما أحسس ت بذلك الضباب يخيم فوق عقلي. وكانت تملؤني رغبة عنيفة ف ي دس يدي داخل قحفي من أجل تنظيف دماغي. كان كل ش يء يضحك مني، أو يضحك علي. ولذا كنت أريد أن أربط "الأشياء" بحبال لا تنفصم عراها. أربطها جنبًا إلى جنب حتى أراها معً ا وبنفس الوقت.

– لماذا؟ سألت مستهزئة.

–لأقارنها. لأقارن بعضها ببعضها الآخر، أقارن "كل شيء" بكل شيء. أقارن الحالات والأشخاص. أتتبع مس ارها ومس ارهم،

علني أفهم. ستضحكين، كعادتك، مني، إلا أنني لن أحيد عن هذا الهوس(كما تسمينه):هوس الإصرار على الفهم.

– لن تفهم برغم ذلك شيئا.

– لماذا؟

– لأن مقارنة الإنسان لا تصح إلا بنفسه. و حتـ ى هـ ذه، فـ ي الحقيقة، باطلة.

حل الصمت بشكل عفوي، في نفسي وللحظة، أحسست أن كـ ل شيء في كياني يتوقف عن الدوران. انطفأ اللهب الـ ذي كـ ان يشويني.

لحساب من أدفع بنفسي إلى الصدام، إلى الصدام مع هذه المرأة الخاتلة في الركن؟ هذا الكائن الذي لا ينبـ ئ ظـ اهره إلا عـ ن الهشاشة والعطب السريع. أستطيع، الآن، لو أردت، الإمساك به وتطويحه من أعلى برج على السين. (وإنني لأتسـ اءل، لـ م لا أفعل ذلك، ولم لا أفعله، فورا؟) ولم تدعني أتابع تخمراتـ ي، إذ قالت بلا ندم:

–أراك صمت. والصمت أسوأ الحلول. صمت، فعلا. كنت أحس أن التاريخ فارغ من " كل شيء" إلا من ثقلة الباهظ. لكان اللون الأسود، وحده، يتراكم ليكسو، فـ ي النهايـ ة، فضـ اءـ تـ اريخي

الشخصي، كله. عبرت العالم من دمشق إلى باريس وكأنني لـ م أبرح المرعى الذي نشأت فيه.لا، لم يعد الزيف كافيً ا لشـ غل النفس عن كبواتها. وعندما تبدأ النفس حسـ ابها العسـ ير، مـ ع "نفسها"، فذلك يعني بوضوح، أن مغريات الجسد لم تعـ د تفعـ ل فعلها السحري" الملطف" لبؤس الروح. كيف يمكن لإنسان وحده أن يقاوم حياة بائسة إلى هذا الحد؟ حياة بلا فرح. بلا ضـ حك. بلا عاطفة متأججة. بلا شبع حقيقي إلى حد التخمة. بلا جـ وع قاتل. بلا عطش مخيف. بلا طمأنينة. حياة كأنهـ ا مـ ن عهـ ن منفوش، لا تغطس ولا تفوش.

صرت أرغب أن تكون لدي رغبة حقيقية في التحطـ يم. لكـ ن مرغوباتي، كلها لم تعد ذات معنى. لماذا؟ (كدت أسال نفسـ ي) وقبل أن أسالها، قالت:

-لأن الرغبة الأساسية هي الرغبة في الآخر، لا، الرغبة في أن يرغب الآخر فينا، فحسب، وأنت لازلت فـ ي مرحلـ ة "وعـ ي الرضيع" الذي لا يبحث إلا عن رغبة أمه فيه. وليست الرغبـ ة في التحطيم التي تقتفز إليها، أيضا،إلا تعبيرًا عن بحثك العبثـ ي عن " حنان" أم أهملتك، منذ زمن طويل. ولا تريد أن تفهم أنني

لست أمك. لا تريد أن تفهم أنني، أنا الأخرى، كـ ائن " تحـ ت الضغط" كائن له أحلامه وأوهامه. وإني لأتساءل من أيـ ن لـ ك بعمى البصيرة، هذا؟

كدت أقول لك" إنك على حق في تقديرك للوضع، ولكنك علـ ى خطأ فيما يتعلق بشرحك المغرض له. " لماذا؟ لمـ اذا تصـ يبين الوجه وتخطئين القفا، لماذا؟" وقبل أن يصلك صـ وتي، كانـ ت الأضواء الكشافة تستدير.

ومن جديد، تستعيد إرسالاتها الصاخبة إرسالات الضوء العبثـ ي البارد. تنير جدران الأبنية الكئيبة المرمية على الضفتين، أبنيـ ة نام أهلها منذ أول الليل.

ناموا ليستيقظوا ركضا قبيل الفجر. ومثل الطيور التي أجبـ رت على ترك أعشاشها، سيتسابقون نحو الأنفاق المحشوة بالحركـ ة والأصوات. تلك الأنفاق التي ابتلعتنا معًا، عامًا بعد عام، لكأنك نسيت ذلك، كله نسيت نزولنا الحثيث، وصعودنا المتباطئ. كنـ ا نلجها فرحين. تلك الأنفاق التي صرنا نعرف الآن، أنهـ ا بـ لا "نهاية"–لماذا؟ لأننا كما نعتقد أن الحرية تتجسد في الدخول إليها والخروج منها بسلام. أن ندخل وأن نخرج بلا رقيب، ذلك بحد ذاته كان متعة.

(٢٢)

بدأ الضوء يصيبني. أحتميت بأصابعي منه. في لج ة الض وء العاتي، رأيت جسدها الصغير الرافض. الجسد، نفس ه، ال ذي حماني في غارات الشام العنيفة؟ ذلك الجسد الذي غدا، يومه ا، هائلا من شدة الالتصاق بي، والذي غطاني من الطري ق إل ى الطريق وأحاط بي وكأنني رقعة في ثوبه الكبير، رأيته الي وم، يرتمي مهملا ومنسيًا. يكاد لا يميز عن الأثاث المبعثر حول ه. وبلا مبالاة أدعه يهمد، وألاحق الأضواء التي اقتربت مني، حتى صارت جزءًا من جسدي الواقف بلا ح راك. ن ور ي دخلني، ويخرج مني نور وأعود سريعا، إلى العتمة من جدي د. الغ ارة مرت. والأصوات خمدت. ولم يبق في المحيط إلا فحيح الم رأة المقعدة العنيدة: " خسرنا الحرب؟ بلى. عليذ ا الآن ألا نخس ر الحياة". وأصير ألوك قولها الذي فاجأني، سرًا: " نخسر الحياة؟ الحياة، هي الأخرى قابلة للخسران؟" كنت لا أزال أقف في وجه الضوء الذي بدأ انحساره المفاجئ. وكنت تتجهين، هذه الم رة نحو الشمال. تضعين وجهك المعذب في وجه الجدار. ماذا كنت تخططين آنذاك؟ ولِم استدرت نهائيًا، نحو ذلك الج دار الوس خ

والموحش: جدار باريس اللئيمة؟ ولكنك لم تفصحي عن أهوائك. وعندما استعدت وجه امرأة الحرب المقعدة وحكاياتها، رأيتك تتململين وكأن نملا تسلق، فجأة، فخديك. وعبر ظهرك المظلم، جاء صوتك الخافت والحزين:

-لا تثقل كاهل الطبيعة بغبائك. ما يسئمني (ويسئمها، ربما) هي أسئلتك التي تتكرر ببلادة لا حدود لها. تتكرر وكأنها الشاهد المبين على أنك لم تتعلم من حياتك شيئا. يمكن أن يجهل الإنسان أشياء كثيرة، في حياته، إلا أن عليه، في نهاية الأمر، أن يعرف الأساسي منها. وأنت تجهل هذا وتكاد تجهله بإصرار. فمازلت تتساءل إن كانت الحياة قابلة للخسران. بلى. أقولها لك للمرة الألف. وكيف؟ (سألتها، نافذ الصبر):

- نخسرها عندما نصير نعتقد أن ما لا نستطيع تحقيقه هنا والآن، قد نحققه في مكان آخر وفي زمان آخر. وهو ما يخالف منطق الأشياء. فإذا كان يمكن "لكل شيء" أن يحدث، فإنه يمكن، في المقابل ألا يحدث أي شيء إطلاقا. أي شيء مما توقعناه. ماذا يعني ذلك (سألتها من جديد):

– يعني أننا يمكن أن نهترئ دون أن نتط ور. إنن ا يمك ن أن نموت دون أن نكون قد عشنا.

وأتلمس الجسد القديم: جسد الشام الطازج واللهاب. أتلمسه ف ي بحر أضواء دمشق الزرق الباردة. أضواء الحرب الت ي ول ت الأدبار. كانت صفارات الإنذار قد بدأت تبتل ع أنينه ا الح اد الممزق للأسماع. ولم تدب الحركة، بع د، حاول ت أن أرف ع جذعها الساقط فوقي، ولم أفلح. كانت تتشبث بي بمخالبها النفاذة، تفرج فخديها إلى أقصى حد، وتركبني، كم ا ترك ب الف رس حصاناً تشتهيه. كنا لا نزال في ذلك المدخل العريق. وكان ك ل شيء (أتذكرين؟) يتواطأ معنا. لا حركة، ولا ض وء، وفض اء جليل، أول الليل وآخر النهار يتقاسمانه، ونح ن بينهم ا عل ى اتصال. وهممت أن أرد، بعنف، عليها. إلا أنني سكت، دون أن أقول شيئا. كدت أسقط، من جديد، في مستنقع التبجح والافتعال. وهو ما كان يدفع بي غالبا إلى ممارسة " الكذب الصادق". م ا هو هذا؟هو أن أقول ما أعتقده حقًا، مع أنني أعرف أنه لا يستند إلى أي أساس من حقيقة. وهو في الوقت نفس ه، ل يس ك ذبًا، مطلقاً. لم أقل شيئا. ما جدوى أن أحول تذمري إل ى مبالغ ات سخيفة وبلا جذور؟ لا ويكفي. صرت أع رف أن م ا نكس به

بالكذب يمكن أن نكسب بالصدق أضعافه. وما علينا، ف ي ه ذه الحال، إلا أن نقاوم الاندفاع العفوي نحو"السهل المبتذل". كن ت أعرف أنك لا تتورعين عن "محاربة" كل ما أقوله، وكأنه حراب مسمومة موجهة، قصدًا، إليك مع أنه ليس أكثر من كلام يستحق القبول، كما يستحق الرفض. ورأيتك تضحكين، بصـ مت، ف ي عتمة الغرفة الباريسية، وأنت ترددين:

– الإنسان ثلثه من الطاعة وثلثاه من العصيان. ومع ك، أن ت صرت، كلي من هذا ولا تريد أن أتحاشي أي دفق يجيء منها.

وقبل أن أتحرك، قالت:

– كنت قبلا، أترجرج بينك وبيني. وصرت أتموج مثل موج ة تعلو. تعلو لتكمل وتكتمل لتتبدد. وتتبدد بلا أسف. لا، لـ م أع د أفهم لِم يتألم الإنسان عندما تتلاشى "موجاته"، في ح ين يف رح البحر بارتداد موجه العاتي إليه؟

– كنت أحسب أننا واحد. قل ت بس رعة، وأن ا أبتع د ع دة سنتيمترات عنها. كان فضاء الغرفة المحصور يمنع كل تح رر حقيقي. خطوة واحدة أو أقل، وأحس أني أنتق ل آلاف الأمي ال نحو التيه. أعبر الوهاد المسورة بشجر الـ بطم القاس ي. أدوس خلالها على آلاف الأشواك الوخازة. ومن قدمي يسيل الدم نقطا

وبشاشات. ولم أحفل بوجعي ولا بجروحي. كان الوقت مس اء وكنت ذاهبا إلى أقصى الأرض، إلى أي ن كن ت أروح، ذل ك المساء؟ ومن كان ينتظرني بوجه البيت؟ كانت رعدات الخ وف تخزني مثل أشواك مجهرية بدأت نزولي الحثيث إلى ال وادي. كان ظهره المنصلق كالرمان اللامع يملأ العينين. ظهر يرتك ز على قائمتين هائلتين. تحت الظهر المنكب على الق اع تنف رش البطن. بطن تطلق، بحرية لا حدود لها، أطرافها إل ى أعل ى، أعضاء بشرية أصبحت أشجارًا! ماذا كان يخفي الجبل ووديانه؟ ومثل القنفذ المطرود، أخفيت كياني. بلا تردد، تس لقت ش جرة البطم إلى أعلاها برهبة، صرت أتطلع إلى الكون المحيط ب ي: أعبر؟ كيف؟ بدأ الوادي الصغير الذ ائم تح ت أفخ اذ جب ل "عبدالعزيز" محيطًا لا يمكن للكائن عبوره على قدميه. أطي ر؟ كان الليل البري الناشف يبعث الرهبة في النفس. أذ ام؟ بل ى. جذوع وورق وأغصان. وأتمدد مثل فرخ الأفعى الشبع والآمن. أتمدد ولا أنام الليل، كله، حتى الفجر حتى التفارق، حتى تغادر الأعضاء بعضها بعضا، بلا ضجيج. كنت أمهد بذلك كله للتعبير عن خيبتي. خيبتي الأزلية. ولم يدع لي صوتك الهـ اجم مج الا ألجأ إليه:

– تاريخك ليس بالضرورة هو نفسه تاريخي. وإذا كنا نعيش معًا، فليس معنى ذلك أنه يتوجب علينا أن نحاسب بالمشاعر نفسها، وأن ندرأ نفس الأخطار وأن نقاوم نفس "الأعداء"، (أعدائك الوهميين). الحب (إن وجد) ليس حلولا وكذلك هي الحياة. الفراش المشترك لا ينتج بالضرورة (ولا يوجب، أيضا) تاريخاً مشتركًا. ألا تريد أن تفهم هذا؟

وكان نورًا ملأ رأسي، قلت بهدوء:

– بلى. لكن ذلك كله سخيف. هو سخيف لأنه يبدو حقيقة لا تقبل النقاش أو الاعتراض. لا، لا أريد أن أفهم. ولست أرى أية غضاضة في هذا ولم يتوجب علينا أن نفهم كل ما هو قابل للفهم؟ ثمة خلل في ذلك، ألا ترين؟ خلل أسميه" خلل الحقيقة الساطعة"، أو بالأحرى "خلل التناسق المستقيم" العقل لا يغذي، فقط، بما هو مفهوم، أنا لا أريد أن أفهم، فحسب، أريد أن أمتلك تاريخي، كما أمتلك فردة حذائي. وبعبارة أخرى: اختلافنا ليس اختلافا في الأذواق وإنما في الأحاسيس. أنت تريديني أن أقبل "وضعا جديدًا" وأنا أريد أن أستوعب جزءا من حياتي.

حل صمت غريب، في الفضاء الذي كان يحيط بنا، ذلك المساء. من صمت قبل الآخر؟ لا أدري. كنت أقرر في أعماقي: لا، لا يمكن للأمور أن تمر، بعد الآن بسهولة. وضوح هائل كان يستولي علي، آنذاك. وضوح جعلني أحس به (وكأنني أمسكه بيدي)، وبدأت أترنم مغنيا، في عتمة الليل. "وفجأة صار العالم، أسود مغميًا عليه. لماذا اسود العالم، فجأة؟ لأن سفن السواحل التافهة لم تعد تركب النهر؟ اقتربت، أكثر ما يمكن من النافذة، لأرى ما حصل في الخارج. لم أر شيئًا. صمت في الخارج وفي الداخل. التفت إلى الوراء لأراها: لم تكن، هي الأخرى، في مكانها، أين تراها اختفت؟ بدأت الحرارة الداخلية تنبثق مني مثل لهب البركان: لا، لم أعد احتمل اختفاءها. ولا وجودها، أيضا. ماذا كنت أريد منها، تمامًا؟ ولم تراني، أبحث وبمثل هذه الحمية عن كائن كنت أريد أن أقذف به، قبل قليل من الشباك؟ للمرة الألف أعدت السؤال في رأسي. كنت أبحث عن خط الكسر الذي لم يعد قابلا للجبر. وكأن الحريق الذي شب في ذاتي أصاب ما بقي مني ومنها وجدتني أصرخ. أصرخ بعنف: " قد أحتمل ألا أحب، ولكن أن أهمل؟ ذلك ما لن أحتمله، إطلاقا" وكأنها لم تغب، أبدا، وقفت كالعفريت في وجهي،وهي تقول:

لك أخلاق الغاشم وصفاته. تتعجب أنني لم أعد أهتم بـ ك، ول م أعد أحبك، وكأنني لم أخلق إلا من أجل هذا. كأن حبك مكت وب علي ومذ توقفت عنه، صرت خانة. لا خانة لك وحدك وإنم ا، وإنما لتاريخي الشخصي، أيضا، كأن تاريخي، أنا مؤسس عل ى حبي لك فقط، ولم تعد تكتفي بما يحصـ ل بينن ا الآن صـ رت تسترجع الماضي. ولم تسترجعه؟ (سـ ألت نفسـ ها وأجاب ت): لتؤنبني (إمعانا في همجيتك وعسفك)على أني لم أركـ ع عل ى قدميك منذ أن رأيتك. ألا تريد أن تفهم أن لكـ ل منـ ا تاريخـ ه الشخصي الخاص، وأنه يتطور حسب منطق هذا التاريخ وفـ ي سياقه، لا، كما يشتهي الآخر؟ ولم تكد تصمت، حتـ ى أضـ افت بتصميم:

–وأن الحرية (حريتنا التي يمكن أن نخسـ رها، أحياذ ا، لأتفـ ه الأسباب) ليست في أن أكون كما أنا عليه، فحسب بل أن أصير، أيضا وباستمرار، كما أريد.

(٢٣)

تاريخ الحضارة ه وتاريخ الأفراد أساسا. والهمجية هي ضد رب من تاريخ الجماعات. لهذا السبب " البسيط" صد رت أحد ب ألا تفوتني، بعد اليوم لمحة من اللمحات التي لا تحصى في حيـ اتي التي ستكون قصيرة. حياتي العبيطة التي ستنتهي قبـ ل مطلـ ع الفجر. هذه المرة، كنت أعرف، على الأقـ ل لمـ اذا سـ أموت. أعرف أبعاد اللعبة ومساراتها. كنت قد قررت أن أمسك حتـ ى آخر رمق بخيوط موتي. خيوط حياتي كانت، منذ أول العـ يش، بيد غيري ولم أكن مسئولا حتى عن تسليمها لهم. وتريدينني أن أحاسب؟ أن تحاسبيني أنت، إضافة إلى حسابهم، سيكون أمـ رًا بالغ الشناعة والاحتقار. ولكنك. أنت الأخـ رى، لا تريـ دين أن تفهمي هذا. لقد قررت اليوم أن أواجه كل من يقف في وجهـ ي. والذي يقف في وجهي، الآن. هو أنت. قررت ذلك باعتبـ ار أن المواجهة أفضل طريقة للهرب. ترى، ماذا يعني ذلـ ك بالنسـ بة لك؟ كنت تتعجبين، دائمًا:"لماذا لا تقول شيئًا جديـ دًا؟" وكيـ ف تريدينني أن أقوله، وأنا لم أقل بعد كل ما عندي؟ الجديد يحتـ اج إلى فضاء يسكن فيه. إلى كينونة يتفاعل معها. وإلى كائن قادر

على إخراجه إلى النور. وكيف يستطيع الكائن إخراج ما عند ه إلى النور، إن كان هو نفسه لم ير النور، بعد؟ صرت أعرف الآن أن ما أفتقده هو التصور المتماسك" للعالم" من جهة، ولدوري فيه من جهة أخرى. وهذا "الفقد" هو الذي يعطي لحياتي صفة الحياة الانتهازية، ولأفعالي صفة الأفعال " التي بلا معنى ". مأساتي، كما ترين (بالأخص معك، أنت) هي مأساة كائن " يبحث عن معناه" وتعلقي بك ليس أكثر من تعلق بحبل المشنقة المميت. بلى. عندما نبدأ انزلاقنا نحو الهاوية، نصير نتمسك بكل ما تطوله أيدينا. نتمسك حتى بتاريخنا السخيف علنا نحد من تسارع السقوط. لكن للسقوط قوانينه الخاصة به، أيضا. وهو ما لم يكن يخطر لي على بال. ولم أكن. لبلاهتي، أعرف أن الحياة هي وحدها مصدر ذلك، كله: مصدر الحقد والحقد المضاد. لا، لم أكن أعرف ذلك قبل أن أقع في مستنقع أخطائي الفاحشة التي لا تمتلك حتى معنى الأخطاء الحقيقية ومغزاها. أخطاء فارغة من المعنى؟ بلى إلا لم لازلت أصر على أن أكون "صادقا، مخلصا، وأمينا"؟ كيف تعذبني إلى هذا الحد " قيم" بمثل هذه السخافة والابتذال؟ لمن يتوجب على هذا؟ ولم؟ التفت، خلسة، إلى الخلف استدرجها إلى الكلام الذي لم يغادرها منذ أول الليل. وفي الحضيض تركت الأضواء النابعة من الأرض تسير

على الماء، أضواء باريس التي أصبحت، هي الأخ رى، بـ لا معنى. ولم أر شيئا غير الأنين المنبعث من بقايا الجسد المتهالك. الجسد الذي يستمر، بإصرار لا مثيل له، في مجابه ة الحي اة. عجبًا، أي سحر يجعلنا نتشبث مثل الديدان العلقة بمن لا يستحق حتى إن ننظر إليه، بَله إن نتمسك به؟ ولم نفتقد الشجاعة عندما تكون ضرورية؟ العالم كله (أقصد، كلنا) بحاجة إلى "شيء ما". وثمة ألف وسيلة لإشباع الحاجة. وإحداها الخضوع. ماذا أنتظر إذن؟ كنت أشم رائحة الانهيار تقترب مني وكن ت أرى سـ عف النخل العاقر يتهادى في الفضاء المكشـ وف. فضـ اء الجزي رة المملوء بإبر الشوك والخذلان. كان يقود الظعن وهـ و يمشـ ي حانيًا ظهره ومنكبيه. يسحل بتؤدة أقدامه الحافية مثـ ل أخفـ اف الإبل المتعبة. وأركض، كالسهم، حتى أصيبه. أجره من الشليل. أتفه. أريده أن يستدير. ولا يفعل. بيدي، كلتيهما، أحضن التراب الناعم. أحضنه وأذريه. ويجيء الشرر الناعم حتى لحيته الكثة، ولا يريم. فرسه الدهماء تطل تمشي لصقة، وكأنها قطعت على نفسها عهدًا ألا تخليه. بم كان يفكر ذلك الرجل المهيـ ب كآبـ ة، والذي كان أبي؟ كنا قد نجونا للتو من المختار وأنحائه. أين كنا نولي الأدبار؟ لا أحد يعرف (حتى الآن). كنا بحاجة إلى كـ ل شيء: إلى الماء والأكل والراحة والأمان. ولم يكن ثمة شيء في

بر الجزيرة الشامل آنذاك.الرجل يمشي. الظعن يمشـ ـي. الأولاد تمشي. النساء تمشي. الحيوانات تمشي كل شيء كان يمشي إلا أنا، أنا الذي امتطيت. مثل فرخ القرد المدرب، ظهـ ـره العـ ـالي الكبير وفجأة، نرى العجاج بعيدا. العجاج يقترب. يصير لصـ ـقنا يعمينا. عجاجنا يختلط بعجاجهم. وباختلاط العجـ ـاجين. يخـ ـتلط الرجال، من جديد. وأجدني، مقذوفًا على الأرض، أبكي. التراب وحده يلتم فوقي.

الرجل الهائل، الذي كان أبي، يركض. من بين الأقدام المتغالبة أميز، قدميه. أعرف التراب المتطـ ـاير بفعلهم ـا. ومـ ـع العـ ـج المنقذف، خلفًا أسمع الصوت: " يريدون أن يذبحونا". ومثل جمع الأفاعي الذي هوجم، بغتة، يلتف الرجال، بعضهم على بعـ ـض. يتكاتفون، يتحامون. وتبدأ الطواحين دورانها. ولا أسمع بعد ذلك إلا همهمة التوتر والاستياء: "كيف سـ ـلطهم الله عليناـ ـا؟"وكمـ ـن أصابه مس أحفز من مثواي. ألتقط حجرًا. أنطلق كالرصـ ـاص نحوه. أريد رأسه الكبير. رأس الرجل الذي ترجل علـ ـى أبـ ـي. وبحقدي، كله، أقذفه بالحجر. أقذفه وأصيبه.. أصيب أبي. أبـ ـي الذي انطرح بطوله على القاع.

وأرى الرجل المسعور ينهش. ينهش كالوحش أحشاءه وزواياه. وأحسه يتمتع بطعم لحمه ودمه الذي صار يسيل. وكأنها سمعت كل ماقلته (وما لم أقله، بعد) هجمت من سكونها علي:

– كل مواهبك (إن وجدت) تتضاءل أمام موهبة " النبش" لـ ديك أنت نباش قبور فعلا. الناس تحفر ولتردم وأنت تنـ بش لتفـ وح الروائح. روائح الماضي العفنة. تحيا وكأنـ ـه لا هـ م لـ ديك إلا استحضار الماضي. استحضاره لا لنقده وتجاوزه (وهو أقل مـ ا يتوجب عليك) ولكن "للتمتع" بما فعلت (وحتى بمـ ا كـ ان مـ ن الممكن لك أن تفعله وهما). لكأن الحيـ اة تمشـ ي عنـ دك إلـ ى الوراء. وبدلا من أن ترفع رأسك لتستنشق ريحًا جديـ دة، أراك تدفن نفسك،أكثر فأكثر، في مزابل ماضيك السخيف.

لا أرد. أتبع الرجل الآكل اللحم، أشوفه. أريد أن أفعـ ل شـ يئا. وقبل أن أصل النقطة المرادة يصلني الصوت.

–ما يذهلني عندك، هو أنك تتكلم عن الماضي وكأنك تتكلم عن "الحلم المنشود". فردوسك المفقود هو، في الحقيقة ماضيك. ولم

أسمع منك ذما له، أبدا، وإن كنت أحيانا" تتملقني" بسببه سبّا يثير الرثاء أكثر ما يثير الاستياء.

وأكاد أسمع أبي يناديني أسمعه ولا أرد. ألحـ ق الرجـ ل الـ ذي خطف قطعه منه وراح. أريد أن أستعيد ما خطـ ف منـ ه. أرده إليه. أرده ليراه بعينيه. كان الرجل الهامة يركض كالذئب الهائج نحو فرسه. وكانت الفرس تحوص في مكانها وكأنهـ ا تتلـ وع. فرس لو تركت وشأنها لركبت، هي، الريح.

الرجل الهامة لم يعد يعبأ بمن حوله. يهرول وهو يهذي:

"قتلت أكبرهم وهذي أحشاؤه بيدي" ودون أن أخططـ لمـ ا أفعـ ل (ولما لا أفعل) ختلت في الشعيب. وفهمت الفرس قصدي. فرس دهماء، كأنها فرس أبي، تمامًا، لوح الرجل الهرش عليها لـ وح وضربها محتقرًا، بعقبيه.

ورأيت دموع الدهماء تخر مثل نقط الدم. وبلا تردد جاءت بـ ه إلي. ومن مكمني الواطئ، أقب. ومثـ ل الـ نمس أنـ طـ. أنـ طـ، صارخًا: واع. وتصرخ الفرس معي وهي تعفص. تعفص،وهي تطير على أربع. وكأنه لم يمتطيها قط، كانت تحمحم فوقه، وهو تحتها بلا حراك.

وسمعتك تقولين، شبه هازئة: " حكيت لي ذلك عشرات المرات، وكل مرة تختلف الحكاية، فيها، عن الأخرى. أكاد أشك بما تحكيه " أنا أشك فعلا". ومن يلومك؟ تساءلت مستاء الإنسان يتدرب على كل شيء حتى على قول الحقيقة. ألا تعرفين، ذلك؟ ورأيت ابتسامتك اللئيمة تكاد تجرحني، وأنت تقولين: " وأنت لا تتدرب إلا على العناد، عنادك لإغراق ذاتك بالتفاهات "ولأن ذلك لم يكن واضح الدلالة (كما تصورت)، أضفت رأسًا:" كأنك لم تتعلم في حياتك إلا استبدال الغلطة بأخرى، أشنع منها" لم أقل شيئا. كنت تتكلمين وكأنك خرجت، توا. من " نفسي".

لا، لم يكن لديك أية شبهة في أقوالك. وكنت أظن (كما كنا نردد معا) "أن كل شيء قابل للقلب". كدت أذكرك بما كنت أقول، وبما كنت تقولين. ولم أفعل. لقد بدا لي أن كل شيء سيكون بلا معنى، في فضاء التوتر العنيف، والانحياز اللا محدود للذات. ووجدتني (من جديد) أستعيد كل شيء وحدي. أستعيده مضطرب الجنان:"دور الشك هو أن يوصلنا إلى اليقين" قلت منبسطًا. ولم يوصلني ذلك إلا إلى ضحكتك الهازئة، وتصحيحك السليم: " لا، يا غبي، دور الشك هو أن يخلصنا من اليقين" فرحت، وأنا أضمك، ضاحكًا، يومها: " من أين لك هذا؟" كانت

يدي تستقر، فعلا، عليه. وأحسست بانتباجه العاجي تحت أصابعي التي التهبت وكأنك رأيت أفعى تسعى قربك، صرت تتململين وأنت ترمين، متدللة، بثقلك اللطيف، كله، علي. وتبدلت، بشكل عفوي، انحناءه يدي، لتسمح له بالاستقرار الكامل عليها. وهذه المرة، أحسست ببرزخين ممتلئين من جمر. برزخان يتنافسان للفوز براحة كفي، كلها. لحظة محت كل ما قبلها من اللحظات. أكاد أستخلص الآن، وأنا أستعيد بعض ذلك الماضي، أن العاطفة مصفاة النفس، تنقي شوائبها وتصفيها وأن " العقل النفعي " البائس، الذي لم نعد نعرف كيف نعيش دونه، هو مصدر "كل الشرور": الشر الظاهر والشر الباطن، وما بينهما من شر. وكأنك أردت أن تقطعي الوصل، نهائيًا، بينما، قلت مشمئزة، من جديد:

–الماضي، هو الآخر، كالمستقبل، لا متجانسا ولا معصوما عن الهفوات. وهو مهما كان شأنه وعزته على النفس لا يستحق هذه البكائية المتجددة، وهذا الاعتصام المرضي" بمآثره" التي غدت ذكريات.

التفت، أنظر إليك. كنت أريد أن أرى التعبير المخيف وهو يتولد على قسماتك. أريد أن أمسك بك وأنت في حالة الروع. ولم أر إلا الظلام الكئيب: ظلام غرفة بـ اريس المعلق ة ف ي الس ماء وصرت أنتحب، وأنا أدق الأرضية بقدمي، متسائلا بامتع اض: "لماذا أنا هنا، وهنا بالذات؟" وكأنك لم تسمعي ما قلت، تابع ت" حديث الماضي"، موبخة، باحتقار:

–الحياة أمام، لا خلف. وإن كانت عجلات الماضي لازالت تدور فما ذلك إلا لتدفعنا، بقوة أكبر، إلى الأمام. لكنك لا تستخدمها إلا للتقهقر. متى تخرج من مصيدة التاريخ الرهيبة، هذه؟

العالم ليس هو" ذاتي"، وحدها، لكنه، بالتأكيد، ليس شيئًا آخ ر، كذلك. ماذا أفعل الآن. وقد كادت الأمور تتبلبل؟ تتبلبل بش كل نهائي، لا يقبل الانعكاس وجدتني أتساءل، بمرارة. "أين تكم ن بذور ذلك، كله، ومن حقننا بجرثومة الفشل والإحباط"؟ أضـ فت وأنا أتطلع حولي مرعوبًا.

صرت أحوص في مكاني. أريد أن أثقب الجدار الأصم وأخرج عاريًا في الريح. فكرة تراودني منذ أكثر من عشرين عامً ا،ولم

أتمكن حتى من مقاربتها. كنت أحس كأننا أجبرنا على الركوب في قطار لا يلائمنا، ولم نعد نستطيع تغييره. اقتربت، فعلا، من الجدار لأفكه، حين قالت هازئة(وهي تستعيد ما قلته، للتو):

–ليس أسهل من الأسئلة إلا توليد الأسئلة منها. المهم هو توليد الأسئلة من الحياة. إلا أنك عاجز عن هذا. فمازلت تعتبر أن الإنسان يمكن أن يكون في "وضع قوي" لاعتبارات شتى. ولم تفهم، بعد، أن " الوضع القوي" قوي بعوامله الداخلية.

وكأنها تلقت أمرًا سريًا،سكتت، فجأة، واستدارت إلى الجدار من جديد. صرت أخاف، فعلا، أخاف، لا، لأنها كانت تمس جروحي الخفية، أحيانا كثيرة، ولكن لأنني غالبًا ما كنت أمسك بنفسي متلبسة برضاء خفي، من أجل لا شيء. بلى، من أجل تحقيق بعض ما يرضيها. لكأنني صرت أقنع بمسرات الحياة الصغرى بعد تحطم مشاريعي الكبرى.

(٢٤)

لم يزعجني، أبدا، سكوتها هذا. لو حصل ذلك من قبل، لصرت أتملقها، طالبا عودة الكلام. كنت في طور أقبل فيه. آنذاك، ك ل ما تقول. كنت أحبها تحكي. لا، لأنها " تفهم" ما تحكيه، فحسب، بل لأنني، أنا الآخر، كنت أفهمه، أيضا. الآن، تبدل كل ش ي ء. صار الضياء الذي تلقيه كلماتها مجرد ظلام. الفهم هو الآخ ر، قبول. إنه علاقة عاطفية قبل كل شيء. نحن لا نفهم ما يقول من لا نحب. كنت في مرحلة التوهم والانتشار. وكانت الأمور ف ي بدايتها الهشة. كان كل شيء قابلا لكل شيء. كلام. كهذا، يب دو الآن خاليا من المعنى (وهو كذلك، فعلا) لكن المعنى ليس ك ل شيء في الحياة. كنت، آنذاك، في مرحل ة "جمي ع التواقي ع": مرحلة (لا تضف إلى أعدائك أعداء جدد).وكن ت بفع ل ه ذا المفهوم التنازلي السخيف، أحول" مزاياهم الصغيرة" إلى فضائل كبيرة يومها، كان الإغراء في متناول اليد. وك ان ك ل ش ي ء يوحي بأنه قابل للتجاوز والامتلاك. وأنه يكفي لتحقيق ذلك، أن نمتلك الرغبة في تحقيقه. وكأنها لم تترك فضائي. أبدا، ص رت أسمع من جديد ضحكتها الهادرة القديمة. ورأيتها فعلا (ك أنني

أراها، الآن) تحط إصعبها في بطني، وتعكسني، بانفعال: " لا، يا غبي (قالت وهي تضع نفسها في عيني) ضف دائما، إلى أعدائك أعداء جدد، هكذا فقط لن يبقى معك إلا أصدقاؤك الحقيقيون الذين هم حلفاؤك، حلفاء النزعة والمناخ.

هدوء مفاجئ يحل في الجسد وفي الروح. أحسها تنام بلى، أرى نومها الذي جاء متأخرا بعيني. أكاد أمسك به. هاهي ذي تلتف حول نفسها مثل الحية التي تعبت من الزحف على الرمل. رمل بارد بلا حدود. أستدير من جديد إلى النهر، أرى صفحة الماء الساكنة في الحضيض. من علقني في هذا المعلق الرهيب؟ وكأن عدوى النوم أصابتني، وجدتني أتكئ على حافة النافذة (التي سأسقط، فيما بعد، منها) وأحاول تسليم نفسي لسلطان النوم. ولا تقبل.

الماضي صار بعيدًا. وصار بإمكاني، الآن وأنا أتأمله به دوء. بهدوء وشغف. أريده.ولا أريده كما أراه الآن ولا أري ده كم ا كان. من منا تبدل؟ من منا يجب أن يتبدل؟ الماضي. الماض ي القريب والبعيد. كل شيء. كل حياتي. ذلك، كل ه، أس تطيع أن أجمعه الآن وأحطه على القاع قدامي. صرت أعرف كل ش يء فيه: حدوده. أبعاده. خصائصه. نقائصه. لكم تبدو مضحكة تلك الحياة. تلك الحياة التي كنت أخشاها. أخش ى لحظاته ا لحظ ة لحظة. كيف كنت أخشى الحياة إلى هذا الحد؟ أخشاها خش ية لا حدود لها ولا مبررات. وهل يبرر الخ وف إلا ب الخوف؟ الآن يبدو ذلك كله مضحكًا، مضحكًا إلى حد البكاء. حت ى الح ب، الحب المقدس نفسه كان مص درا للخ وف. الح ب بمعاني ه واشتقاقاته كلها: حب الوطن، وحب الأم وحب الم ال. وح ب الحبيب. الحب، بالمعنى المطلق والحصري، كان يثي ر النقم ة على الذات وعلى الآخر. لماذا؟ لأنه كان مصدر انشقاق. انشقاق ذي بعد مأساوي: "كيف يمكن للخائف أن يحب إلا على حس اب حبه لنفسه؟ " ونتيجة ذلك في النهاية هي الكره. ك ره المح ب

لمحبوبه، وانحيازه، أخيرا إلى أقرب الناس إليه: إلى ذاته. (ذاته التي فرغت من طاقة حبها: الذات الخاوية. كدت أقول الذات الخائفة) ذلك كله بعد أن كان يخيفني، لم يعد يغريني صرت كالراكب على حصانين يتباعدان، بعنف: لا يصل إلى غايته، ولا يتمتع بالركوب. ما يذهلني، الآن هو الشغف الأرعن الذي يسكنني. شغف يجعل كل شيء شفافًا، شفافًا إلى حد التلاشي. الآن صرت أفضل من المنافس. العدو الذي تفصلني عنه عداوة حقيقية، على المنافس الذي تجمعني به "صداقة" كاذبة صداقة لا يستخدمها إلا لتحويل " عيوبي الصغيرة" إلى نقائص لا تغتفر.

اكتشفت اللعبة متأخرًا؟ بلى. ولكن ثمة دائما مجالا لتعميق اكتشافاتنا. (اكتشافاتنا التي تبدو، غالبا مضحكة وشديدة البساطة بالنسبة لمن هم غيرنا). تغيرنا؟ وما المؤسف في ذلك؟ المؤسف ألا نظل معًا؟ لا. المؤسف، فعلا، هو ألا يدفعنا ذلك التغير إلى أن نغير بعضنا بعضا. لكنني أعرفها. أعرف السم الذي يجري في عروقها، أعرف كل شيء فيها. كانت تريد أن تتغيرها وأن أبقي، أنا كما كنت، وهو ما يبرر قولها المتكرر: "تغيرنا وصرنا بحاجة إلى أناس جدد". ومن قال لك العكس؟ كنت أردد "تلك المقولة". التغير لا يأتي بقرار. (بقرار يصاغ لفظًا) وهو لا يحاور من يعيقه، بل يتخطاه. وغايته ليست الاتصال بأناس

جدد (قد لا يكونون أكثر من زينة أخرى ف ي إط ار المش هد القديم) بل الوصول إلى حياة جديدة (حياة لا تقوم على تقطي ع العلاقات وإنما على القطيعة: على قلب المنظور، كله) كانت لا تزال تنام. وكان المجال لا يزال مفتوحا أمامي لإع ادة النظ ر بكل شيء. بكل شيء، بما فيه، جذعها المتهالك، قبل أن أس قط من عل في الموت.

(٢٦)

في الطريق إلى (أبو رمانة)،ظلت صامتة. صامتة مثل الموت. كنت أرى في نهار الصيف المثير ذاك كل شيء فيها: لهفتها الكتوم، وتوترها اللاهب وانشغالها. لم أقل شيئا. لم أكن بحاجة إلى كلام. كنت بحاجة إلى حركة (كنت أفكر: كلام بلا معنى، لا معنى لقوله). كان جو الحرب يختلط " بجو الحب". كانت "مقولة الحب الخفي" (من أين تعلمتها؟) تملأ كياني. لم أكن أريد أن يشاركني أحد مشاعر حبي، حتى "موضوع الحب" نفسه.

كان الشام غارقا في الشمس. والشمس تثير كل شيء، تجعله أسود، معتقا ومملوء نبضًا. وفجأة تلتصق بي. تحضن بكيانها زندي. زندي الذي غدا جزءًا منها بعد أن كان جزءًا مني. ولكي أقربها أكثر ثم أكثر: أقرب وجهها من وجهي، وأشد يائها من أشيائي، كان يكفي أن أرفع زندي. أحسستها تعلو. تعلو كريشة في جناح تلحق به وهو يطير.

– أريد أن.....

انفجر القول في رأسي، وكأنه قنبلة من قنابل الحرب.

– متى؟ وإلى أين؟

لم أكن أتوجه بالسؤال إليها ولكن إلى نفسي. كن ت أعتق د أن للجسد فضاء خاص به، وللكلام " الحقيقي" كذلك وأن اخت راق ذلك الفضاء " المحكم السد"، لا يمكن أن يتحقق دون ثغرة ف ي بنيته الداخلية. شعور محبط، شعور كان يملأ نفسي وأنا أستمع، مبهوتًا، إليها: شعور العاجز عن اختراق " بنية " لم يكتشف بعد ثغراتها. وقد أقول: شعور اللص الذي تعود أن يس طو عل ى ممتلكات الآخرين. وقد وجد " ما ملكه" بشق الـ نفس، يري د أن يطير (ببساطة) من بين يديه ودون أن يسرقه أحد آخر، حتى. – لا.

ولم يستمع أحد إلي، حتى ولا أنا. أزيز الطائرات التي اخترقت، فجأة جدار الصوت فوق (دمشق) ابتلع ك ل ش يء ووج دتني أحميها بجذعي الذي غطاها من الذيل إلى الذيل. لا، لـ م أك ن خائفا عليها. كنت أريد أن أحميها حتى أستطيع ف ك الحص ار، حصارها عن نفسي، أتطلع، بارتباك حولي وأبحث عن المنف ذ الخبيء. شوارع (المهاجرين)، كلها خالية لا أحد غيرنا. جسدان مضطربان يتحركان بلا انقط اع. يتحرك ان تح ت أش جار الياسمين، وأزهارها البيض الناصعة ومن حين لآخ ر بع ض أشجار الزيزفون بأزهار صفر فاقعة.

هنا. لا، هنا. لا. هناك، في المختل الجمي ل. ب ين الش جرتين هاتين. تعالي. لا. بلى، تعالي. أتملاها. أبحث عن موقع الغضب فيها ولا أحد. أحيط بأركانها. أريد أن أقع على النحو الذي مذ ه تنطلق العصارات. لا، لم تكن تنظر إلى السماء لتبح ث ع ن الخطوط التي خلفتها الطائرات، فوقنا. ولم تسد أسماعها ح ين اخترق جدار الصوت. أيضا. كانت هفهفة ثوبها الحرير تتطاير مثل خشخشة عصافير تمشي فوق ساحة مملوءة بالح ب. ف ي الحقيقة، لم أكن أبحث عن أي من هذه العلامات السخيفة، كن ت أريد أن أدرك سبب "الانفصال" لا، الانفصال الظاهري، فحسب، بل الانفصال العميق بينها وبين المحيط. لماذا لا تهمها الطائرات ولا غاراتها؟ الشوارع الخالية لماذا لا تثير أسئلة لديها؟ الحرب كلها الحرب بحربها لماذا لا تبعث أي توتر في ملامحها؟ لا، لم أكن أبحث عن سبب "الانفصال"، بل عن أعراض " اللامب الاة" لديها لكنها ليست لامبالاة نفعية، بل هي (كما بدا لـ ي) موق ف فلسفي من الحياة وحواشيها. إلا أنها لم تكن توحي إطلاقا، بـ أي شيء يمكن أن يدفع من يعرفها إلى مث ل ه ذه الاس تنتاجات "الغريبة" عنها. ماذا أفعل، وقد أصـ بحت، الآن، ف ي متن اول الحشى؟ وقد احتلت كياني كله؟ كنت عاجزًا في حقيقة الأم ر،

عن حل معضلة صغيرة كهذه. لماذا كنت عاجزًا إلى هذا الحد؟ كنت أقابل بين "انفصالها" العلني الواضح. الانفصال الذي تخطى مفهوم " التأثيم" والذي يوحي، بقوة، أنه لا يعرف " وربما لم يعرف وأبدا " تأنيب الذات، كنت أقابل بينه وبين "حالة الدمج" التي كانت تفعم ذاتي، كلها. لم أكن أتصورني، بعد، منفصلا عن الشوارع، عن الماء والأحجار والناس الذين يحيطون بي. كنت أعيش حالة دمج "عفوي". أريد أن أقول "دمج حلولي كامل وغير واع، على الإطلاق". جمع غير مفكر فيه. ما أثار فضولي، في هذا التقابل، هو مبدأ "الكف عن الفعل" عندي. كنت أكتفي، في الواقع بإحساسي هذا، لكأن الإحساس يغني عن المبادرة. كنا نقف متواجهين. ولأول مرة. رأيت جسدها المكتنز الصغير يكاد يطير، وأحسستني أمد يده إليه ولا أجد أثرًا. بعنف غير مسحوب دفعتها (وكنت أظن أني دفعتها قليلا). ورفضتني: لا. ليس بهذا الشكل. ولا في هذا المكان. وتساءلت (بنوع من اللامبالاة): عندك شروط؟ (كنت أحسب أن الجسد الذي قيد مرة إلى الفراش سيقاد كل مرة نرغب فيه). وأجابتني بحدة ووضوح: عندي شروط كثيرة، بالتأكيد عندي شروط. تتعجب؟ وكأن الموقف لم يكن يقتضي مني إلا أن أحرك لساني، قلت: أما أنا فليس عندي شروط وأبدا. (وأضفت متبجحًا)

ولا محظورات، أيضا. كل ما تصل إليه يدي قابل للاخ تلاس. (ووجدتني أمتلئ سعادة بالفكرة الأخيرة التي غلبت على لساني) وأكدت رغبتي، من جديد: بلى، هنا. وهنا بالذات. لصـ ق هـ ذا الجدار. وتحت شجرة الياسمين.هذه، وبدأت الأمور تختلط، لـ م أعد أرى إلا الجدار الذي غدا عاليا جدا، كأنه كان يصعد قصدا إلى السماء وجذع الشجرة الخضراء ذات الأزهار التي غـ دت، فجأة غريبة الشكل والرائحة. أزهـ ار تلوثـ ت بعطـ ر أحمـ ر، وكساها، كلها، سائل مريب. وأنت، وأنا الذي لم أعد أقف علـ ى الأرض. كنت تحدقين في وجهي بنوع من القرف والخوف. ولم أكن أريد معاودتك. أتذكر، الآن كنت تحدقين مرعوبة في وجهي الذي كساه عرق أسمر وكبير، وأنت ترتعدين: أنـ ت مجنـ ون، بلا شك. أنا مجنون؟ ضحكت هازئًا. ولم تضحكي بعنف، مددت يدك إلى الغصن الطري المقاوم. وقصفته قصفا. وصار دمـ ك يسيل. وكأن عقربًا لسعتك وصرت تمصين دمك مصـا. مصـ ا. تمصينه وأنت تنظرين، بلا مبالاة إلى النسغ الذي كـ ان أيضـ ا يسيل.

(٢٧)

ظلت الأشجار واقفة وبدأنا نسير. نسير من شجرة إلى أخ رى. كنا نبتعد. يبتعد أحدنا عن الآخر؟ ومن جديد، جاء صوتك. كنت تريدين أن تقولي شيئا وسألتك: أتريدين حقا: وهززت رأسك ولم يتح لي أن أرى حركة الرأس المدور. كنت أه زك: انظ ري. انظري. كان الجسد المعدني يحوم فوقنا. وفوقنا تمام ا، أطل ق حزمة الصوت الرهيبة، وغاب. وبدأت الناس تـ ركض. ك انوا يركضون مثل جمع الأرانب الحائضة. ولك ي ألف ت انتباه ك صرت أقهقه. وتساءلت بدهشة: لماذا؟ قلت: انظ ري. حرك ة الناس الراكضين من الخوف، حركة بلهاء. لا توج ه لها. ولا قاعدة، ولا هدف. تكاد تكون مجرد حركة. حركة عشوائية. وما الغريب في الأمر؟ قلت، وأنت تسترين فخ دك الـ ذي لامس ه الضوء، فجأة.

لم أكن ألم، بعد، بسر تلك الحركة وقوتها. ق وة الحي اة التـ ي تواجه، في وضح النهار، نهايتها المحتملة. كنت بحاج ة كم ا أدرك الآن، إلى فهم كثير من الحركات. (الحركات التي كان ت تبدو لي بلا معنى، والتي سأظل أكررها زمنًا طويلًا) كنا نقترب

بهدوء من (الروضة)، المكان الذي سأتركك فيه. والذي ومنذ ه سأعود أدراجي ماشيا حتى أطراف حي (المزة) الملقوح بعيدا. عالمان التقيا، برهة، وافترقا. لكأن أحدنا لم يكن قد عرف الآخر، أبدا. وما أن بدأت تصعدين الدرج المرمري، هازة ردفيك الصقيلين، حتى لبست وجهي الحقيقي، بعد أن خلعت القناع اليومي عنه وكأنني التقيت بنفسي، بعد طول غياب، صرت أتنفس ضاحكًا بصوت عال، يسمع من بعيد، لأول مرة أحسست أن للهواء طعما آخر. طعمًا يشبه طعم "قرنفل" الجزيرة القديم. ملأت رئتي منه. وكأنني أريد أن أغسلهما من الهواء الآسن الذي كنت أعبه، معك قبل قليل.

ولجت الباب دون أن تستديري. دون أن تلقي علي نظرة الوداع. كنت أتوقع كثيرا من "الحركات" منك. كنت أحسب أن اختلاط المفرزات يعادل اختلاط النفوس، ولم يكن الأمر كذلك أبدا من قبل، لم أكن آخذ المسألة مأخذ الجد. الآن صرت أخشى أن أكون فعلا غبيًا كما تدعين. ورحت أستعيد كل شيء مر بي، بدأ الأمر يقلقني، حقا. لماذا يكون الغباء مفروضا علي، والذكاء من حصة الآخرين؟ ورأيتك تتلوين ضاحكة وأذت تسدين فمك بيديك: يا إلهي، ما أغباك. وأحسست بي أحيط بك من الطرف

إلى الطرف. أريدك أن تعرفي أنني هنا. أنني أدخ ل وأخ رج. وأنني كل شيء. وكأنك عرفت ما كنت أريده منـ ك، تس ءلت مستاءة، وأنت تطردين عيني عن عينيك: ماذا تريد مني أكث ر من ذلك؟ وكأنني لم أكن أنتظر إلا سؤالك السخيف، هذا، قل ت، فورًا: أريدك أن تجيبيني وبدأت ضحكتك ترن في آفاق دمش ق الصامتة:" اللهم هذا قسمي فيما أملك، ف لا تحاس بني فيم ا لا أملك".

لم أكن أبحث في الحقيقة عن الحب. لا عن حبك ولا عن حـ ب أحد آخر– ما كنت أبحث عنه هو التعلق المستمر. ولكن ل يس التعلق المجاني، ولا بأي كان. كنت أصطاد طرائدي، ومن بعد تصطادني هي.
تلك، لم تكن "وسيلة عيش" عندي، بل "طريقة حياة".وه و م ا أوقعنا في سوء تفاهم مستمر. لم أكن أقبل أن أستقل ع ن أحـ د أوقعه في شباكي، ولا أن يستقل هو عني، حتى عند ما تك ون "العلاقة" عابرة وسطحية. مسألة "الحيز الذاتي" كان ت تع ادل عندي الخيانة. أتكون العشرة الطويلة لواقع شديد العس ر، ه و مصدر ذلك " التمسح" الكاذب بأعتاب الآخ رين ؟ ول م كن ت أرضى أن أنفرغ كالدلو دفعة واحدة بين يـ دي م ن لا يهم ه

لا امتلائي ولا انفراغي؟ كنت، وأنا أختل خلف شجرة الحـ ور المواجهة لدرجك المرمي الذي تصعدينه كل مساء تحت مراقبتي السرية، أريد أن أفهم ذلك كله ولكن كيف الوصول إلى فهم سليم وبأية الوسيلة؟ كدت أتساءل إلا أن الليل الدمشقي الـ ذي حـ ط بهدوء، ولكن على عجل، آنذاك، غيـ ر سـ ريعًا كـ ل شـ يء: العواطف والاتجاهات ومسار النظر الذي أخذ يضيع في الدماس والأسئلة التي كانت تظل مساء بعد مساء بلا جواب. بلا جواب شاف. لم أكن أدرك بعد، أن الكائن(مهما كان اسمه) بحر. بحر له أمواجه، شواطئه، وإعصاراته. بحر مليء، مليء بكل شـ يء بما فيه أنا نفسي (أنا الذي كنت أتصورني غير موجـ ود عنـ د غيري)، وهو ما كان يحقق لي نوعا واهمـ ا مـ ن الاطمئنـ ان: الاطمئنان إلى أنني سأجد نفسي حالما أبحث عنها وأنه سـ يكون بمقدوري أن أنتزعها ممن أستولي عليها (ولو بالحـ ب) كنـ ت جاهلا وأحمق وكنت ،لابد، تعرفين ذلك، وإلا لماذا كنت تفتحين نفسك أمامي وكأنك تفتحينها امام كائن لا يبصر؟ وتتكلمين بـ ـلا حرج قدامي وكأنك تتكلمين في حضرة كـ ـائن أعجـ م. والثقـ ة العمياء بالنفس (كما تعرفين الآن، وأعرف) لا تولد من وسـ عة العلم بل من ضآلة المعرفة.

وإذن، لن أكون الوحيد الذي سيموت "بـ داء الاعتـ داد الكـ اذب بالذات" كثيرون، غيري، سيقتلهم الداء الفتاك، هذا، وأولهم أنت. لكن الشوارع، شوارع دمشق الجميلة لم تكن آنذاك تظهر الـ داء اللعين للعين. للعين " الغشيمة" مثل عيني.

(٢٨)

في الحالات المعقدة تلك التي تأخذ، لشدة تعقيدها، شكل الحالات الشديدة البساطة تصبح " التفاصيل التافهة" هي المهمة. كنا نتلاقى، في الحقيقة وسط حقل من الألغام، ظنناه، (لفرط براءتنا) حقلا من الورود، ذلك المساء، كنت وحيدًا. لم أكن مضطرا، إذن لتزييف نفسي أمام أحد آخر. أحد أريد استيعابه، أو أريده ألا يكتشف عيوبي (وكأن العيوب التي كنت أتحلى بها كانت عيوبا حقيقية وتخصني أنا وحدي) لا، لم أكن أعرف، بعد أنني سأزيفها حتى ولو كنت وحيدًا مع ذلك سأحكي لك ما خطر لي، آنذاك كنت أقسم العالم قسمين: أنا وحدي قسم، وما بقي، كله قسم آخر (بما فيه أنت). وكنت أجدني مختلفا عنكم، وأنتم، كلكم متشابهون. عالمان لا يختلفان اختلافات سطحية فحسب، بل يختلفان اختلافات أساسية في التفكير والتعبير والعاطفة. وهو ما كان " يمنحني" حق التلاعب بالكلام (كنت أظنه امتيازًا). ولهذا السبب، ربما كنت أقف منك موقفا حاسمًا وعدائيًا (حتى وأنت في) لأنني كنت أعتقد أنني هكذا أصيب الآخرين أيضا. وكثيرا ما كنت أردد، حالما تديرين ظهرك لي "هؤلاء، كلهم متشابهون.

وما ينطبق على أحدهم ينطبق على الآخرين، جميعً ا". وكن ت أهدئ نفسي، أحيانا "لكن ذلك تعميم. وكل تعميم خاطئ" وكن ت أضيف بسرعة، متباهيًا: إلا هذا التعميم، نفسه (أي التعميم ين، كنت أقصد؟ تعميم ثبت الشبهة وما تج ره عل يكم أم تخط ئ التعميم، بإطلاق؟) كنا نلتقي ونفترق، ونفترق، غالبًا لئلا نلتق ي من جديد. كان خبث النية الذي كنت أتمتع به يحقنني بنوع م ن التواطؤ العجيب مع ذاتي. كنت أتصرف وكأنني ف ي ص راع خفي مع المحيط، لا، كأني أحيا فيه. لم أكن قد أدركت، بعد، أن معنى تصرف ما (مهما صغر شأنه) هو معنى الحياة، نفس ها، وأن علي أن أوجه تصرفاتي مهما كان ت ص غيرة، وض ئيلة الشأن. كنت، على العكس من ذلك، غالبًا ما أحفز تاركًا مجلسي متباهيا بلا ندم: "لماذا نتراجع إذا كان بإمكاننا أن نتق دم أكث ر "وكنت تنهرينني: لا تكن سيئا إلى هذا الحد" وكنت أجيبك (وأنا أضعك في خانة الآخرين وفي مستواهم، نازعا من قلبي هب اب العاطفة العابرة): "لا توجد حدود بين الأسوأ والأفض ل. وم ا شاكلهما من صفات لا معنى لها، الحدود الحقيقة هي التي تفصل النجاح عن الفشل. عيوبي الخفية تلك كانت تقابلها عيوبك (أكاد أقول عيوبكم) العلنية.

وأحلامي كانت تتحطم على صخور أفعالكم. لم يكن بإمكانك أن تدركي قوة الحقد الذي كان يملأ نفسي. القوة التي كنت تحسبينها حبًا لا يقاوم. وهو ما أوقعك في مصيدة "العاطفة المقلوبة". ولكن ما الذي يعنيك في نهاية الأمر، من هذا كله، إن كانت نتيجته " متعة جسدية أقوى " وارتباط "مصيري" لن يفك (قبل أن يعرف أحدنا ما يخطط له الآخر)؟ وهو وأمر غالبًا ما ستطويه، في طياتها أمور أخرى إلا أنني كنت مصمما مع ذلك على الاحتفاظ بجذوة حقدي مشتعلة حتى الموت، إن ما بينا ثأرًا: ثأر المقموع من القامع.

لا. كل ما قلته، في الحقيقة، لم أكن قد فكرت به، من قبل. لم أكن، ربما، أعيه بمثل هذا التصور والوضوح. ولكن أول يس، هكذا، ينضج الإنسان؟ ومن حال ينقل إلى حال؟ كنت أريدك أن تتواطأ معي ضد هؤلاء. ضدهم جميعًا، بما فيهم أنت. أن تسلميني لا، مفاتيح جسدك وقلبك، فحسب، بل مفاتيح رغباتك أيضا، وفهمت أنني كنت أطلب المستحيل حين قلت، وأنت تنظرين إلى الغروب السماوي المنحدر نحو الأرض: أريد أن..

كان جسدي لازال مشدودا إلى القاع. وقدماي لما تتركا الأرض، بعد. والطائرات تحوم في أعالي الشام. ولم أجد على لساني

سوى الدهشة والعجب: تسافرين والدنيا في خط ر؟ ضـ حكت وأنت لصقي دون أن تقولي شيئا. وهو ما زاد عجبي عجبًا. لو كنت أنا لاستفضت في شرح العلل والأسباب، ولسقت كثيرا من المبررات التي هي نفسها بحاجة إلى تبرير عادتي السيئة التي لم تكسبني إلا أعداء حاقدين، أو أصدقاء مهملين. ليس المهم كيف نتصرف (أو ننفعل) عندما نهاجم (إذ أننا غالبا مـ ا سنخسـ ر)، المهم (وربما كان الأكثر أهمية على الإطلاق) هو كيف سندافع عن أنفسنا وبأي سلاح، عندما نهجم نحن، هذا ما فهمته، فيمـ ا بعد من ضحكتك الصامتة. ذلك المساء.

قبل قليل، كنت أخطط لنسف علاقتنا المزيفة من أساسها وجـ اء قولك المفاجئ لينسف فعلا ما كنت أريد نسفه في ذهنـ ي. إنهـ ا الحرب إذن؟ حرب "التخلي". التخلي عن كل شيء نراه ونلمسه ونحسه. التخلي، ببساطة عن الآخر" لا عن جسده فحسب، بـ ل عن أحلامه السرية، أيضا" لكنني في جو الحرب الحقيقية الدائرة فوق رؤوسنا، آنذاك لم أكن أفكر أبدا في نفسي. كنت أريـ د أن أربطك بالأرض التي عليها تمشين وأجرك إلى اكتشـ اف قيمـ ة أشجار الحور العالية التي كانت تحمي بظلالها شارع "بيـ روت" الطويل، من الشمس، والتي تحت أغصانها انسدلنا يوما بعد يوم،

لم أكن أريدك أن تنسي، ببساطة، ملمس يدي التي كانت تتسـ ـل، تحت ثوبك المتطاير لتلم شعر عانتك، قبـ ـل أن تلـ ـم (بثغـ ـرك) الرطيب. الثغر الذي ما إن أمسه، حتى يبتسم لي فارجا "شفتيه"، بتباطؤ، ولعابه يسيل. كنت أريدك ألا تنسي شيئا وعلى الأخص (شجرة الأركان) المهيبة. شجرة (ساحة يوسف العظمـ ـة) التـ ـي ظللتنا مساء بعد مساء والتي تحتها، تماما، أسلمت روحك للرب. وصرت ألمك لمًّا من يديك ورجليك، قبل أن يصـ ـلنا شـ ـرطي حراسة الأركان. لماذا كنت تريدين أن تهجري كل شيء وكأنك لم تعرفي منه شيئًا؟

باغتني، في الحقيقة قرارك. كنت أريد أن أقولـ ـه أنـ ـا قبـ ـل أن تقوليه، لكني لم احتط للأمر من قبل. ماذا بوسعي أن افعل الآن غير تتفيه ما قررته؟ ولم أكن أعرف أنني بفعلي هذا لا أخسـ ـر "صديقا" محتملا، فحسب، وإنما أكسب بالتأكيد عدوا لا يمكـ ـن، بعد اليوم، استيعابه.

كانت الشام تحترق. وكنت تريدين أن تهجري كل شيء وتبتعدي أقصى ما يمكن. من كان يستطيع أن يتخذ قرارا كهذا، غير من أدار، من قبل، ولمدة طويلة مثل هذا القرار فـ ـي رأسـ ـه؟ مـ ـا أخافني، حقا هي هزة كتفيك اللامبالية؛ وكأنك كنت مرتبطة بعقد

سري مع الشيطان. ولم يسعفني الذكاء (الذي كنت أعتقد أنن ي مزود بقدر كبير منه) على حل ذلك اللغ ز المثي ر: " ام رأة، وتتصرف كما يتصرف الرجال". كان رد فعلي غبيا" كما أعرف الآن" إذ أحطتك بذراعي واضعا فيهما كل ما أملك من حنان.

ولشدة دهشتي أنك لم تتفاعلي، ولم تنفعلي لحناني (الذي لم يكن كاذبا هذه المرة) كنت قد قررت إذن، أن تتابعي الس ير (كم ا بدأته) وحيدة حتى النهاية. ولكي تواسيني،ربما (وربما، لا) قلت بكثير من البراءة والصدق: "وما يمنع، مع ذلك، أن نلتقي؟" لكن تلك اللحظات الشديدة القصر، كانت كافية لتفجير" الطفرة" الت ي كنت أنتظرها دائما، في نفسي. إذ وجدتني أقول، بتصم ميم:" لا. ليذهب كل منا في طريقه. وإن شئت أن نلتقي فليكن اللقاء على أسس جديدة: أسس لا علاقة لها بالحب، والإخلاص وغيرهم ا من أسس حياتنا السخيفة، الأسس المرتكزة عل ى الاس تمرارية والركود". لحظة. لحظة مشهودة من " لحظ اتي" ض اق فيه ا بصري عن العالم، كله، واحتواها، هي، وحدها. كنت أنظر إليها متحديا أريد أن أرى ما فعله الكلام فيها. كنت أعتقد أن ما قلت ه سيدفعها إلى تغيير رأيها لا في أنا، فحسب، بل في الحياة أيضا، لكنها ظلت صامتة، تنظر بحياد إلى ش جيرات الح ور الت ي غرست، ربما بالأمس بين أمهاتها. وظللت صامتًا، كذلك. كنت

أشاجر العالم في رأسي، أصالحه في الواقع، مـ اذا يمنعنـ ي أن أفعل العكس، الآن؟ كنت أردد صامتًا وأنا أحاول، أن أرى بعين (والعين تخطئ قبل الأذن أحيانا) آثار "المفهوم" الذي دافعت بـ ه عن نفسي قبل قليل عليها. ولم أر سوى مشروع ابتسامة هازئة (أعرفها جيدًا) يبدأ بالتكون، في فضاء الغروب الفضي، علـ ى شفتيها. غروب " دمشق" الذي بدأت طلائعه تغزو الأفق.

(٢٩)

دخلنا معًا. ومعًا كنا نسمع (الأركان) تتهـ دم، وقـ وام الأشـ ياء يتكسر كان كل شيء حولنا يذوب. (القبو) وحده، أتذكرين، ظل قائمًا لا شيء غير جسدك الصغير الخـ ائف لصـ قي. الأرض ترتج. السماء البيضاء تدخن. بأحاسيس شتى يمكن أن نتمتع بها بلا حدود. حتى بأبسط الوسائل، وأكثرها "بدائية". حتى عنـ دما يعتقد (الآخرون) أن بإمكانهم أن يحرمونا من " كل شيء" (بمـ ا فيه الحق في الحياة). اثنان في قبو دمشقي رطـ ب ومهجـ ور. والناس مطمورة من الرعب، أتكون الحياة شيئًا آخر غير هذا؟

– تعالي، إذن، تعالي

– لا، اهدأ. إنها المرة الأولى. إنها المرة الأولى فعلا.

لم يكن ثمة ما يدعو إلى الهدوء. كل شيء حولنا يتكسر. كنـ ت ألمح هشاشة الحياة وقوة جاذبيتها. من أنا، حتى أهدأ؟ ومن أنت حتى تحولي دون فيضان الرغبة المحمومة؟ من منا كان يريـ د أن يموت بشكل مجاني، كنا نحسب (ولغفلتنـ ا) أن العـ الم فـ ي متناول أيدينا وأنه من غير الممكن ألا نعيش بوئام خالص معه. كنت أردد مبهورًا، على مسامعك (وأنا أحاول الدخول فيك): أن الحياة لا شيء إن لم تكن كل شيء. وكنت تغمغمين بكلام أفهـ م

منه أن اللذة تختلط، دائمًا، بالألم. وكنت أجيب وأنا بين المتعـ ـة والانحسار: إن الإنسان بطبيعته كائن مأسـ ـاوي. وإننـ ـا إذا مـ ـا تركناه يستسلم لنزعته السوداء، هذه، فلن يتمتع بحياتـ ـه، ولـ ـن نتمتع معه نحن – وكنت تكتفين بأن تنظريني بعينين غـ ـائمتين، بين النوم واليقظة، وأنت تعطين نفسك، من جديد: "تعال". وكما الخارج، يغدو الداخل كتلة واحدة لا انفصام لهـ ـا. وأحـ ـاول أن أرى العالم من كهفي: هو الآخر متوحدا ومليومًا، إنها الحرب، وهي وحدها قادرة على مثل هذا (العجين). وتسـ ـألين ببـ ـراءة (وكأنني أنا الذي دعوتك، قبل قليل):

– لماذا تريد مرة أخرى: ولا أدقق كثيرا فيمن دُعي. ولا فيمن دعى. كانت بساطة الاتصال وصدقه فوق" المهاترات". ولم أكن في الحقيقة، إلا داعيا بقدر ما كنت مستجيبًا. وكأنني أقـ ـرأ فـ ـي (كتاب الوصل) الذي سأغلقه إلى الأبد. فيما بعد أجبت جادًا" لأن الحياة تضيع هباء إن لم تجدد نفسها باستمرار". ورأيت عينيـ ـك تنفتحان على اتساعها (دهشة أم متعة؟) وأضـ ـفت وأنـ ـا أتـ ـابع "نصف الحياة رغبتنا في الآخر ونصفها الآخـ ـر رغبتـ ـه فينـ ـا. تصوري جسدا يملك رغبتين باتجاه واحد" (وأشرت إلى جسدي

الهاجم نحوك) ولم تري شيئا. كنت قد بدأت تغمض ين للم رة الثانية، عينيك وفجأة قلت "أريد أن أخرج".

– لا. قلت:

– بلى. وخرجت. ولم تصمدي طويلا. كنت تلحقين بي ك اللبوة الهائجة. الاختباء شيء والتصور شيء والخروج شيء آخ ر. كنت أريد أن أرى دمشق خلاء. أن أمش ي وح دي، إلا أن ك لحقت، وبإصرار مباغت تعلقت بي، وأنت ترددين:

– لا أريدك أن تتركني، بعد الآن.

في تلك اللحظة تمامًا بدأت الحرب. الح رب الطبيعي ة، ه ذه المرة: حرب الحياة التي ستستمر أعوامًا طويلة بعد ذلك ومث ل أي حرب أخرى كنت تخسرين مرة وأخسر مرة حتى نتع ادل. المهم إلا يربح أحد منا. أوليس ذلك منهجك "ومنهجهم أيض ا"؟ بلى – أستطيع الآن أن أؤكده. لم أكن قد اكتشفت م ن الع الم غيرك، وتريدين أن تقيديني بالإخلاص، وك أنني ل م أول د إلا لأرتبط كالخروف بحبل "الحب" القصير. وبتذمر، بدا واضح ا أكثر مما يجب، قلت:

العالم واسع وعلي اكتشافه– ولن أكتشفه إلا إذا أحسست أني حر

– ومن يمنعك من أن تفعل ذلك؟ قلتِ، وأضفتِ سريعا:

– فكرة الإخلاص؟

– لا، مبدأ الإخلاص الذي يعني تسليم الذات طواعية للآخ ر. لآخر، ربما لن يحترم ذلك طيلة الوقت وربم ا، أي. وم ن أي منظور نظرنا إلى ذلك فإنني أشم فيه رائحة الاختناق.

ورأيت العكر يركب وجهك الذي كان يتهل ل للتو. وس اءني (لغبائي الساذج) أن أكون مصدر تعاسة (بدت لـ ي ف وق حـ د الاحتمال) لك. وأردت أن أميز بشكل أكثر ملاءمة ما قلته، أنّى لي أن أعرف ما يحدث (وما سيحدث) هنا وهن اك؟ (وأض فت بسذاجة): أريد أن أقول إننا لا نستطيع أن نطمئن، أبدا، إلى بنية نقيمها فوق مستوى وهمي. ورأيت الصمت يأخذ سطح عينيـ ك. تفهمين. ولا تفهمين. بلى كنت تدركين قبـ ل أن أدرك أنـ ا مـ ا تبجحت بقوله (وكأنني أكشف لك عن عالم سحري، لم تعرفيه). ولم يكن ذلك (كما عرفت فيما بعد)إلا وهما زينته لـ ي نفسـ ي. فليس المهم "توصيف" العلاقة (وبخاصة توصيفها بكلمات فقدت معناها منذ بدء الخليفة) بل روحها. والتفت إليك ضاحكا، لأقول (بشكل مغرض، مع الأسف).

– دعينا من حديث إلافك المضحك، هذا. كنت أريد أن أتناول ك في العراء في ساحة (المرجة) ذلك المساء وأحسست بك (عجبا) تتمنعين تمنعا بدا لي مثل زلزال هز كياني كله (لكلم يضحكني، ذلك، الآن). مع أنه (كما كنت أعرفك آنذاك) تمنع كاذب. عندما أستعيد ذلك التاريخ "تاريخي الشخصي" أبكي. أبك ي عل ى أي شيء؟ وهل يستحق فعل مبك، حقا، أن يبكى عليه، لا أظن ذلك. بلى أبكي لأنني صرت أرى الآن أبعاد المأساة التي لم يعد م ن الممكن تلافيها. كنت أعتقد أن كلامنا قادر ول م أك ن أدرك أن الكائن المفرغ لا يعرف (ولا يستطيع) أن يحب، لأنه لا يحس ن إلا الانسلاب. وأن عملية تفريغ الكائن لا تستقيم إلا بتفريغه من طاقة الحب العظيمة (والتي هي وحدها أساس تم رده). كن ت أستعيد زجاج النافذة المعتم، من جديد، وأنا أتمتم مستاء:

"قصقصت جناحيك أيها الأحمق، وصرت تزحف، ونمت أجنحة الآخرين وطاروا وما عليك الآن إلا أن تنبت لنفسك أجنحة م ن جديد، إن كان من الممكن لك بعد اليوم أن تطير" ول م أرك إلا وأنت قاعدة مثل ساحرة، قذف بها آخر الليـ ل الباريس ي ف ي وجهي. قاعدة وتوجهين، حاقدة، سبابتك إلي: " عجيب أم رك. تريد أن تتوقف الحياة في (دمشق)، عندما كن ت طفل ة نيئ ة

وغريرة؟ ألا تعرف أن الحياة خطيرة، وأنها أخطر من المـ وت بكثير؟ وإلا لِم ترانا نتجشم، عناءها، عناء مساكنة كائن بـ ائس مثلك؟ أكاد أشك في أنك لا تزال تتوقع (لسذاجتك التي سـ ارت تثير قيئي) أن تلتقي " بوعيك" صدفة، كما التقيـ ت بـ ي. الآن، أحب أن أقول لك" إنها لم تكن، أبدًا، صدفة". أنا التي رتبت ذلك اللقاء المثير عشية الحرب. تذكر، كنت فـ ي سـ احة الأركـ ان. الشمس لاهبة. الجنود قادمون من الحدود. صفرة وجوههم تحز في النفس. عرقهم، غبارهم. لحاهم، أدواتهم المملـ وءة ترابًـ ا، أقدامهم التي كانوا يسحلونها بتؤدة مثل الموتى الطـ العين مـ ن القبور. تذكر كنت تتألم وأنت تنظر إليهم من وراء شجرة العالية (الشجرة نفسها التي سحبتك إليها ذات يوم) كنت تبكي، وكنـ ت أحوم حولك. مذ رأيتك قررت أن تكون لي. ألا تريد أن تفهـ م هذا؟ تعذب نفسك وتعذبني لمـ اذا؟" وكأنـ ك أردت أن تشـ حذي نفسك المتلاحق، سكتِ لحظة وأضفتِ، أضفت من جديد:

" كان يحركك التعاطف الساذج (حتى لا أقول الكاذب) مع الآخرين، وكانت تحركني الرغبة (الرغبة فيك). والرغبة لا تخضع لمنطق ولا تحكمها الأخلاق. إنها قوة منيعة مكتفية بذاتها. لقد صرت واثقة (بشكل لا ريب فيه) من أنك لم تعرف

في حياتك كلها رغبة حقيقية، وأن كل ما تعلنه ليس سوى حاجات(أو رغائب) أولية يمكن لأي أحد تلتقي به أن يكفيها."

كانت تحكي، ولم أكن أسمع. كنت أقترب، خلسة من حافة الزجاج البارد. زجاج نافذة الطابق السابع والعشرين. بهدوء أصخت السمع. كان الحضيض موحشاً ومسكونا بالصمت. كنت أرى أنوار السيارات العابرة في الأسفل دون أن يصلني ضجيجها. من وراء ظهري كنت أسمع بلا انقطاع همهمتها ودمدمتها. كانت تحكي بانهمار متسارع. كان كلامها يتساقط من فتحة النافذة إلى الأسفل مثل شلال لا ينقطع عن الانحدار. كانت تحسب أنها تكشف علي سرا، ولم يكن الأمر كذلك أبدا. كنت أعرف منذ أول نظرة أصابتني بها، أن الأمر لا يتعدى كونه مشروعًا جنسيًّا بحتا ولأنه كان كذلك فقد استحوذ، بصرامة،على اهتمامي. وحسبت أنها تريد مني (إضافة إلى ذلك) أن أوهمها بحب مواز لتلك الطاقة الجنسية، ففعلت. لم أفعل ذلك قصدًا، فحسب، بل فعلته مدفوعًا برغبة عميقة في أن أمثل الدور الذي كانت هي، الأخرى، تمثله، تمثله ببراعة طبيعية. وفي نهاية الأمر. ألم نكن، كلانا نتصرف وفق "المنطق العام": منطق "خذ ولا تعط"؟ بم تريدين أن تقنعيني الآن؟ بأنك، منذ البدء كنت

تخططين لما تفعلين ولا تفعلين إلا ما تريدين؟ أوليس ذلك هو حكم الكذابين على أنفسهم (وبخاصة عندما يقارنونها مع الآخرين)؟

لا، لم أكن أحسب أن المتعة ستتحول إلى عبء. وأنني سأكون مضطر للدفاع عن وضع لا يستحق الدفاع عنه، بخاصة، بعد أن أدركت أخطاءه وأخطاره. لا، لم أكن أدرك بعد، أن العلاقة المحدودة بين شخصين، تلخص علاقات الكائن مع العالم، أجمع. وأنه لم يكن من المستحسن الركون إلى وضع ساء إلى حد الجيفان: وضع يعيد إنتاج (أو يمثل) الأوضاع السيئة كلها. انتبه! إذا ما فعلت ذلك (دفاعا عنه، أو إصلاحًا له) فكأنك تحاول ترقيع العالم برقعة ليست من خامته، ولا من مقامه. ما ينفع في هذه الحال، هو" التكشيم". هو ترك الجزء العاري عاريًا حتى يكتسي من لحائه أو يموت بردا.

ما لم أكن أتوقعه، أيضا، هو أنني منذ أن وعيت ذلك تحولت إلى وحش. إلى وحش كاسر. ولم يعد يهدئني إلا النظر المستريح في الماء. وفعلا قذفت برأسي خارج النافذة التي فتحت على مصراعيها، أبحث عن سطح (السين) الجاري في

الحضيض. من عل بدا السطح أبرق كامدًا. لا تموجات تعلوه ولا تحولات. ماء يجري ولكنه ساكن! أكاد أفقد توازني. كنت أتابع عن كثب سطح (الخابور) المتدفق مثل وحش ملأه الشبع بالاضطراب. ماؤه تعرف الأرض التي ترويها. وأشجاره تنبت على ضفتيه برعونة وصلف.

وجيلانه مملوءة أثلاما من كثرة العراك معه، وإياه. وكدت أصرخ، في آخر الليل الباريسي الكئيب: خابور!

لكنك تحركت فجأة. كاد رأسك أن يطرق الجدار. وكدت أضحك صخبًا. إلا أنني أمسكت نفسي ومن جديد، بدا الاكتئاب يركبني. لم أكن (شيء ما) في فضاء ذلك الخراب المعمم. ولم أكن أدرك أن الفرق بين شعور الذات وبين أمنها فرق لا يمس الشكل، فحسب، بل يمس، أول ما يمس، الجوهر. وبالتالي ليس ثمة ما يؤمل إنقاذه من براثن الزمن منذ أن يمر عليه. لم أكن أعرف، من قبل، معنى الحدوث غير القابل للعكس، وهأنذا أعرفه متأخرًا جدًا. ومع ذلك، لابد من التصارع معه ومعك، وإلا ربحت، بشكل نهائي، كل شيء، بما فيه، خيبتي التي ستدوم.

ووجدتني أنفض يدي بعنف في سكون آخر الليل، ذاك. أنفضهما وأنا أتحسر:

– أيمكن لكائن عاقل(أو يفترض فيه أن يكون كذلك) أن يظل يدافع عن وضع (بأكمله) وباستمرار، حتى لو كان وضع روحه داخل جسده؟ كيف إذن زينت لنفسي تلك الانفعالات السخيفة حاسبًا إياها انفعالات حب حقيقي؟ وكيف كنت أندمج بين الجموع الهادرة، في ذلك الفجر الدمشقي البارد، راكضا من "ركن الدين" إلى " الميدان" ومن " الصالحية":إلى "القصاع"، مخترقًا" دمشق" من الطرف إلى الطرف، صائحا، طالبًا كل شيء، دون أن أحصل على أي شيء؟ أية حماقة تملأ رأس الكائن المخدوع ليظل يعتقد، جزافًا، أن كل ما تمناه (وما يتمناه) قابل للتحقيق؟ ولِم لمْ يطرف لك جفن وأنت تراقبين حركاتي العصابية، ذلك النهار القائظ؟ ألم تكوني قد كونت، بعد، فكرتك الرهيبة عن العالم؟

وكأنك لم تتركي فضائي، أبدا، قلت دون أن تعبر جذعك ارتعاشة:

– بأمور تافهة كهذه تضيع الحياة. الحياة المحدودة (زمنًا وفضاء) تضيع في أمور غير محدودة. ماذا بإمكاني أن أفعل لك؟ كنت ستتحطم، لو نهيتك، آنذاك. كنت تحسب، لحماقتك، أن الاندماج في الجمهور فضيلة. فضيلة كنت تمارسها بحماسة

وعناد. لم تكن قد توصلت، بعد، (ولم تتوصل حتى الآن) إلى تكريس ذاتك ككيان آدمي مستقل عن المحيط. كان الإجماع بالنسبة لك (ولا يزال، أنا واثقة من ذلك) الأول والأخير. لا مصدر الرأي فحسب (فلقد يكون ذلك بعض الأحيان مقبولا، وإن كان ذلك شديد الندرة) بل مصدر السعادة. تذكر. كنت ألتقي بك مساء، وقد أنهيت جموحك الصاخب مع الجمهور. كنت تبدو وضاحًا مشرق العينين مثل كبش نزل للتو عن جذع خليلته. كننت ما إن تراني حتى تأخذني بلا توسل أو ضجيج. كان رحيقي ينساب كالعسل بين رجلي وكنت تبتدع الابتهالات والحركات المسيلة للدموع أكثر، فأكثر. تذكر. أية حماقة، إذن، كانت جديرة بأن تدفعني إلى ارتكاب فعلة تنشف "ريقك وريقي"؟ لا، أنا لست نادمة على شيء. إنني لا أدافع إلا عن "حقبة ضمن الحقبة" عن لحظات، عن لحظة واحدة أتحمل تبعتها بإطلاق. لكم أتمنى أن تفهم ذلك أخيرا.

وكأن الكلام الذي قيل، قبل قليل، لم يكن صادرًا عنك، رأيتك تلمين أجزاءك، وتذهبين بها إلى النوم وصرخت أنا مشمئزًا: "النوم من جديد"؟ وأصابك صياحي المؤذي (كما أتصور) في

ذلك الفجر المعلق في بنوبة احتقان صاروخية (أكاد أقول)،إذ رأيتك تتعدلين سريعا، وإلي توجهين سهام أقوالك التي لا تبلى:

– ثمة عتبة تحمل لكل شيء، وعند كل واحد من الكائنات. فكما أن للذوق عتبة، وللمس عتبة، وللشم عتبة، وللسمع عتبة، كذلك للحب وللجنس، للإخلاص وللصدق ولبقية المقولات(التي تملأ قحفك) عتباتها.

وكما أن لتحمل الحرارة والبرودة والإجهاد عتباته، كذلك لتحمل كائن آخر (وبخاصة ذي مزاج مضطرب، مثلك) عتبته الخاصة به، أيضا. وبلوغ الإنسان عتبة تحمله (جسديا كان أم روحيا) يشكل حدًا لا يمكن له أبدا حتى ولو أراد (وهو بالتأكيد لن يريد) تجاوزه. لماذا؟ لأن ما وراء عتبات التحمل (وهو ما أدعوه أنا: بالربع الخالي، أو سطح الوجود الأسود) لم يكتشف من قبل أحد، بعد " وبالأخص مني". تضحك؟ ولم لا؟ ذلك مضحك حقا مع أنه الصواب بعينه. من جهتي، لقد بلغت عتبة تحملي لك في جميع المجالات، هذا ما أريدك أن تدركه.

لم أكن أضحك، أبدًا، كنت على حافة البكاء. لا بسبب ما قالته، فحسب (وهو أهون الشرور وأقل المساوئ التي يمكن أن تصيبني) بل لأسباب أخرى كثيرة. لم أكن مهموما بعتبة تحملي

إزاء الآخر، ما كان يشغل بالي هو عتبة تحملي لذاتي. كنت أحاول، منذ فترة طويلة، أن أنتزع ذهني أو فكري، أو نفسي (إذا شئت) من وحل ذلك الماضي البعيد.
انتزعها لأضعها، فعلا، في فضاء القرن الذي أعيش فيه الآن (لا أكذب إذا قلت إنني صرت أحس أن ما يفصل اللحظتين: لحظة الشام العتيدة، وهذه اللحظة يبدو لي وكأنه قرن كامل، ومع أنه لا يتعدى العشر سنين مرتين) الآن صرت أشك في إمكانية تحقيق ذلك الحلم: حلم تخطي الحدود الوهمية التي تفصل عالمي (وأصعب شيء هو تخطي الحدود الوهمية، لأننا لا نكف، في الحقيقة، عن عبور الحدود الحقيقية، كل يوم) ثمة خلل عميق وحقيقي صرت أحسه في نفسي، وأحس أنني عاجز عن إدراكه، والسيطرة عليه، بله إصلاحه أو تجاوزه. وهل يمكن للكائن أن يصلح، أو يتجاوز، ما لم يعد، أو يدركه؟ نهرب من أنفسنا إلى أين؟ وكيف؟ سوى بالوعي،أو كما يحدث غالبًا" بالتصعيد الكاذب لأهوائنا" وهو ما يعمق خضوعنا للمحيط ويدفع بنا في نهاية الأمر إلى الهاوية). إن حالي اليوم مثل حال من دس في شرجة فتيل موقود. ويطلب منه، مع ذلك أن يظل محتفظاً بهدوئه، وأن يتصرف بشكل معقول(وإنساني حتى). ولكنك لا تدركين ذلك.

(٣٠)

غفوت واقفًا على الشباك. منبه رأسي الداخلي دق، فجأة. صحوت. الوقت، تمامًا كما كل يوم، حين أصحو" صحوة الساعة الرابعة صبحًا".

كم من الوقت مر منذ أغلقت عيني؟ هنيهة؟ لحظات؟ دقائق، لا أكثر لكنني أحسست أني نمت الدهر كله. نشاط مفاجئ كان ينبعث من أنحائي. لم أكن محتاجًا إلى تغيير مكاني لأرى فضاء (باريس) فجرًا.

تركت الخارج المحيط بي. كان الغمام المكتظ الذي سأراه. طيلة النهار الذي سيشرق بعد قليل ويملأ الأنحاء. ولم تعد السفن تمر. وحدها شرائط الضوء المتسابقة تعلن عن مرور السيارات الذي لا ينقطع. سيارات لا تتوقف أبدًا. ومهما كان الوقت والظرف، عن المرور. شاطئ (السين) الباهت لم يعد يحوي بدل الأشجار سوى الأحجار: أحجار الرصف المدهونة بالقير، لتمر عليها بلا عوائق جحافل السيارات المتسابقة نحو" المعلوم."

كنت قد بدأت تنامين" نصف– نوم" فارجة فخديك. وكان تنفسك قد بدأ يتباطأ. كانت الفرصة ملائمة لكي أحرضك على التسليم. لحظة الساعة الرابعة "لازال طعمها فيه". ولبرهة شديدة القصر، نسيت حقدي، كله وتبخر كربي. كنت أتهيأ للانقضاض علي ك، حين انفجر، بشكل متواطئ، جذعك. لكأنك كنت تقولين:تع ال. ولم أقدم. كنت تتكومين على فراش لاصق ب الأرض. ترك ت الشباك، دخلت المطبخ. لا شيء يؤكل. بقايا طعام الأمس اليابسة متروكة في حوض المغسلة. صحون وملاعق وكؤوس وسخة، تتكوم: بعضها يركب بعضا. لماذا لم تغسليها (أكاد أقول لماذا لم تغسلها)؟ من نافذة المطبخ، أتطلع من جديد، إلى الفضاء المحيط بي: فضاء الساعة الرابعة ليلا. أريد أن أرى وجهًا بشر يًا. أن أرى هيئة إنسانية. اثنان يتعانق ان، م ثلا(أس طورة ب اريس الشهيرة)،لا. ليس ثمة في الخارج س وى أض واء الس يارات المتسابقة كالنجوم المرصوفة على الأسفلت.

أعود بهدوء شديد إلى مكاني (لصق النافذة). أمر، من جديد بك: لا زال فمك يتنفس بهدوء. ولا زال جذعك لاص قا ب الأرض. ولازالت دعوتك: تعال، قائمة، كما حسبت. إلا أنني تجاوزت ك،

وأنا أتمتم: حتى إشعار آخر. لماذا وردت تلك الجملة السـ خيفة على ذهني، آنذاك؟ لم أعد أدري. كل ما أدريه أنني كنت أتطلع متفحصا كل شيء. كان نوع من التمرد المفاجئ يستولي علـ ي: فضاء محدود وتافه مثل هذا الفضاء يمسك بتلابيبي،ويمنعني من التحرك والتغيير؟ ووجدتني، في ذلك الفجـ ر، أقهقـ ه وحـ دي، باصقا في الفراغ الذي فغر فاه، حالما فتحـ ت النافـ ذة. كنـ ت أتعجب: إزاء بنية شديدة المحدودية، كهذه، يبدو التغيير الجذري وهما (أو كنت أراك تتقلبين من جنـ ب إلـ ى جنـ ب، فاسـ حة أوراكك، وملهمة أعضائي بعض حبورها العدائي الصارخ. مـ ا كنت أريد أن آتيك ورأسي مملوء بالقشور. تلك الساعة من الليل بين أشتات أفكاري: الكائن لا يأكل نفسه فحسب بل كثيـ رًا مـ ا يأكل معه الآخرين.

وكأني عثرت على كنز في صحراء "باريس" الأسفلتية وجدتني أتمتم بشكل غامض، من جديد: صحيح أن قلب البنية الصـ غرى يبدو مستحيلا (أو شبه مستحيل) منظورًا إليـ ه مـ ن منطقنـ ا الأصغر(المنطق الذي تعلمناه لحماية أنفسنا أولا، وبشكل خاص منها، هي، بالذات) إلا أن الأمر لا يبدو كذلك بالنسـ بة للبنيـ ة الكبرى. لماذا؟ سألت نفسي وأجبت: لأن البنية الكبرى وفق هذا

المنطق الصغير المحدود، لا تخص أيامنا(أو هي تبدو هكـ ذا) وهو مظهر خداع. خداع لدرجة أن الكائن يتخلى عن محيط ـه الكبير الذي يحيا فيه حياته الأساسية والوحيد، في سبيل الحفـ اظ على تكوين مجهري سخيف. يقنع نفسه(أو يقنـ ع) بـ أن ذلـ ك (الشيء) هو مملكته على الأرض. وما عليـ ه إذن، إلا الحفـ اظ عليها. أترين الآن إلى أي مدى يمكن أن يتغلغل مشروع تفريغ الكائن وتتفيهه؟ واكتفيت بأن استدرت شمالا، معطية للريح الذي هب مقعدك كله. ولابد أنك شعرت بلسعة النسمة الباردة، نسـ مة باريس المكفهرة، على لحم إليتك المكشوفتين، جزئيا. إذ رأيتـ ك تتلمسين الغطاء الذي انزاح منذ الحركة الأولى التي انبعثت من طرفيك.

وإذن لقد خدعت مرتين: مرة في الداخل ومرة فـ ي الخـ ارج. وكأن نورًا أشرق في وجهي، وجدتني أتملص مـ ن أحاسيسـ ي الكئيبة التي لم تتركني منذ أول الليل. عندما خطر لي، فجأة: أن حياتي ليست مستعارة. وأن مشاعري هي الأخرى حقيقية لدرجة أنها لا تكف عن تعذيبي. ماذا أريد أكثر من ذلك،؟ ولكن، إلـ ى أي حد أستطيع أن أحافظ، منذ الآن على هذا " الملك الحقيقـ ي"

الذي لا يخص، هذه المرة، أحدًا غيري؟ أحافظ عليه، وأعنيه. هذا ما قررته، في تلك اللحظة المبهجة.

وكأن أحدًا وكلك بالدفاع عن هؤلاء جميعًا(لا عن كفحسب)، رأيتك تتعدلين في جلستك، والحقد يتصبب منك(حقد جنسي في أساسه) وبلا احتياط توجهين إلي سهام ألفاظك الجارحة:

– تنتقد السلطة وأنت أكثر منها تسلطًا. تحلل نفسك محللين الآخرين، تحكي عن مشاعرهم وكأنك أنت الذي سكبتها في نفوسهم. لا أحد يتكلم غيرك. دع الآخرين يعبرون عن أنفسهم.اسألهم: حاورهم، بدلا من أن تلاحقهم بنظراتك كالمعتوه. سكتِ برهة وأضفتِ:

–لا زال ماضيك التعيس يعذبك. أشك في أنك ستخلص منه، ذات يوم. الحياة ليست مجموعة مشاعر "خالصة". وبخاصة عندما تكون مشاعر مضطربة. ما قيمة الحياة، وما جدواها، إن لم نتخط عوائقنا، وبالأخص الجوانية منها؟ كنت تبدين كالماء مكتفية بذاتك. ومع أنني نزعت وجهي من عتمة زجاج النافذة، لأضعه في "نور وجهك" باحثا بإمعان عن علامة للشك فيما

تقولين "قد تغلبك وتطفو عليه" لم أظفر بشيء. وبدأت أصـ رخ صامتا:" أنا بحاجة إلى كل شيء: إلى الحب والحنان والجـ نس والأصدقاء والمال. كل مقومات الحياة السليمة تنقصني. كيـ ف يمكن لكائن، وحده أن يقاوم كل هذا العوز؟" كنت وأنـ ا أسـ تمع إليك، لا أفكر إلا بشيء واحد: " كيف يتحـ ول الإنسـ ان إلـ ى طاغية" ولم يكن الجواب صعبًا أبدًا: يكفي أن يعتقد بأنه دائمـ ا على حق ومع ذلك فلطغيانك طعم خاص، طعـ م يـ دفعني إلـ ى التمعن فيه، وتقليبه على وجوه احتمالاته جميعًا، قبل النفور منه. أحسست أنني بعت نفسي بأبخس الأثمان. وأن الهزيمة آتية، ولا ريب. وفي النهاية، إما أن أحافظ على ماء الوجه. أو أن أرفـ ع منذ الآن راية التسليم.

وكما ترين، فنحن في الحالتين منهزمون. ما علينـ ا إذن إلا أن نختار طريقة الهزيمة. ولكن من غيرك الهازم؟ هم أيضا؟ أنـ ا نفسي اشتركت في هزم نفسي؟ ماذا كان بإمكانك أن تجيبي، بعد أن أدرت رأسك إلى الحائط الرمادي الباهت وكأنك تبحثين فـ ي صلادته عن أفكار جديدة تلقين بها، في صـ لف إلـ ي؟ تركتـ ك مندارة وخرجت إلى المرآة. المرآة المربعة الصغيرة أبحث فيها عني. وقبل أن أصلها صرت من جديد أصرخ:

"عن أي شيء تبحث، وعلى جبهتك العلامات: علامات الحـ ـب الميت، والانهيار الأكيد"؟ ما إن رأيت وجهي الكالح، فـ ـي تلـ ـك المرآة الباريسية، حتى هدأ روعي. لم يهدأ اطمئنانا، ولكن لشدة الخيبة القاطعة للشهية. كان يملأني إحساس مفاجئ بالغبن. غبن تاريخي، لو كرست حياتي كلها لأزالته، لما توقفت. غبن جعلني أشعر منذ البدء بأنني كائن دخيل. دخيل حتى وأنا" في نفسـ ـي". ولأني عشت "ماهية الدخيل" عميقا ولم يساورني الشك أبدًا فـ ـي عدم صحتها، بله إمكانية الخلاص منها. وهو مـ ـا سـ ـهل، بـ ـلا ريب، احتلالك لي. احتلالك الغاشم الـ ـذي لا يختلـ ـف عـ ـن أي احتلال آخر. وقبل أن أنزع عيني عن جبهتي المقابلة لـ ـي فـ ـي المرآة خالطني شعور مناقض (أكاد أقـ ـول شـ ـعور منـ ـاهض): "برغم ذلك كله، سيكون لدي الوقت الكافي لأتجـ ـاوز عـ ـوائقي التافهة، هذه" عوائقي التي سأتجاوزها كما أتجاوز نفقا طويلا، لا أرى، الآن، نهايته المنقذة.

كان علي أن أكون على مستوى "الوضع السيئ"، ذلك الوضـ ـع الذي عشته ورعيته بطاقتي المعقلنة، كلهـ ـا. كنـ ـت أعتقـ ـد أن الإحاطة والعقل قد يحلان (بعض المستعصيات). ولم يكن ذلـ ـك (في حالتي، على الأقـ ـل)إلا وهمـ ـا. الآن، صـ ـرت مقتنعًـ ـا أن

الإنسان يمكن أن يكون ضحية لتهور الغفلة إلا أن ه سـ يكون، بالتأكيد ضحية مضمونة للتعقل الزائد. وربما. كانت تلك، تمامًا هي حالتي. خاصة وأن ضحايا" العقل" أكثر بكثير (بكثير جـ دًا) من ضحايا الغفلة والغباء (إن كان لهما، في الحقيقة، ضحايا).

(٣١)

كان الليل قد بدأ يقترب من نهايته، مثلي. وبحركة صامتة، مثل فهد (ضعي الفهد بين قوسين، إن شئت) اقتربت منك. كنت أريد أن أرى آخر تعابير وجهك" المزاود" قبل أن أتطوح ملقوحا من الشباك.

كنت قد جرحت بعمق. جرحت جروحا يعجز اللسان عن تبيانها (أنت وحدك تعرفين كم كان جرحي بليغا) إزاء ذلك الجرح كل ما يمكن أن يقال أو يفكر به سخيف. ومع ذلك لابد من التفكير والكلام. كنت بحاجة إلى كل معونة حتى ولو كانت لا تجدي. كنت أحسني ضعيفا ومحدود القدرة، أنا الذي عندما أمشي أشق الريح شقًا، معتقدًا أن الحياة مثل الهواء أتخلله ويتخللني دون أن يسيء إلي. وهو ما طبع سحنتي بطابع" البلادة": بلادة طيبة القلب الزائدة عن اللزوم.

لا، لم أكن أدرك العظمة الكامنة في إمكانية أن يتحرر الإنسان. كنت أجهل، قبل الآن، هذه الإمكانية. إمكانية ارتقاء سلم التحرر

درجة، درجة. كنت أحسب أن الإنسان يولد فعلا حرا، ولم، أكن أعرف أنها الحرية العاجزة. حرية من لا يفق ه حت ى معن ى حريته، دعك من التصرف بها كان علي "صار لزاما منذ الآن" أن أتحرر شبرًا شبرًا. أولا منك. لا، أولا مني أنا، وم ن ث م منك. " هكذا ترين أن علي أن أتحرر منك مرتين" وأخيرًا م ن البقية الباقية. ماذا يعني ذلك؟ يعني أن فضاء حرية الك ائن" أن وجدت" هو فضاء (جسده) أولا، ومن بعد فضاء فكره (إن كان يمكن لكائن مفرغ أن يحتوي فكرًا). كل هذا لا قيمة له، بعد أن قلته! علي أن أبحث عن شرح آخر شرح عملي أمارس به جزءًا ضئيلا من إمكانية التحرر الهائل ة المطروح ة ق دامي. لق د اهتممت، منذ نعومة أفكاري. بالشكليات. والشكليات مص درها الوهم (وهم الحصول الكاذب على الحقائق والأشياء) ومصيرها الاهتراء العاجل. ماذا بقي علي أن أفعل،غير أن أه زك ه زًا عنيفًا، علك تفيقين من سباتك الذي طال؟ لا، ليس لدي أية رغبة في ترك المكان دون أودعك الوداع الأخير. وكي ف لعين ي أن تواجها الظلمة الأبدية قبل أن يتكحلا بنور عينيك؟ واقترب ت منك. اقتربت حتى حدود اللماس. ولم ألمسك. كنت أحس أنن ي إن فعلت ذلك، فسأكون عنيفًا، عنيفًا جدًا وليس للعنف، مذ ذ أن يستقر، حدود لأن العنف في حقيقته. بلا هدف.العنف، في النهاية

هو موضوعه ولا أريدك أن تكونيه. م ن قب ل كن ت حري ا باستفزازك، بأي شيء حتى ولو كان عنفا مقيت ا. وم رة بع د أخرى أدركت أن تلك الخضات السخيفة لم تحرك إلا ال روائح الكريهة في مستنقع حياتنا الراكدة. وبدت الفعلة عبثية إلى ح د بعيد: تخض المستنقع أكثر. تفوح الروائح أكثر. تخض ه م ن جديد؟ أم تهجره إلى مستنقعات أخرى؟ (اقرئيها كما تش ائين). أأوقع عقد الاستلام النهائي، إذا، مع المحيط، بقب ولي لمقول ة القناعة القديمة: إن كنت في وضع سيئ فلا تنس، أبدًا، أنه يمكن له أن يكون (أو يصبح)أكثر سوء بكثير؟ لا، لا يمكن لحصار أن يكتمل (وأن يكون حصارًا حقيقًا) دون منافذ لا تحصى.

النافذة من جديد. الظلام الأشهب في فضاء باريس الكئيب. أنوار السيارات التي لا تكف عن المرور. أنت– وأنا. كل شيء ك ان ممكنا. بما في ذلك ألا يكون ممكنًا أي ش يء م ن الس هل أن نخرب في لحظات ما بنيناه خلال أعوام طويلة. وإذا ما فعلن ا ذلك فلن يكون بإمكاننا إعادة بنائه من جديد. م ا علين ا إلا أن نختار. ماذا سنفعل إذن؟ ووجدتني من جديد أتشنج ضد نفس ي: "لماذا تطرح هذا السؤال الزائف؟ عليك أن تقول: ماذا بإمكانن ا أن نفعل؟"هكذا فقط، قد تخطو أول خطوة عل ى الطري ق،(ولا

أقول الصحيح). وإذا كان الوصول إلى أي ة نقط ة ل يس إلا وصولا مرحليًا (على طريق الحي اة، ذي المراح ل التي لا تحصى) فإن علينا ألا نصل، أبدا،(مدفوعين دفعًا، ودون رغب ة حقيقية منا) إلى " نقطة اللاعودة". لقد قررت، في تلك اللحظ ة (كأنني أقرأ القرار مكتوبًا على زجاج النافذة المظلم، قدامي):"ألا أفعل بعد اليوم، مكرها أي فعل، أعرف أنني س أتراجع عن ه مكرها، بعد حين".

كنت أريد أن أنقذ نفسي وأنقذك (والك ائن الواح د آلاف م ن الكائنات). إلا أنني كنت مقيدًا. مقيد القلب واليدين، مثل ص قر اصطيد بالرغم منه.

(٣٢)

منذ زمن بعيد لم أجيء إلى هنا. هأنذا، أجيء اليـ ـوم. المقهـ ـى مليء بالزبائن. ليس ثمة مكان للجلوس. أخيـ ـرا أجـ ـد كرسـ ـيا وطاولة مفردة. الكرسي والطاولة يلتصقان بزجاج المقهى. يكاد الجلوس أن يكون مشقة.

علي أن أنقذ من وراء الطاولة لأجد الكرسي المحشور ينتظرني بامتعاض. لكأنه استراح، هنيهة، قبـ ـل وصـ ـولي، مـ ـن أوراك الجالسين، وكأنني كنت جالس العكر (على وزن جالب العكـ ـر) له، وجدته يهتز بهدوء تحتى (رغـ ـم وزنـ ـي الوسـ ـط) باعثـ ـا صرصرات متلاحقة يسمعها " مقعدي" قبل أن تسمعها أذناي.

في الخارج تطعم يابانية جميلة طفلها المؤدب آخر لقمـ ـة مـ ـن "الكريب". صرت أتفرس فيها: عينان مرفوعتان شمالا. حواجب مقوسة مثل أسهم صيادة. فم ينفتح وينغلق بلا انقطاع.

أخرجتني منها، رائحة القهوة الحادة التـ ـي اجتـ ـاحتني، فجـ ـأة. وضعها" الغرسون" قدامي. وضعها بحركة عاجلة ملحة. وضعها

وراح. ألتفت، أبحث عنها ورأيت أخرى(كنت أسمع من ورائي صوتها المختلط): ظهرها جميل متصـ ل بـ ردفين مكـ ورين. وعندما أحست بي أزاحت ثوبها الأسود قليلا. كأنهـ ا أرادت أن تقعد من جديد أحسستها تستولي على الكرسي الأحمر الصـ غير الذي تضاءل تحتها بحياء. كان نسق جسدها الجميـ ل ينكشـ ف نهائيًا: جذع آخاد ولكن، أين وجهها؟ وقبل أن يجيء الوجه، جاء الصوت:- صباح الخير، سيدي.

- صباح الخير.

- كنت في إجازة؟ وقبل أن أجيب، يتابع:

- واضح. كنت في الشمس. كنت في بلادك؟

- لا. كنت في الجنوب.

-في الجنوب؟ يتساءل بدهشة،وهو يملأ عينيه من جلدي.

ويتابع:- في بلادك لا توجد شمس؟

-بلى، شمس كثيرة. ودون أن يسمع، سمعته يتابع متعجبًا:"فـ ي الجنوب؟".كنت أعرف انه يخلط بين " الجنوب " وجنوب الكـ رة الأرضية وأردت أن أوضح له ذلك.

–آه، في الجنوب، في جنوب الكـ رة الأرضـ ية. كـ ان يبتعـ د ضاحكًا. حاملا طلبات الزبائن المتكاثرين، وهو يحكي لنفسـ ه:" في الجنوب شمس لها مثل هذا الفعل؟ شمس عدائية إلـ ى هـ ذا الحد؟" وقبل أن أوضح،من جديد جاء الرجل صـ احب الكلـ ب. الرجل الذي كنت أراه منذ سنين، دون أن أسمع له صوتًا. كنت أعير نفسي، به:"منذ عرفتك وأنت تهذي. تحكي بلا سبب. تعاند الناس كلهم، من يسمعك يحسب أن لك ثأرًا مع العالم. لمـ اذا لا تتعلم من هذا الرجل الصمت. الرجل الذي لا يتكلم حتـ ى مـ ع كلبه؟ ما كان يدهشني " أكثر " أن الكلب، نفسه تعلم الصـ مت. كان ينظرني بهدوء بعينين مفتوحتين على أقصاهما. لكأنـ ه لـ م يكن يراني. كنت أشعر بالتضاؤل أمام ذلك الكلب الـ ذي كـ ان يتجاهلني قصدًا. وعندما قلت لك: " حتى الكلاب هنـ ا تمقتنـ ا". رأيتك تضحكين وأنت تهمهمين:"تمقتك أنت" وأضـ فت قبـ ل أن استوعب المعنى لملاحظتك الفاصلة: "لماذا لا نعترف بأنك تثير عدائية كل من يراك، بما في ذلك الكلاب؟" ما أدهشـ ني اليـ وم التغيير الذي بدأ يفضح تلك الكتلة:"كتلـ ة الرجـ ل – الكلـ ب" : الرجل أبيض كله ما عدا الكلب. الكلب ظل صـ امتا. وصـ ار الرجل يحكي ويحكي مع هواه. ينظرني الرجل ويحكي. كأنـ ه يسبني. لا. كان يعاتبني على صمتي. لم أقل شيئا بقيت سـ اكنا

في مكاني المحصور: من يستطيع أن يتكلم وهولا يستطيع حتى أن يقعد مرتاحا؟ لكن الرجل لم يفهم ما قلت. ولم تفهم ي أن ت الأخرى. وصرت أتذمر:"خسرنا الحرب" حتى في هذه النقط ة. أتكون الحياة تافهة إلى هذا الحد؟" وسمعتك تبربرين: "خسرتها، وحدك". وبلا حذر التفت إليك والعدائية تشع من عيني: وأنت ألم تخسري شيئا؟ ألم تخسري شيئا؟ وبلامبالاة قلت: " ليس لدي ما أدافع عنه سوى نفسي. ألا تريد أن تفهم ذلك؟" وفي غمرة البهتة التي أخذتني، أضفت:"والنفس إما أن تخسرها دفعة واح دة، أو تكسبها إلى الأبد". ووجدتني بلا سبب أضحك. لا كنت أض حك لأنني "عثرت" على ما لم أكن أنتظر العثور عليه: لقد بدت لي، فجأة حسنات ذلك الوضع السيئ الذي كنا نعانيه.

وصرت أحث نفسي: "لا تبحث عن النقاط المشتركة، فهي عديدة دومًا المهم هو أن تبحث عن نقط الاختلاف القليلة، وعن الأق ل منها بكثير: نقط الاختلاف الجذري. ذلك وحده، ووح ده فق ط، يبرر معرفة الآخر، ويفتح الباب لمعرفة الذات".

حتى تلك اللحظة تماما كنت أخلط نفسي بالآخرين. وأحسس ت أن علي، منذ الآن، أن أمسك مصيري بيدي. ووجدتني أقول لك وكأنني أتحداك:

– إحدى المخاطر الأساسية في الحياة. التشبث. التشبث بما نعرف (وبمن نعرف). وحري بنا أن نفعل العكس.

ولم أستطع أن أكمل الكلام. أن أشرح باستفاضة كاملة ما كنت أريد قوله، إذ سمعتك تقولين، وأنت تحدقين في عيني:

– "العكس" بحاجة إلى فضاء. والفضاء بحاجة إلى حركة. والحركة بحاجة إلى إرادة. والإرادة بحاجة إلى شغف. وأنت ماذا تملك من هذه المقومات؟ ماذا تملك غير التوتر والانفعال؟
لم أكن أسمع. لكأن أذني جفت. بصري تعلق بالرغم مني، به. بذلك الطفل. طفل يلعب في واجهة المقهى. بسيارة بلاستيكية، لها مروحة ملونة، وأبوه بالقرب منه ومني منهمك بسيارة "رولز رايس" هائلة الحجم بديعة التكوين. الطفل ضاحك وسعيد. وأبوه متوتر وبائس. وكأن نافذة فتحت في رأسي، صرت أرى الناس بعينين باهرتين. أدركت، فجأة كم أنا بحاجة إلى حاسة جديدة. حاسة أسميتها في سري: " حاسة التمييز". وإذ كنت أردد من قبل عبارتي التي صارت ملازمة لتفكيري (وأستطيع الآن أن أقول: الساكن) عبارة: من المؤسف أننا وصلنا إلى هنا وجدتني،

للتو، أدرك أنه لم يكن من المؤسف أبدا. لماذا؟ لان كلا منا قد خط، بالتأكيد، لنفسه ومنذ البدء مساره الخاص. ولأن تقاطع المسارات لا يتم أبدًا وصدفة، وبدأت أبكي. ورأتني "مطعمة الكريب لابنها" فتوقفت رأسا عن إطعامه. وتوقفت فكاه عن الحركة واللوك سحبت اليابانية اللقمة من فم الطفل وألقت بها في مجرى الماء ولم تعد أبدًا نظرتها المائلة إلى نظرتي المبلولة. ورآني جاري الأشهب ولم يتوقف عن التشكي والكلام. كان يتكلم بفرنسية جامحة عن مشاكل البطالة والعمل والأسعار. ورأتني الكتلة كتلة الرجل- الكلب ورأيتها عينا الرجل الذي شاب دامعتان وعينان الكلب واجفتان. الرجل ينظر إلى صديقه الكلب والكلب ينظر إلى عيني. وأخذت عيني منه امرأتان. طويلة وقصيرة. الطويلة ينقصها كل شيء ما عدا الطول. والقصيرة عندها كل شيء ما عدا الطول. وجه الطويلة بارد وعفيف لا إغراء فيه ولا فتنة. وجه القصيرة فاتن. فتنته تأسر القلب لكنها فتنة بلا إغراء. ماذا أفعل؟ مرت المرأتان سريعًا. كأنهما لم تكونا في وجهي. الآن، أكلهما ضوء الشارع البليل، كما يأكل البحر ساحله. أعود من جديد إلى المرأة المقابلة لي. كنت أتطلع إليها منذ فترة. أتطلع ولا أتطلع. ليس فيها ما يغري ولا ما يزجر النظر. تقف عند حدودها النفس. كانت امرأة –

نصف: نصف طويلة نحيلة. نصف شقراء؛ نصـ ف سـ مراء. امرأة من تلك النسوة المتضررات بفعل الزمن والحيـ اة. مـ ن منعها اللذة ومن منحها إياها؟ من أصاب معها ومن أخطأ؟ مـ ن أحسن أو أساء إليها؟ لا يمكن معرفة أي شيء مـ ن عيونهـ ا أو محاياها. امرأة لا تلتهب ولا تعاف. إن أعطيتهـ ا أخـ ذت وإن منعتها قنعت. (هذا ما عرفته بالنظر عنها. والنظر لا يخطئ ولا يصيب) كانت في وجهي، تمامًا. منذ جلست وهي تحسو خمـ رًا أحمر من كأس ترتكز على قاعدة مدورة يعلوها عنق طويـ ل. تحسو وتنظر في خلاء الطريق. لكأنها لا تجالس أحدًا. المـ رأة المجالسة لها لا تكف عن الكلام. هي تستمع ولا تسمع. تحسـ و وتنظر. بنظرتي الأخيرة لها، اكتشفت بعض مزاياها:

كتفاها مدوران ملحمان. أطرافها مملوءة بتناسق. صدرها يكـ اد يكون عريضا مع أنه ضيق. حوضها يكاد يكون ضـ يقًا وهـ و عريض. أنفها شبه مستقيم؛ عيناها يبثان بريقًا هادئًا. بريق لـ م يصل إلي بعد. أذهب أنا إليه. في طريقي نحـ وه، أرى شـ فتها السفلى: نصف دائرة من الرغبة المكتومة (وما معنى الرغبة إن لم تكن كذلك. رغبة تتحقق لا تعود رغبة). أحول بصري عنها وأعود مرغما إليها" إلى الشفة السفلى، ذات الهدوء الميئوس من تعكيره "ثمة شيء ما يشوش فضاء تلك الشفة ويخرب كل شيء

فيه. أريد أن أعرف كان يزعجني الإحساس الذي اسـ تبد بـ ي. آنذاك: الإحساس بأنه سينقصني شيء ما لو استطعت أن آخذها بين شفتي. ولم يكن ما ينقصها سوى الشفة العليا: الشـ فة التـ ي التهمها النسيان.

(٣٣)

وصرت أرفع رأسي إلى أعلى. إلى أعلى ما يمكن لأرى الريح الحامل كيف تملأ الجو بنثارها. وهجم رأسك المـ دور العنيـ د علي: " تعال، تريد أن تموت؟ قلت: بلى. ومع ذلك لـ ن يتغيـ ر شيء. قلتِ هازئة. لم أكن أحلم أن أغير العالم بموتي. كنت أريد أن أعاقب نفسي على تفاهتها. كنت أرى معالم القمع والاضطهاد تنتشر حولي كالفطر المربع ولم أكن أجرؤ على فك لساني. لـ م أعترف لك بذلك. كنت أحسب أنك قادرة على الرؤيـ ا، قـ ادرة وحدك على اكتشاف الخلل المخيف الذي كان يملأ حياتنا من.... واكتشفت، أخيرًا، أنك لا ترين إلا الألوان التي في عينيك. وأن حائلا خفيًا بدأ يتكون في فضاءينا

تلك كانت سقطتي الأولى. سقطة الحب الذي تجسد حقدًا ولؤما، فيما بعد. لا، لم يكن ما بيننا حبـ ا. وكيـ ف يحـ ب مضـ طهد مضطهدًا، آخر؟ كنت أحسب أن كل شيء مع "الشبابة" ممكـ ن، بما في ذلك الحب الكاذب ولم يكن ذلك إلا كذبة أخرى سأكتشفها بعد ذلك بزمن طويل. كان نوع من التعاضد المتـ واطئ يشـ د

أحدنا إلى الآخر، بانتظار أن تزول الغمة ولبساطتنا اعتبرنا ذلك "كل شيء" في حياتنا الخالية من الحياة. أتذكرين كيف منعنا من المشي ومن الركض ومن الكلام ومن التظاهر ومن التعبير عن هياجنا واضطهاجنا؟ كيف كنا نحشر كالبهائم المفلوتة، وقد أحيط بها بعد لأي؟ لا،لا أصدق أنك نسيت شيئا من ذل ك الاحتق ار المشوب باكتئاب عميق والذي كان يملأ ذواتنا، لا ضد من كانوا هم السبب، ولكن ضدنا نحن، ضد أنفسنا التي كانت على حاف ة الامتثال. لازلت أذكر لون عينيك وسحنتك الكبدية حين قلت لك أنه انتحر. لم تسألي في بداية الأمر شيئًا. وبع د لحظ ة م ن الوجوم الرهيب، سألت: كيف؟ (وكفى).وكأن تلك الكلمة وحدها كانت تكفي لمحو مشاعر الخزي والموت والانحطاط. ول م أرد عليك في بداية النهار. ذلك النهار القائظ ال ذي ك ان يشـ وي (دمشق) من (المزة) إلى "القصاع"، وم ن "المه اجرين" إل ى (الميدان). واكتفيت، أنت بأن تسربت مع الماء النازل من "عين الفيجة" جنوبا. لم أكن أعرف؛ بعد، كي ف أسـ ويك ولا كي ف أواسيك. ومثل الجرو الذي يلحق بأمه صرت أت ابع خطواتـ ك المتمهلة والحزينة. ماذا كانوا يريدون منا؟ من كنا نحن؟ وكيف يمكن فهم تلك العلاقة المجهولة الهوية بيننا وبينهم؟ م ن ه م؟ ووجدتني أتساءل عن أكثر الأشياء جوهرية وواقعية حولي: عن

معنى الريح وجدواها، عن الماء الـ ذي أشـ ربه، عـ ن ماهيـ ة الأشياء، كلها وأولها أنا، لا لم يكن ما يملأ نفسي خـ وف، بـ ل تساؤل. تساؤل عما إذا كانت الأشياء هي فعلا، كما أراها ولـ م يكن في مقدار أحد آنذاك، أن يجيبني. ماذا أسـ تطيع أن أفعـ ل، إذن غير أن ألحق بك، كالمهر الذي أضـ ـاعوه. كنـ ا نتسـ ـابق، أتذكرين، في اختراع المقولات؟ وآخرها" بعد أن أنتحر": أطلب المستحيل لكي تحصل على الممكن" يومها نظرت، خلسة إليك، ورأيتك بين الدمع واللمع ترفرفين بأهـ دابك السـ ود الصـ ـامتة. ولأول مرة، أحسست أنك بدأت تبتعدين. ولم أقل شيئا وسـ ألتِ أنت مستاءة:

– أبتعد عن أي شيء؟ " والدم يلمع في مقلتيك".

–لا. أبدًا. "قلت أنا، وسكتنا، معا". وعندما التفت إليك،لأقول لك بنوع من الحياء الذي لم يكن كاذبًا آنذاك:

يعذبني بعض الشك الذي في نفسي.

– أحرى بك أن تتعذب من اليقين. ألم تتجـ اوز، بعـ د مراحـ ل الطفولة، طفولة المشاعرالمتهافتة: مشـ اعر الفـ راغ العـ اطفي السخيف؟ (أتراك قلت ذلك آنذاك؟ في الحقيقة لم أعد أدري. مـ ا

أعرفه تمام المعرفة هو أنك قلت شيئا يمكن أن يؤدي، في نهاية الأمر وإلى مثل ما قلته أنا قبل قليل).

أعرف أن ذلك صار " مذكورا" (بمعنى أنه من حوايا الذاكرة). لكن ذلك لا ينقص من قيمته شيئًا. أوليس ت الـ ذاكرة مخ زن الحياة؟ ومن قال لك إن الحياة أصدق من الـ ذاكرة؟ وإن كن ت نسيت فأنا لازلت أذكر حتى الآن مشاعر القرف الذي كان يملأ نفوسنا ونحن في مواجهة الجموع، المحتشدة في العراء والت ي كانت تنتظر منذ ساعات الفجر الأولى بشائر " قدومه".

وكان القرف يتزايد بتزايد الهتف والتصفيق. يومها. ندغتك وأنا أردد " متعجبا ومشمئزًا" صحيح، ماذا ينتظ ر القطي ع غي ر الراعي؟ غير راعيه هو بالذات" ولم تقولي. آنذاك شـ يئا كـ ان العبوس المخيف يملأ قسماتك" التي لم تكن ناعم ة كم ا هـ ي الآن"ماذا كانت تستفيد الأرض من الأقدام الواجفة فوقها، وم اذا كانت الريح تقول للأصوات المبحوحة التي كانت تنقلـ ا إل ى البعيد، غير اللعنة؟ غير لعنة التاريخ الذي كان ينهمر مثل شلال من الماء الآسن. ماء لم يسق زرعا، ولم يرو فرعا. ماذا كـ ان يمنعني. آنذاك، من أن أمشي؟ أن أترك كل شيء على الأرض وأمشي. كنت أعرف أن الموت يتربص بالأشياء من الألف إلى الياء. ولم يكن الجبن (الذي كنت أتمتع به بجدارة) هو، وحـ ده

الذي قيد قدمي. أتذكرين، الآن؟ يومها، تحـ ـت ع ـ ين الشـ ـمس الدمشقية اللاهبة، حضرت أعضائي وهيأتها " لكل شيء" وبدأت أنوس مثل الذبابة المطرودة عن كوم من الزبل: تروح وتجـ ـيء بلا انقطاع، وكأن روحها معلقة فيه" وهي كما نعرف الآن معلقة فعلا به. فبأي شيء آخر يمكن أن تتعلق روح ذبابة؟ ولم تكـ ـن روحي، يومها بأجل من روحها) وما معنى (إضافة إلى الخوف) تعلقك اللذيذ المفاجئ بزندي المنتصب(وهو ما كـ ـان مصـ ـدره سعادة خفية لي) وإلحاحك: "لا، لن تموت قبل أن تحبنـ ـي" ولـ ـم يكن ذلك إلا تمهيدًا لموتي الفعلي الذي سترتبط أسبابه بأسـ ـبابك منذ تلك اللحظة (والذي سيتحقق على يديك، بعد ذلـ ـك بـ ـزمن طويل). كنا في بداية تفتحنا. وكان كل شيء يبـ ـدو لنـ ـا قـ ـابلا للتحقيق، وللتحقيق. لم تكن تنقصنا الإرادة لفعل ذلك ومع ذلـ ـك، كنا نقضي الوقت نتطلع منتظرين إشارة البدء– ولم يبدأ أحد منا. لماذا؟ لماذا لم أبدأ، أنا وحدي. كان الفضاء العام مملوء بسـ ـموم التخلي والانتظار: تخلي الكائن عما يخصه، وانتظـ ـاره لمـ ـا لا يخصه (وهل ثمة شيء في الحياة لا يخص الكائن الذي يحيا؟). قولي لي، إذن من أين كانت تنبع تلك البلادة التي كانـ ـت تشـ ـل عقول الناس وأبدانها؟ وكيف يتحول الكائن "الفاكر" (أو الذي من المفروض فيه أن يكون كذلك) إلى كائن " آكل" (وآكل فقط).

وكيف يتعود الإنسان المفطور على التمرد والحرية(والذي ولدته أمه حرًا، حتى من ثيابه)كيف يتعود على الخضوع والانصـ ياع وكأنهما طبيعة ثانية فيه، يكفي " لإذكائها" أن نلوح له بالعصـ ا (حتى ولو كانت عصا وهمية).

لماذا لم يفعل أحد شيئا من أجل نفسه، حتـ ى ولا أذ ا؟ وتلـ ك الجموع الهادرة لماذا لم تكن ترى السوء والتقهقر؟ ولماذا كانت تحيط نفسها بتلك النظرة الملتهبة وكأنها تصدر عـ ن الجحـ يم؟ كنت أحس أنني أعرف (كل شيء) ولم أكن أعرف شيئا. كنـ ت أحوم حول لب الحياة دون أن أجرؤ على الولوج فيه. لماذا؟ لقد أدركت متأخرًا (والإدراك دائما كذلك، وإلا كان إشراقًا) إننـ ي كنت بحاجة إلى شجاعتين لتغيير حياتي: واحدة تعـ وض عـ ن جبني، والأخرى تعوض عن جبن الآخرين. ومن أين لي بهما، معًا؟ عذر سخيف آخر أضيفه إلى أعذاري التـ ي لا تحصـ ى. وهجمت مقتربا منك.

كنت لا تزالين تغطين في غفوتك التي طالت. كنت أريـ دك أن تقولي شيئا (أي شيء). لقد تركت، منذ أول الليل. وحيدًا. حتى سفن الضوء البليدة راحت تستريح وفي المحيط المجابة للنظر لم يبق سوى الظلام: ظلام الضوء الخافت المنصلق من عل نحـ و الأرض. مددت رأسي عبر نافذة الطابق السـ ابع والعشـ رين،

أستطلع الفضاء، باحثا عن القمر. القمر الذي لم أره منذ سـ نين. ماذا علي أن افعل لكي تفهمي؟ القمر، القمر الذي لـ م أره منـ ذ عشرين سنة سوى مرتين، أين هو الآن؟ وأين هم أولئك الـ ذين تجمعوا، ذات نهار قائظ، حقي أن أعـ رف كـ ل مصـ در مـ ن مصادر حياتي؟ أريد أن أعرف سبب تلك الهيستريا الجماعيـ ة التي كانت تركب الناس منذ أن يسمعوا "يلا يـ ا شـ باب. يـ لا يا شباب" حتى وإن قالها " البقال".

أريد أن أعرف مكونات تلك "البنية " التي فرغتنا من محتوانـ ا وحولتنا إلى مجرد مصفقين. ومن ثم دفعتنا إلى التخلي، بعد أن فتحت لنا الأبواب لنهرب، لنهرب تاركين لها كل شيء بما فيـ ه أمتعتنا الشخصية. لا، الآن إما أن نحكي لنفضح ذلك كله، أو أن نسكت إلى الأبد.

واقتربت منك، أهزك لتفيقي، لتقولي شيئا. كان إغراء إزعاجك أقوى من كل لياقة. ولكنك لم تكوني غافية أبدًا. كانـ ت عينـ اك تلمعان. مثل عيون الذئاب في الظلمة. ماذا كان يحرك كيانك في تلك العتمة الباريسية البائخة؟ وبمن كنت تفكرين؟ولماذا بقيت بلا حراك طيلة ساعات الليل المنصرمة. أتريدين منـ ي أن أجـ ن، وحدي؟ أن ألقي بنفسي من عل مثل الحجر المنكود؟ ذلـ ك مـ ا

سأفعل ولكن بعد قليل. ولم أصرح لك بذلك حتى لا تربطيني. وفجأة صرت أقهقه، وأنا أضع وجهي بين عينيك، لئلا تري غيره:

– أنسيت كيف كانوا يقنعوننا بأننا أحرار؟ والحرية، عندهم، هي أن يمسكونا بين أيديهم وأن نتصرف(كما نشاء) بين مخالبهم. وهل يمكن أن يتصرف ممسوك إلا بما يمليه عليه ماسكه؟
وصرت أبصق في الفراغ وأنا أردد "صراع الكائن مع محيطه ليس صراعًا سياسيًا بحتا، إنه أعقد من ذلك بكثير".

(٣٤)

كل ما فعلته حتى الآن لم يكن سوى التنفيس عن كرب، لا يمكن التنفيس عنه، لأنه غدا تاريخاً (أو تاريخيًا، بالأحرى) أولا، ولأن مصادره ليست مصادري. ولكن ليس باستطاعتنا إلا أن نحيـ ـا. وأن نحيا يعني أن نستمر في حربنا التي لا تتوقف ضد تفريغنا. وإن كانت في ظاهرها حربًا وهمية، إلا أنها حرب ضد أعـ ـداء حقيقيين، حقيقيين جدًا، نكاد نعرف أسماءهم وسماتهم. نعرف ما فعلوه بنا وما لم يفعلوه. لكن الإحساس بعدم الجدوى في خوض حرب " وهمية" نقابل فيها أعداء ليسوا وهميين، هذا الإحسـ ـاس المريع، ليس في حقيقته إلا بعض مزايا (تفريغ الكائن). وهـ و أهم سلاح بيد هؤلاء الأعداء. من جهتي صرت أفضل الاحتفاظ بإحساسي (المرهق)، والذي قد يدفع بي ذات يوم إلـ ى سـ ـاحة "الفعل المنتظر" على أن أتقدم خطوة مزعومة إلى الأمـ ـام بـ ـلا إحساس. صرت أدرك الآن، أن الأمر لا يتعلق بمسألة (أو حتى حرب) تجارية،هدفها الربح "العابر" أو الخسارة "العـ ـابرة " بـ ـل (بتحطيم جهاز المناعة النفسي للكائن)، وذلك بتقـ ـويض بنيانـ ـه وتشويش توجهاته" و حتى الأكثر غريزية منها"، من أجل إتمام

عملية تدجينه، وإلحاقه "بقطيع اللامبالين": قطيع الـ دجاج الـ ذي يبيض كل يوم ذهبًا وهو يصفق (لحماقته)، فرحًا بجناحيه اللذين لا يسعفانه حتى على السير، (بله على الطيران).

صرت أتمنى لو أملك إسفنجية سرية، أسـ تطيع إدخالها ا ف ي رأسي. أمررها يميناً وشمالا ماحيًا بها مل ما تراكم فيه من قبل بما فيه حبك السليط. ولكن كل شيء ف ي الحي اة ممك ن، إلا الرجوع إلى الوراء. ماذا بإمكاني أن أفعل إذن غي ر التصـ دي لذلك الخلل الرهيب؟ غير مواجهته، وتقبل ه،" أو ع دم تقبل ه" واستخلاص النتائج منه" لا العبر والأحكام فحسب" وفجأة دهمني صوتك الرهيب وكنت أحسبك، تنامين:

– لماذا لا تفعل ذلك يا موزع العقول على العالم؟ لقـ د ظننـ ت دائما أنك من صنف الكائنات المزيفة إلا أنني لم أكـ ن أحسـ ب أنك، أنك مزيف إلى هذا الحد. وما هو الزيف الذي ألومك عليه؟ (قلت متسائلة، وبعد برهة تابعت) هو أنك لا تريد أن تعتـ رف بسطوة الواقع الذي يتجاوزك كل يوم.
أحيانا تحكي عن قيم غدت "أسطورية" لشدة اهترائها. وأحياناً ا تطلب من الآخر إجـ راءات لا يمكـ ن التـ ردد برفضـ ها، ولا

المساومة في انتهاكها. من أين لك بهذا الشغف المميت؟ وم ن يحشو رأسك اليابس بحشوته المجنونة. هذه؟

–ليس ثمة منفذ، إذن؟ كل شيء معروف ومحسوب! لكن اليأس ليس حلا، وهو بأية حال ليس موقفا أيضا ثم من قال لك أن كل ما يعرفه الآخر عنا صحيح، مع أننا نحن قد لا نعرفه عن أنفسنا (وهذا ما هو واقع في أغلب الأحيان). وهو ما يسمح لي، ه ذا المساء، أن أعلن عدم اهتمامي الكامل والصريح بكل ما قلته منذ أول الليل. لم أكن أبحث عندك عن ت أنيبي،أو ت أثيمي. كن ت أتصور أنني معك سألقي ما أضعته منذ زمن طويل ول م أج د سوى المجابهة. كنت أحسب أن عدونا مشترك. وأن ك مثل ي تريدين الخلاص من القيود التي كبلتنا. ولم أكن أعرف أن تطور العقول، هو الآخر مثل تطور الأجساد مختلف لا مؤتلف.

بدأت الريح فجأة تعوي. ما إن فتحت نافذة الطابق السابع والعشرين " للمرة الألف" حتى لفحني الهواء العالي. ه واء رمادي اللون، مملوء بقشور مختلفة الحجوم. له رائحة مثل رائحة السفن المحكمة الإغلاق. لم يكن الهواء صاعدًا من النهر بل آتيا توا، من الغيران: غيران الجو الملوث إلى حد الموت.

وكأن ما قلته لم يكن أكثر من هرج بلا معنى، سمعتك، من جديد ترددين باعتداد على مسامعي (التي صارت تشتهي الصمم):

– في الحياة ليس ثمة منفذ، وبخاصة بالمعنى الذي تريده أنت. لماذا؟ لأن مفهوم "المنفذ" أو المخرج أوالخلاص أو ما شاكلها من مفهومات، هو ببساطة ضد طبيعة الإنسان. وإلا لكان من السهل أن تنفذ الناس جميعًا منذ أن تحاط بحصار الفشل أو الموت أو النكوص. (فجأة سكتِ شاحذة نفسك المتقطع بإصرار):

–في الواقع ثمة من يختارون حياتهم وثمة من يختارون لها. وثمة من هم لا من أولئك ولا من هؤلاء (وأنت منهم). ليس ذنبي أن تكون ما أنت عليه، إلا أنني سأكون مسئولا لو أقنعتك بعكس ذلك، هذا كل ما في الأمر.

كنت تتكلمين، في الوقت الذي كنت فيه أقوم وأقعد. منذ متى وأنا أقوم وأقعد، أتطلع شغفا دون أن أقول شيئا؟ كانت (سان سيباستيان) مثلوجة وبيضاء كالقطن. وكنت لم أفارق الوجه الهادئ منذ الساعة الثامنة صبحا.

قضيت الليل كله، ماشيًا على حواف المحيط الأطلسي، وأنا أتمتم بخشوع: بحر الظلمات، بحر الظلمات. وعندما سألتني إن كنت عربيًا كان السؤال يختلط (وكأنه مسحور) بـ "تلك" المرأة اللذيذة، ذات الوجه الحنطي، مثل سنابل الجزيرة المشوية بالشمس. وباختلاطهما اختلطت نفسي علي وأنا أحدق بهلع في الوجه، منتظر حركة – الشفاه. في اللحظة الحاسمة نادتني:

–دوني موسا (اعطني هذا). وناولتها، هلعا، جوازي المزور. ودون أن تنظر فيه، خطت به بيدها الرقيقة خطوطا، كان يصعب علي، آنذاك، فكها، وأعادته إليه باسمة:

–"مرسي، مدام"(شكرا سيدتي) الكلمتان الوحيدتان اللتان كنت أتقن لفظهما. وضحكت. وضحكت كثيرًا لضحكتها الدافئة على شواطئ الأطلسي البارد. ولما رأت أنني لم أفك حروفها قالت: "كارانت ويت هور دي بساج"–"٤٨ساعة عبور". ونظرت إلي وكأنها تنقذني من الغرق: " فوزيت هورو"؟ (أنت سعيد)؟ – "تريز هورو" (سعيد جدا) ولم أنصرف. ولم تنصرف نظراتي المتوسلة عنها. كان البرد في صفي، وكانت هي تنعم بالدفء. دفء في جو محيطي بارد. لابد أن ذلك شديد المتعة مثل من يأكل بنهم أمام محروم من الأكل. ولما لم أتحرك سألتني بإلحاح:

–تريد شيئًا أخر؟

–كنت أتمنى الحصول على أسبوع، أسبوع واحد فقط. (وكنت قد حفظت خلال الشهر الذي قضيته في مدريد درسي) وأضفت، قبل أن تسألني، بقية الدرس الذي كنت أحفظه غيبًا: "أريد أن أقضي رأس السنة عندكم في باريس". وشهقت:

–"فوزيت فو؟"، (أنت مجنون؟)

–"وي مدام" (نعم سيدتي)، قلت ضاحكا لها من كل قلبي.

بتصميم، خطفت الجواز المزور، من جديد، ودونت فيه رأسًا: ٢٠يومًا،هل يكفيك؟

–عشرون يومًا؟ أردد خلفها وأضحك. أضحك من كل قلبي. أضحك في بياض الثلج الذي كان يغطي المدينة الصغيرة اللاطئة على حافة الأطلسي. المدينة التي مشيتها خلال ليلة واحدة عشرات المرات بانتظار الصباح، آملا في الحصول على تأشيرة المرور. عشرون يومًا غدت عشرين عامًا ولم أضحك، مثل تلك الضحكة قط.